١٦ قصة جديدة من العالم

جورجي آمادو
تاغ أوريل
دانييل بولانجييه
دوميترو تسيبنياغ
ندلتشو دراغانوف
أوغستو روا باستوس
جود ستيفان
ويلي سورنسن
ميهاي شيكشو
ويلي كيركلوند
ميكلوش فاموش
عثمان لينس
ماريو فارغاس لوزا
پول مرسييه
يوكيو ميشيما
يوري كازاكوف

نقلها إلى العربية
صلاح دهني

الفارابي

١٩٨٨


16
قصة جديدة
من العالم

الكتاب ست عشرة قصة جديدة من العالم
التأليف مجموعة من الكتّاب العالميين
نقلها إلى العربية: صلاح دهني
الناشر دار الفكر الجديد ـ بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١١ / ٣١٨١ ـ هاتف: ٠١ / ٣١٧٢٠٥
التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية. ش.م.ل.
صمم الغلاف محمد خالد
الطبعة الأولى ١٩٨٨

تقديم

أنظر إلى ما آلت إليه حال القصة القصيرة على يد جيل جديد من الكتّاب، فيهولني ما أرى ويوجعني. وأنا لست هاوي نبش بين خرائب الأدب، لكنّ مشاركتي في عضوية قراءة النصوص القصصية والروائية باتحاد الكتّاب العرب في سوريا جعلتني منذ سنوات عديدة، على تماس مع ما يبعث به الكتّاب للنشر على هذا الاتحاد، من داخل سوريا، وكذلك من أرجاء عديدة من الدنيا العربية من مشرقها ومغربها. فرأيت القصة القصيرة، على قصرها، تقطّع، تجزّأ، يقلب عاليها سافلها، تكتب بلغة البرقيات، فتعنون أقسامها، ثم يريد الكاتب لهذه النتف إذا ما جمعت أن تستقيم منها في ذهن قارئها قصة واحدة متماسكة، ومؤثّرة.

ورأيت كتّاباً في سن النضج الأدبي ما انفكوا يراوحون على أعتاب المدارس الفنية التي شاعت في أوروبا، وانتقلت إلى أدبنا في الخمسينات، حيث يمسك الكاتب بخيوط القصة مسْك مقتدر، فينثرها، ويعيد تركيبها، ويكسر سير الزمن مقدماً مؤخراً، معبراً بذلك عن رغبة التجاوز، وتحطيم عادات الكتابة في فترة انتقالية دقيقة وحرجة من حياة المجتمع الابداعية والسياسية، والاجتماعية.

وأنا لا أنكر على أحد رغبة التجديد والتحديث، فما كان حقاً للأولـين فهو حق للآخرين. وليس من المعيب في شيء أن يتأثر الكاتب بمن سبقوه من عرب وأجانب، لكن الأمر المطروح هو أن يتمتّع الكاتب بالمقدرة على أن يكون أصيلاً وكاتباً حقاً أو لا يكون. فالمدارس ليست «تابوهات»، و «الموضـات» يتم تجاوزها. المهم في الفن ليس الانتماء إلى أشكال، أو التعلق بصرعـات وأفانين، بل القدرة على أن يقول المرء السهل الممتنع الذي يحمل شحنة الإبهار عبر منافذ الواقع الوسيعة.

وإنه لما يحز في النفس أكثر أن يرى المراقب نفسه محمولاً على رد غالبية المجموعات القصصية إلى ما هو أسوأ من مجرد التأثر بكتابات رائدة سابقة إلى التأثر على نحو شنيع بمسلسلات التلفزيونات العربية، في قصورها الفني والفكري ونقلاتها الطائشة، والتأكيد على غير الضروري والمرور السرعي غير المتبصر بالأساسي. بما يؤكد ما ذهب إليه بُحّاث الوسائل السمعية البصرية من قدرتها على التخريب، وتحذيرهم من الوقوع تحت سلطانها والتورط في حبائلها.

وقد لفت نظري بمجمل الكتابات الحديثة في هذا الصنف من صفوف الأدب انطلاق الكتّاب في شرق العالم وغربه عن الأخذ بالأشكال التي اعتُبرت متقدمة في الخمسينات من هذا القرن. بل رأيت فيها بنحو عام نقيض ذلك، أعني العـودة إلى المنـابـع الأصيلـة للـواقعيـة دونما اهتمام بالزخارف الأسلوبية. وهي عودة ميمونة إلى القصة التي تروي حادثة ما، لا أيّ حادثة عاشها أو سمعها الكاتب في حياته اليومية فوظفها ضمن مجموعة علاقات جديدة، كما كان شأن الكاتب التقليدي. بل هي حادثة استثنائية يرويها الكاتب عبر خصوصيـة أحـاسيسـه، وعبر قـدرتـه على

الانتقال من الخاص إلى العام. والكاتب هنا إذ يظل على تماس مع الواقع لا يفقد أسباب الارتباط بالخارق الذي يولّد حس الانبهار لدى القارىء.

ساقني هذا كله لأن أترك القارىء العربي المهتم بمتابعة الجديد في عالم الأدب، فيما سنح لي من كشف خلال جوسي في آداب الشعوب الأخرى. فعمدت إلى تخير هذه المجموعة من أحدث القصص لمشاهير الكتّاب الجدد في هذا الجنس الأدبي، والأقل شهرة، وقمت بترجمتها إلى اللغة العربية بأمانة. وسوف يلاحظ القارىء أنني حرصت في أحيان على المحافظة على طريقة التعبير عند المؤلّف، حتى حين تجافي طريقتنا نحن، فتبدو معقدة أو بعيدة المأخذ. وفي ظني أن مترجمينا يخونون الكاتب والقارىء معاً، حين يبّسطون أفكار الأول، ليسهل تناولها على الثاني. أقول ذلك انطلاقاً من أن الكاتب الأجنبي حين يكون ابن المجتمع المتقدم الصناعي، لا محالة أن يكوّن تركيب جملٍ بعينها عنده مغايراً لتركيبها عند ابن المجتمع الزراعي المتخلّف، وعلى مترجمه أن يحافظ على ذاك التركيب حتى حين يتحمل قارئه بلغتنا بعض العنف في متابعة أفكاره، ومن واجبه كناقل ووسيط ألاّ يساعد على تغذية عادات سهولة التقبل لدى القارىء العربي.

صلاح دهني

ماريا ذات الوشاح

جورجي آمادو (البرازيل)

Jorge Amado (Brésil)

★ جورجي آمادو: ولد عام ١٩١٢ في «ايتابونا» (البرازيل). روائي تتميّز أعماله بنفس إنسانيّ واجتماعيّ، وهي غنيّة بالعناصر الشعبية والفولكلورية.

كان الغريب قد نزل هنالك قبل أعوامٍ عدةٍ، أشقر صامتاً. وأنا لم أرقط شخصاً يحب الـ « كاشاسا » بهذا القدر. فأن يشرب المرء من الـ « تافيا » كما لو كان ماء، فما في ذلك أي مدعاةٍ للفخر، إذ هو ما كنّا نفعله جميعاً، بحمد الله، غير أنه كان جديراً أن يمضي نهارين وليلتين مكبّاً على الشرب دون أن يزعجه ذلك. لم يكن محدّثاً ولا مولعاً بالشجار، وما كان يغني أغاني الماضي، ولا يذكر بما سبق له ما حلّ به من مصائب. كان صامتاً وظل على صمته وحدها عيناه أخذتا تتغضّنان، وتصفرّان أكثر فأكثر، وفي الحدقتين تتلظّى شعلة حمراء.

كانوا يروون عنه حكاياتٍ كثيرةً، يتسلسل بعضها بدرجةٍ من الاحكام حتى ليحلو سماعها. وكان كلّ شيء عن طريق السماع، إذ ما من شيء عرفه أحد من فم « غرينغو » (Gringo)، فم مطبق لم يكن ينفتح حتى ولا أيام الخير، عندما تصبح الأرجل من رصاص بضغط الـ « كاشاسا » المتراكمة. حتى أن « مرسيدس » (Mercédés) ذاتها، وهي الفضولية النموذجية، التي لا يخفى على أي مّنا ميلها إلى « غرينغو » لم تفز بانتزاع أدنى تلميحٍ منه حول المرأة التي ذبحها في بلده، وحول الرجل

الذي طارده في الجبال والوديان، على مدى سنواتٍ، إلى أن غرز سكيناً في صدره. وإذ كانت تسأله عندما تجاوز « الكاشاسا » به الحد، كان « غرينغو » يظل مثبتاً نظره في ما لا يعرفه أحد، وقد تخضّبت عيناه الصغيرتان الزرقاوان فجأة باللّون الأحمر، وهما نصف مغلقتين، وتصدر عنه غمغمة ذات معنى مريب. تلك الحكاية عن امرأة قتلت بسبع عشرة طعنة سكّين في البطن، لم أفلح قطّ حتى الآن بالوقوف على الطريقة التي بلغت بها هذه الديار، معززةً بالتفاصيل، بما في ذلك حالة مواطنه الشاب الذي طورد من مرفأ إلى مرفأ، حتى اليوم الذي طعنه فيه « غرينغو » بالسكّين ذاتها التي استخدمها في قتل المرأة بسبع عشرة طعنةً، كلّها في البطن. لا أعرف ذلك، لأنه إذا كان يحمل موتاه في ذاته، فهو لم تخامره الرغبة قط في التخلّص من عبئهم، حتى ولا حين كان يغلق عينيه، وهو مخمور متلاشٍ، وقد خمدت أمامنا الجمرات الحمر في حدقتيه.

لاحظوا أنّ الميت عبء ثقيل، وقد سبق لي أن شاهدت عديداً من الرجال الشجعان يتخفّفون من حملهم ويسلّمونه أحياناً إلى مجهول، عندما كانت الخمرة تضطرهم إلى ذلك. أمّا عن امرأةٍ ورجلٍ غرس في بطينهما خنجر.. فهذا ما لم يسع « غرينغو » قط التخلص منه، ولهذا كان ظهره مقوساً بسبب ثقلهما دون أدنى ريب.

لم يكن يطلب أيّ عون، لكنّ الآخرين كانوا يروون الحكاية بتفاصيل كثيرة، وهي من ناحية أخرى حكاية جدّ مشوقة، فيها مقاطع تبعث على الضّحك، وأخرى تبعث على البكاء، كأيما حكاية جيدة.

لكن ما أودّ أن أرويه لكم الآن ليس حكاية « غرينغو »، فسأدع ذلك لفرصة قادمة، خصوصاً أنّها تتطلّب وقتاً، فليس يكفي قدر يسير تافه من

« الكاشاسا » ـ دون رغبة منّي في جرح مشاعر مستمعي الآكـارم ـ ليتمكـن المرء من التحدّث عن « غرينغو » وسرد قصة حياته المضطربة ، وحل عقدة لغزه، فسأدع ذلك لمرّة قادمة، إذا سمحت به « أوشالا » (Oxalá) [١] بعون الرب. ولن نعدم لذلك فرصة، ولا جرعة طيبة من « الكاشاسا » ، إذ لمن تعمل دوارق التقطير ليل نهار ؟.

إنّ « غرينغو » لا يمرّ هنا إلاّ على نحو عابر ، كما يقال، وقد جاء في هذه الأمسية الممطرة ليذكرنا أننا في عشية عيد الميلاد ، وبأشياء من بلده ، حيث يحتفل بعيد الميلاد بتألّق، وليس كما هي الحال هنا . لا شيء يقارن بأعياد القـديس « يـوحنـا » (Saint - Jean) ، بـدءاً مـن أعيـاد القـديس « انطـوان » (Saint - Antoine) وانتهـاء بـأعيـاد القـديس « بطـرس » (Saint Pierre) ، أو بـ « مياه أوشالا » وعيد الـ « بونفيم » (Bonfim) [٢] والفروض المؤداة إلى « شانغو » [٣] (Xangô) الإله أبي ، هذا إذا وضعنا جانباً « الحبل بلا دنس في لابلاج » ((Laplage) ، فذاك حقاً عيد ، إذ إننا فيما يخص الأعياد ، ليس ثمة شيء نحسد عليه الأجانب.

على ذلـك ، فقـد تـذكـر « غـرينغـو » عيـد الميلاد حين أبـدل « بورسينكولا » (Porciuncula) ـ هذا الخلاسي في حكاية الكلب الأعمى الذي كان يشحذ ـ غيّر موضعه فقعد على صندوق النفط ، وهو يغطي قدحه براحة يده، ليحمي حصته من « الكاشاسا » من شراهة الذباب. أفلا يشرب الذباب الكحول؟ ليعذرني الأشخاص الحاضرون ، فأولئك الذين يؤكدون ذلك لم يعرفوا ذباب خمّارة « آلونزو » «Alonso») . كان

(١) اوشالا : إلهة تحمي المياه.
(٢) بونفيم: إله هندي.
(٣) شانغو : إحدى تسميات إله الخير.

ذباباً مدمناً، وكانت الواحدة منه تجنّ بنقطةٍ كاشاساً، تدخل القدح، فتتذوق نصيبها الصغير منه، ثم تطير وهي تطنّ كالخنافس. ولم تكن هنالك وسيلة لإقناع «آلونزو»، الإسباني العنيد، بالتخلّص من الدويبات التعيسة، كان يقول، وبحق، إنه اشترى الحانة مع الذباب، وإنه لن يتخلى عنها لمجرد أنها تغرم بالشراب. فما ذاك بالسبب الكافي، فزبائنه كلهم مغرمون أيضاً بالشراب، وهو لن يقدم على طردهم بسبب ذلك.

وإنني لأجهل ما إذا كان الخلاسي «بورسينكولا» قد غيّر موضعه، ليكون أشدّ قرباً من ضوء مصباح النفط، أم إنه كان مذ ذاك ينوي أن يقص حكاية «تيريزا باتيستا» (Teresa Batista) ورهانها. في ذلك المساء كان الضوء، كما سبق لي أن بيّنت، مقطوعاً عن هذه المنطقة من الرصيف البحري، فأشعل «آلونزو» المصباح وهو يغمغم. كانت تساوره رغبة في أن يطردهم كلهم خارجاً، غير أنه لم يكن يسعه ذلك. كان ينهلّ رذاذ خفيف ناعم، يبلّل أكثر مما يفعل الماء المبارك، وينفذ إلى اللحم وإلى العظام. كان «آلونزو» إسبانياً قد أحسنت تربيته، وتعلم الكثير عن مهنته كصبيٍّ يخدم في فندق. وعلى ذلك فقد أشعل المصباح وبدأ يضبط حساباته بهدوء ببقية من قلم. وكان الكلام يدور عن هذا وذاك، وتنطلق الشتائم على الذباب، ويقفز الحضور من موضوعٍ إلى آخر، تزجية للوقت كلّما قدرنا، إلى أن أبدل «بورسينكولا» موضعه، وغمغم «غرينغو» بتلك الحماقة حول عيد الميلاد، وما لا أدري عن الثلج وعن أشجار مضاءة. وما كان «لبورسينكولا» أن يدع فرصة مماثلةً تفوته.

فطرد الذباب، ونهل جرعة «كاشاسا» وأعلن بصوته العذب:

« كانت عشيةً من عشيات عيد الميلاد تلك التي ربحت فيها « تيريزا باتيستا » رهانها وبدأت حياةً جديدةً » .

ـ أي رهانٍ ؟ .

لئن كانت « مرسيدس » قصدت تشجيع « بورسينكولا » بهذا السؤال ، فما كان لها حتى أن تفتح فمها ، إذ لم تكن بالخلاسي حاجة لمهمزٍ ، ولم يكن ينتظر رجاء من أحد . ألقى « آلونزو » قطعة القلم ، وملأ الأقداح . كان الذباب يطنّ ـ بالدّويبات السّكرى ـ ! واثقاً أنها صارت خنافس ... وأفرغ « بورسينكولا » قدحه دفعةً واحدةً ، ليوّضح صوته وبدأ حكايته . كان « بورسينكولا » ذاك أفضل قصّاصٍ خلاسيّ عرفته ، وما هذا بالقول الملقى على عواهنه . فهو يعرف الكثير من الأمور ، ويبرع في روايتها إلى الحد الذي يجعل المرء يتخيّل أنه جلس إلى المقاعد المدرسية ، (لولا أنه يعرفه بدقّةٍ) . فهو لم يدخل مدرسةً غير مدرسة « المغامرة » . في الطريق وعلى طول أرصفة الميناء . كان كطائر « الصابيا » (Sabiâ) إذ يروي قصةً ، وأن تفقد هذه بعض طلاوتها ، إذ أرويها أنا ، فلا يقع اللّوم على الخلاسي « بورسينكولا » ، ولا على الوقائع التي حدثت .

تمهّل « بورسينكولا » بعض الوقت إلى أن استقرّ « بمرسيدس » مجلسها على الأرض ، واستندت إلى ساقي « غرينغو » لتحسن الاستماع . فذكر عند ذاك كيف أن « تيريزا باتيستا » ظهرت على رصيف الميناء بعد موت شقيقتها بأسابيع قليلةٍ ، بمقدار ما لزم من وقتٍ ، ليبلغها النبأ هنالك حيث كانت تحيا ، في موضعٍ يبعد كثيراً عن هذا المكان . قدمت لتعرف ما جرى بالضبط فبقيت . كانت تشبه شقيقتها ، لأول نظرةٍ ، بشكلها الخارجي لا بروحها ، لأنّ حركات « ماريا » كانت خاصة بها وحدها ، فما

يشبهها أحد ، وما من أحدٍ سيكون مثلها . ولذا بقيت « تيريزا باتيستا » هي نفسها ، طوال حياتها ، محتفظة بالاسم الذي ولدت به ، دون أن يقدر أيّ كان على تغييره . وفي خلال ذلك ، من ذا خطر له يوماً أن يدعو « ماريا » ذات الوشاح باسم « ماريا باتيستا » ؟ . ولأن « مرسيدس » شغوفة بالأسئلة ، رغبت أن تسأل : من كانت آخر الأمر « ماريا » تلك ، ولِمَ « الوشاح » ؟ .

كانت « ماريا باتيستا » ، شقيقة « تيريزا » ، كما أوضح « بورسينكولا » صابراً . وروى أن ماريا ما كادت تصل إلى الحي حتى جعل الناس كلهم ينادونها « ماريا ذات الوشاح » . وبسبب ذاك الهوس في ألاّ يفوتها أيّ زواجٍ منتشيةً عيناها أمام فستان العروس . لقد تحدّث الناس كثيراً على طول رصيف الميناء عن ماريا ذات الوشاح . كانت جميلةً كقلب ، وكان « بورسينكولا » وهو من هو في العلم ، يقول إنها تشبه تجلي طيف جاء من البحر ، حين كانت تذرع الميناء في العشية . كانت جزءاً من الرصيف كما لو أنها ولدت فيه ، مع أنها قدمت مباشرةً من الجانب القصّي من البلد ، مرتديةً أسمالاً ، ومحتفظةً بذكرى كاويةٍ عن التأديب الأبويّ .

ويتوجّب القول أنّ الأب « باتيستا » لم يكن ممن يتهاونون في مجال الفضيلة ، فلمّا بلغه أن ابن الكولونيل قطف زهرة العاشقة الصغيرة ، وهي أنضر من ثمرة خضراء ، جنّ جنونه ، وأمسك بعصاه وأوسع ابنته ضرباً مبرحاً ، ثم ألقى بها خارج الباب ، إذ لم يكن ليرغب بوجود بغيٍ في بيته فمكانها زاوية من طريق .

هكذا تكلم الأب « باتيستا » ، وهو ينهال على « ماريا » ضرباً مفعماً بالغضب الشديد ، وبأشدّ من ذلك : بـالألم الموجـع إذ يـرى ابنتـه ذات

الخمسة عشر عاماً، الحلوة كحوريةٍ، وقد لطّخ شرفها، وحرمت من أيّ مستقبلٍ إلا أن تكون فتاة هوى.

هكذا أصبحت « ماريا باتيستا »، ماريا ذات الوشاح، وانتهى بها الأمر إلى العاصمة، ففي قريتها النائية في آخر الدنيا، لا مستقبل لها في مهنة البغاء. فلما بلغت آخر الأمر « سلفادور »، وقد انهكتها الخيبات من هذا الجانب وذاك، وقفت على مدرج « ساو ميغل » (Sao Miguel) جارّةً صرّتها حتى بلغت منزل « تيبريا » وهي نائبة المشرفة على بيت دعارةٍ، وقد سألتها هذه ما إذا كانت تلك مدرسة ابتدائية، إذ كانت ماريا تبدو لها جد دقيقةً وفتيةً.

إنّ مجمل تفاصيل ما جرى من قبل ومن بعد، سمعه من فم « تيبريا »، وهي امرأة محترمة جدا، وأفضل مشرفةٍ في بيوت بنات الهوى، عرفتها مدينة « سلفادور دي باهيا »، وأنا لا أحمد سلوكها لأنها اشبينتي، فما هي قط بحاجةٍ إلى ذلك. فمن ذا لا يعرف « تيبريا » ولا يحترم خلالها الحميدة؟ إنها امرأة ممتازة، كلمتها كلمة، وفؤادها كحلاوة العسل، دائمة الاستعداد لأداء خدمةٍ.

والكلّ في نزل « تيبريا » عائلة واحدة، ليس كل واحدٍ لنفسه والربّ للجميع، كلاّ لا شيء من هذا. كلّ يحيا بانسجامٍ، وما الجميع سوى عائلةٍ واحدةٍ.

كان « بورسينكولا » موضع تقدير « تيبريا »، فهو بنحو ما جزء من البيت، إذ يقع دوماً بعشق نزيلةٍ من نزيلاته، وتجده دوماً هناك، إذا ما لزم إصلاح تسرّبٍ للمياه، أو تغييرِ مصابيح احترقت، أو فتح ميازيب

السطح، أو أن يلقي خارجاً بركلة قدمٍ في المؤخّرة، أي وقحٍ، أو أيّ أحمقٍ لم يراع قواعد الأدب؟.

على ذلك، «فتيبريا» هي التي قصّت عليه الأمور بدقائقها، وتمكن من شرح حكايته من البداية حتى النهاية بغير أن يصطدم بأي عقبةٍ. وقد عني بها بنحوٍ خاصّ لأنه ما إن وقعت عيناه على ماريا حتى شغف بها حباً جنونياً، بهوى لا شفاء منه.

باتت «ماريا» منذ وصولها الطفلة المدلّلة للبيت ـ وما كانت تبلغ وقتئذ السادسة عشرة ـ. تمعن «تيبريا» في تدليلها مع النزيلات اللّواتي يكبرنها سنّاً، فيعاملنها كما لو كانت ابنتهن، يغرقنها بالألطاف والهدايا الصغيرة. حتى إنهن قدّمن لها دميةً تستعيض بها عن لعبةٍ من القماش، كانت تمثّل بها الخطوبة والزواج. كانت ماريا ذات الوشاح تربح عيشها على رصيف الميناء، فهي تحب مراقبة البحر، شأن ما يفعل بنحو عامٍ أهل البلاد الداخلية. فما يكاد الليل يسدل استاره، حتى كانت الصغيرة تهبط الى شاطىء البحر، في ضوء القمر، أو تحت الغيث الهاطل رذاذاً كان، أو مطراً عاصفاً، كانت تمشي وهي تنتظر الزبائن. كانت «تيبريا» تؤنّبها ضاحكةً: فلم لا تمكث «ماريا» في البيت، في غرفتها، مرتديةً قميصها المزهّر، لتنتظر الأثرياء الذين يقدمون على ارتكاب أمورٍ جنونية من أجل صبأ كصباها. وقد يتاح لها الوقوع على ثريٍّ يحميها، عجوزٍ يشغف بها، وعندئذ ستطيب لها الحياة، وستغمرها الهدايا، ولن تضطّر لمضاجعة هذا وذاك بمعدل اثنين، أو ثلاثة في الليلة، بل إنّ لها في بيت «تيبريا» ذاته، دون أن تذهب بعيداً، مثالا في «لوسيا» (Lucia)، التي تتلقى مرّةً في الأسبوع زيارة مستشار محكمة الإستئناف «مايا»، الذي كان يمنحها جميع

ما تحتاج إليه. بما في ذلك وظيفة هيأها لذاك الكسول « برسلينو » (Bercelino)، معشوق « لوسيا ».

كانت « تيبريا » تستغرب أيضاً تمنّع ماريا أمام إلحاح « بورسينكولا » الذي كان يتآكل من هوى يكنّه لها، غير أنّ الصغيرة كانت تضاجع هؤلاء وأولئك إلاّ هو.

كانت تسير معه يداً بيد حتى جبل « سيرا »، متأمّلة البحر، أو إلى جانبه مع تغنجات ولْهى، حين يخرجان مع آخرين في نزهة صيدٍ بالقارب في ضوء القمر.

كانت آنذاك تروي للخلاسي عن حفلات الزواج التي حضرتها، وجمال فستان العروس وطول الوشاح. إلاّ أنها تعمل ما تراه حسناً في ساعة الرّقاد، في تلك الساعة كانت تقول: « تصبح على خير »، تاركة « بورسينكولا » مشوّشاً، في غاية الغباء.

تحدث « بورسينكولا » على هذا النحو تماماً في أمسية المطر تلك، حينما أثار « غرينغو » ذكر عيد الميلاد. لهذا أحب روايته للقصة: فالخلاسيّ يحترم الوقائع التي حدثت، لا يعدّل أيّ تفصيلٍ، حتى من أجل أن يقلب مجرى القصّة في صالحه. كان يسعه أن يقول بيسرٍ إنه امتلك « ماريا ذات الوشاح »، ومرّاتٍ عديدةٍ، فذاك ما كان يتصوّره الناس جميعاً، طالما شوهدا معاً على طول الرصيف. كان يسعه أن يتبجّح، غير أنه عرض ما جرى بالضبط عوضاً عن ذلك، وهو ما لم يكن مفاجئاً بالنسبة لبعضنا. كانت « ماريا » تضاجع هذا وذاك، وتتهيّج وتتلذذ، فلا يمكن القول إنها لم تكن تحبّ الأمر، غير أنه ما إن يتمّ، حتى ينتهي بالفعل، ولا تغرب في أن تعرف من بعد أي شيء. أن تحبّ حقاً بهذه الطريقة، بدون هدفٍ،

مع ما يسبّب الحبّ لها من ألمٍ، وعذاب الغربة، لا، لن تحب أحداً، إلا أن تكون قد أحبّت الخلاسي «بورسينكولا»، لكن لمَ لم ترغب إذن بمضاجعته؟.

كانت تمكث إلى جانبه طويلاً، جالسةً على الرمل، والقدمان في الماء، مداعبةً الأمواج المتلاشية، متمعّنة في الأفق الذي لا يبلغ أن يتبيّنه أحد. من ذا رأى نهاية البحر؟ أرآه أحد منكم؟ اعذروني، فأنا لا أصدّق ذلك.

إذا كان هنالك من عاشق بحقٍّ، فهو بغير ريبٍ الخلاسيّ «بورسينكولا»: فلم تكن تنقضي عشيةٌ دون أن يبحث عن «ماريا» على شاطىء البحر، ويرصد حركاتها، متلهّفاً للذوبان فيها. كذا بالضبط حكى كلّ شيء، دون أن يغفل شيئاً، وما انفكّ يؤلمه الهوى، ويرخي من صوته، فهو في عشقه الطاغي أشدّ تعاسةً من كلبٍ بلا صاحبٍ، دائم الترقّب لكلّ خبرٍ من أخبار «ماريا ذات الوشاح»، وتلقّنه «تيبريا» مثلة سرّ في فجوة الأذن. هكذا سرد القصة، ولجج في إعادة تركيب حكاية «ماريا» إلى يوم دفنها.

فحين قطف ابن الكولونيل «بربوزا» (Barbosa)، وهو طالب فتيّ جميل القوام زهرة ماريا خلال العطلة، لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة، إلاّ أنها كان لها جسد وصدر امرأة. امرأة في الظاهر فحسب، وبقيت في الباطن طفلةً تلعب نهارها كله مع دمية من نسيجٍ، من تلك التي تباع بمئتي «ريس» في السوق. كانت تأتي بقطعة قماشٍ، فتخيّط للدمية فساتين عروسٍ، مع وشاحٍ وكلّ شيء. وأيام الزواج في كنيسة هذه القرية، في آخر الدنيا، كانت «ماريا» هناك، تراقب، وعيناها مثبتتان على فستان

العروس. فما تفكّر بغير انسعادة في ارتداء فستان مثله، ذات يومٍ، أبيض كله، مع وشاح ينسحب في الخلف وزهورٍ على الجبين. كانت تفصّل أثواباً للدمية، وتكلّمها وترتّب لها كلّ يومٍ عرساً، لمجرد أن تراها تحت الوشاح والتاج. وقد ـ زوّجت دميتها لحيوانات الزريبة كلّها، وبخاصةٍ للدّجاجة العجوز العمياء، التي كانت تلائم أشد الملاءمة دور العريس، لأنها لم تكن تحاول الهرب، فتمكث قابعةً في عماها، مطيعةً.

وحين قال ابن الكولونيل «بربوزا» لماريا: يا للصغيرة المسكينة «أصبحت أهلاً للزواج يا صغيرة، هل تتزوجينني»؟ أجابت: نعم، لأنه قدّم لها وشاحاً جميلاً. إنها لم تفكّر لحظةً واحدةً أن الشاب يتحدث بلغةٍ مثقّفةٍ بالنسبة لها، وأنّ الزواج في تلك اللغة يعني أن تقدم على مضاجعته على شاطىء النهر. وقد قبلت «ماريا»، وهي مهتاجة كلّها، ثم انتظرت إلى ما لا نهاية له ثوب العروس، والوشاح، وإكليل الزهر. فنالها بدلاً من ذلك تأديب الأب «باتيستا» الموجع، وإسم ماريا ذات الوشاح، عندما شاع الأمر.

ولكنها لم تفقد بسبب ذلك هوسها. فحين طردت من البيت الأبوي، لم يعد يفوتها عرس، مختبئةً في الكنيسة حتى لا ترى، إذ لا يحق لبغي أن تشارك في حفلة زواجٍ. فلما تزوج «بربوزا» الشاب، ذاك الذي أغواها، من ابنة الكولونيل «بوافنتورا» (Boaventura) ـ ويا له من عرس عظيم! كان حديث الناس جميعاً ـ. كانت هناك لترى العروس البارعة الجمال، فتاة من عائلةٍ كبيرةٍ، ولم يُر قطّ ثوب عرسٍ أحلى من ذاك الثوب، مع ذيلٍ لا ينتهي، ووشاحٍ يغمر الوجه، مطرّزٍ كله، أعجوبة! والذي حدث من بعد ذاك العرس، أن حطّت «ماريا» على رصيفنا ودخلت بيت «تيبريا».

لم تكـن تتسلّـى بـالسينما، ولا بـالملهـى، ولا بـالمرقـص، أو منهـل «الكاشاسا»، أو نزهة بالقارب. كانت متعتها الوحيدة عرساً جميلاً في الكنيسة، تتملّى فيه من ثوب العروس. وكانت تقصّ من المجلاّت صور عرائسٍ مع الوشاح، وإعلانات مخازنٍ متخصصةٍ في أثواب الأعراس. فتثبت ذلك كله بالدبابيس على جدار غرفتها، فوق السرير.. وبقطع قماش جديدٍ تُلبس، بلباس عـروس، اللعبـة التي قـدّمتهـا لها «تيبريـا» ونزيلاتها. إنها طفلة إلى الحد الذي كانت تقول فيه «لتيبريا» بشكل جد طبيعي: «سوف يأتي يوم أرتدي فيه ثوباً كهذا»، فتضحك الأخريات، ويلقين بالنكات والتوريات، غير أنّ الصغيرة تظل دائماً في حلمها.

وحلّ زمن نفد فيه صبر «بورسينكولا» من الانتظار. أتعبه أن يرى نفسه دوماً موضع سخريةٍ، كابتاً أبداً رغائبه، محادثاً بتودّدٍ على شاطىء البحر. لكلّ رجلٍ كبرياؤه، وقد فهم أنّ هناك ما يفعل، بعد أن طال الانتظار، وهو لن يموت من هوى مرتجعٍ، فتلك أبشع الميتات طرّاً.. التفت إلى «كارولينا» (Carolina)، وهي خلاسية ضخمة الجثة، تزجي وقتها بالتودّد له، فتخلّص بهذا النحو من «ماريا ذات الوشاح»، ببضع جرعاتٍ وافرةٍ من «الكاشاسا» وضحكاتٍ من «كارولينا». ومن بعد لم تعاوده الرغبة قطّ في المحادثات الوديّة.

عند هذا الحد من القصّة طلب «بورسينكولا» قدحاً آخر في الحال. وقد كان «آلونزو» يمنح أي شيء مقابل حكايةٍ يحسن المرء روايتها، وكانت تلك توشك على النهاية. وحلت النهاية الزكام اللّعين الذي حلّ بنصف الناس قبل سنين. كانت مـاريـا ذات الوشـاح هشـةً، فصرعتهـا الحمّـى، وقضـت عليهـا في أقـل مـن أيـامٍ أربعـةٍ، ومـا بلـغ النبـأ «بورسينكولا» إلا بعد أن قضت الصغيرة لحبها.

كان متخفياً، إذ كان ملاحقاً بسبب المدعو « غوميز » (Gomes)، البائع الجوال في « آغوا ـ دوز ـ مينوز »، المهووس بلعب الورق، وخصوصاً بعلبة « بيزكا ».

واللعب بالورق مع « بورسينكولا »، يعني الخسارة المحققة. لكنّ « غوميز » لعب لأنه كان راغباً في ذلك بحقّ، وقد أخطأ إذ تشكّى فيما بعد.

كان « بورسينكولا » إذنْ يدع العاصفة تمر، حينما بلغته رسالة « تيبريا » سائلةً إيّاه المجيء بإلحاحٍ، لأنّ ماريا كانت تطلبه بعجلةٍ كليّةٍ. ولكنه وصل بعد أن قضت نحبها. فأوضحت له « تيبريا » نداء « ماريا » وهي في النزع الأخير: إنها ترغب في أن تدفن بثوب عروس مع وشاحٍ وإكليل زهورٍ. والخاطب هو ـ كما قالت ـ « بورسينكولا »، إذ كانا على وشك الزواج. كان ذلك مطلباً جنونياً، لكنه رجاء ميتةٍ، ولا بدّ من تلبيته. وتساءل « بورسينكولا » كيف عساه يجد ثوب عروسٍ، وهي حاجة غالية الثمن، وقد هبط الليل فوق ذلك، وأغلقت المخازن. فكّر أنّ ذلك صعب، لكنّ الأمور دبّرت. فهؤلاء النسوة جميعاً، في بيت « تيبريا » وفي الطريق، كلّ عصبةٍ بائعات الهوى، وكلّ المومسات العجائز ممّن مللن الحياة، انقلبن خائطاتٍ، يفصّلن، ويخطن، ويضبطن الثوب والوشاح والتّاج! وفي غضون لحظةٍ جمع المال لشراء زهورٍ، ووجدن القماش والدانتيل من حيث لا أدري، وحذاءً، وجوارب من حريرٍ، وكفوفاً بيضاء، أجل، حتى الكفوف البيض! فواحدة تخيط قطعة قماشٍ، وأخرى تثبت شريطةً.

وقد زعم « بورسينكولا » أنه لم يشهد قط ثوب عروسٍ كذلك جمالاً

ومظهر غنيّ، وهو العليم بما يقول، فمنذ تعلّقه بماريا ذات الوشاح حضر أعراساً كثيرةً، حتى غدا سقيماً لفرط ما رأى من أثواب الزواج.

ثم إن النسوة ألبسن «ماريا»، فهبط ذيل الثوب ممتدّاً من السرير على الأرض. وتقدّمت «تيبريا» مع باقةٍ وضعتها بين يديّ الصبية. لم يرَ أحد قطّ عروساً بهذا الجمال، وهذا الصفاء والنعومة، وبهذه السعادة في ساعة الاحتفال.

عندئذ جلس «بورسينكولا» إلى جانب السرير، وكان العريس، فأمسك بيد «ماريا» ونزعت «كلاريس» (Clarice)، التي كانت متزوجةً، وتركها زوجها مع ثلاثة أطفالٍ، تنهض بتربيتهم، نزعت من إصبعها وهي تبكي ـ خاتم الزواج، ذكرى زمن سعيدٍ، وناولته إلى الخلاسي. فجعله «بورسينكولا» ينزلق ببطءٍ في إصبع الميّتة، وتأمّل الوجه الفتيّ.

كانت «ماريا ذات الوشاح» تبتسم. أكان ذلك من قبل؟ لا أعلم، أمّا في تلك اللحظة، فكانت تبتسم، هذا ما رواه «بورسينكولا»، ضامناً أنه لم يكن ثملاً ذاك اليوم، إذ لم يجرع قدحاً واحداً من «الكاشاسا». زوى عينيه عن وجه «ماريا»، وراقب «تيبريا»، وحلف أنه رآها تنقلب كاهناً، منحنيةً تحت الأردية الكهنوتية لتبارك الاتّحاد.. كاهناً ضخم الجثّة، له مظاهر قدّيسٍ.. وملأ «آلونزو» الأقداح مجدّداً فأفرغناها.

عند هذا الحدّ، توقفت قصة الخلاسي «بورسينكولا»، واستحال انتزاع كلمةٍ إضافيةٍ منه حول ماريا ذات الوشاح. كان قد تخلّص آخر الأمر من ميّته، وحطّ علينا حمله. رغبت «مرسيدس» أن تعرف كذلك

ما إذا كان النعش أبيض يتّفق مع صبيّةٍ نقيّةٍ، أم أسود كما هي الحال مع الخاطئات. فرفع « بورسينكولا » كتفيه وطرد الذّباب.

ولم يتفوّه بكلمةٍ عن « تيريزا باتيستا »، وعن الرهان الذي ربحته، وعن حياتها الجديدة. على أنّ أحداً لم يلق سؤالاً حول تلك النقطة. ولهذا لا يسعني أن أروي شيئاً، فما أتكلّم إلاّ عما أعرف جيداً، وما أنا قادر على فعله، هو رواية حكاية « غرينغو »، فتلك أعرفها، شأن الناس كلهم على الرصيف. رغم أنها ليست قصة تروى مع قدرٍ معتدلٍ من « الكاشاسا » كما هي الحال هنا، بإذنكم، إنها حكاية تروى مع « كاشاسا » حسب الطلب، ذات مساء ممطر، بل الأفضل أيضاً إبّان نزهة في قارب تحت ضوء القمر. ولكن حتى في حالنا هذه، إذ رغبتم في ذلك، فيسعني أن أروي القصة، إذ إنّني لا أجد في ذلك بأساً.

مُسارّات

تاغ أوريل (السويد)

Tage Aurell (Suède)

★ تاغ أوريل: ولد عام ١٨٩٥ في أوسلو، لكنه سويديّ الجنسية. قصّاص بالفطرة يستمدّ مادته من حياة القرية، وحياة الناس البسطاء اليومية. ترجم مسرحيات «ستريندبرغ» إلى الفرنسية، ورواية «الأحمر والأسود» إلى السويدية.

« يوهان تشادر » (Johan Tjäder) ذاهب في رحلةٍ.

ذاك أنهما تزدادان عناداً ، حسب زعمه.

رسائل ورسائل، تعيد الشيء ذاته وتبديه.

والقضية أنه يفكر بالحصول حقاً على إجازةٍ من محطة الكهرباء ليسافر، لأنه راغب ولو مرة أن يصبح حراً كالهواء. يريد أن يأخذ غرفةً في فندق.

ويجد « بلومكفيست » (Blomkvist) ، رجلُ التعاونية ، أنّ الفكرة ممتازة، وفي سبيل أن يقطع، باللّين، دابر حكاية الرسائل تلك ـ ولم يكن منها الشيء الوفير ـ فإنه يمسك قلماً ومغلفاً قديماً ، ويأخذ بتخطيط الطريق التي يتوجّب سلوكها.

« انظر قليلاً ، يا « يوهان » (Johan) . أترى إذن ، عندنا أولّ الأمر المحطة المركزية هناك... »

ولكن سريعاً ما بلغ الغاية ، بسبب « تشادر » (Tjäder) والرسائل المزعومة ، بالتأكيد ، ولكن أيضاً بسبب الفترة الطيّبة التي قضاها خلال

ذاك المؤتمر العتيد تظل دوماً شديدة الحضور في ذاكرته. كان قد نزل فيما كان يسمى بفندق للدعارة، غير أنه كان هناك من كل فاكهة صنفان، ولم يحرم المرء نفسه من أيما شيء. الغرفة رقم سبعة وعشرين، رقم ٢ ورقم ٧ يرسمها، فيملأ الطريق الفارغ كله ابتداءً من المحطة.

« وتلك التي صعدت مع الزجاجات ... ».

يحيط « بلومكفيست » (Blomkvist) الرقم بهالة من « ضربات » متشاغلة ومعقدة بالقلم ـ فقد اشتغلت ابنة « يوهان تشادر » (Johan Tjäder) الصغرى بعض الوقت في فندق. يتابع « بلومكفيست »، متخبّطاً، أنها كانت نشيطة ومرحة، وسوداء الشعر.

« وإلى ذلك فسعرها ليس مرتفعاً ».

ثم يتوقّف آخر الأمر، وبالممحاة يزيل الهالة والرقم في الوقت ذاته الذي تمحّي فيه الذكرى الخاصة. يغادر الفندق ويرتمي في المعترك.

يقول:

« كان ذاك المؤتمر مدهشاً، من أوله إلى آخره ».

على أنّ « يوهان تشادر » يتماسك، يفوّت فرص الحيطة، ويجيب متجرّعاً أسباب الخجل، أن، ما يلزمه فعلاً شيء من هذا القبيل نعم، هذا بالطبع فيما إذا حدثت هذه الرحلة.

يتحرك القطار، يدرج القطار، بل إن « يوهان » ليستشعر بين الفينة والفينة بشعور يوم العيد.. وفي محطة أو اثنتين نزل ودفع ثمن مشروب. ثم يتحدث عن ابنته الساكنة في « استوكهولم »، إحدى ابنتيه، مع رفيقه في

زاوية النافذة. عُمّدت باسم «يوهانا» لأن اسمه هو «يوهان». إنها متزوجة وربة منزلٍ. يحكي، ويسهب في الحديث عن أحفاده. يسمع نفسه متكلماً، ويحكم أنّ لهجة كلامه سليمة وطبيعية.

رفيقه لا يجاريه، بل شتان ما بينهما. وحين ودّع أحدهما الآخر، عاوده توحّد رغم أنه لم يكن في الحجرة مكان واحد فارغ.

فيما بقي من فترة ما بعد الظهر، وحين يهبط الظلام ويخيّم الليل، تجلس بمقابله واحدة من صنف «إيلزا» (Elsa) تقريباً. فلا يعود يجرؤ أخر الأمر على النظر إليها إلاّ خلسةً، ثم يستدير باقي الوقت جهة النافذة.

إنها تمطر، وتتراكض خطوط من سواد الدّخان المبلّل على الزجاج. ويئزّ حديد القطار لدى عبور جسرٍ، فوق ماءٍ أسود كله. يتمنى لو يقول لتلك التي تواجهه: أفٍّ! عودي إلى بيتك، ارجعي بالاتجاه الآخر.

ليس من حديثٍ حولها إلاّ عن الأزقة، وعن أناس يفترض أن ينتظروك في المحطة، كلٌّ يصلح هندامه، يقيم الدنيا ويقعدها بالأكياس والمحفظات.

أمّا هو، فيأخذ تذكرته، يقرأ كلمة «إياب»، ويؤكد عليها بنحوٍ ما، حين تتكاثر لمعات النور، وتتلوّن بالأصفر والأحمر والأخضر. فتلك كلها أمور تبعث على الريبة، أمور مريبة وصعبة.

يجلس فترة طويلة على حافة السرير دون أن ينزع ثيابه، لم ينزع سوى حذائه الجديد الذي آلمه على مدى ما يقارب الساعات العشر بنحوٍ متواصل.

أحياناً يذهب بهدوء حتى النافذة، أو إلى الباب، ويعود إلى سريره، يمكث هنالك جالساً متلهياً فترة ما بتدوير إحدى الكرات النحاسية.

ومن الحق القول إنّ الفندق ذو انتماء ديني، مع كتابٍ مقدّسٍ، وكتاب أناشيدٍ. غير أنّ الاعلانات المطبوعه على هامش الورق النشّاف، والحروف الكبيرة التي تميزها على غلاف دليل الهاتف تكفيه.

نساء « بلومكفيست » الطيبات.

لديه في محفظة أوراقه صورة قديمة مُصْفرّة، صوّرتها المعلمة فيما مضى. ليتهنّ لا يكبرن! أبداً.

العنوان الوحيد الذي يملكه هو عنوان ابنته البكر. ينطلق إليه سائلاً عن وجهته كلما بلغ زاوية طريق. إلاّ أنه لم يحضر من أجل هذا، فثمة فراسخ وفراسخ فيما بينه وبينها، هي « جوهانا »، حتى قبل أن تغادر البيت. كانت في معسكر أمها ونصيرات « بيتيل »[1].

فإذا كانت « ايلزا » في العطلة ـ هو ذا ينسب إليها حياةً نظاميةً، وعملاً مع عطلٍ.

يفتح التجّار مخازنهم، يدخل أول مخبزٍ في طريقه، يشتري سكاكر وقوالب صغيرةٍ من الخبز المحلّي.

« كيف، أنت تأتي إلى هنا »؟.

لم يكن صوتها قط حاراً، ليس من أجله في كلّ حالٍ، وهي بالطبع غير مغتبطةٍ، لأنها فوجئت بمثل هذه الصبيحة المبكـرة بمطبخٍ بلا ترتيبٍ.

(١) إحدى مدن فلسطين القديمة، ظهر فيها السيد المسيح لإبراهيم ويعقوب. (عن لاروس).

« كان في وسعك أن تكتب. على كل حالٍ، اجلس ».

زوجها في عمله والصبيّان يغيبان أيضاً مع الكاراميلا. هناك بنيّة جد صغيرة، لم يسبق له أن رآها قط تنام في السرير المزدوج القابل للطيّ. يستعمل كلماتٍ مضخمةً، يقوم بمقارنـاتٍ ـ وعلى حين غـرّةٍ تستبـدّ بـه الرغبة في أن يقول إنها تشبه « إيلزا ». لسوف تكون تلك وسيلةً للإسراع في طرح الموضوع الذي يأخذ عليه نفسه.

غير أن الشبه معدوم. وفي ذاته تنقصه الجرأة.

تذهب « يوهانا » إلى خزانة الطعام مع كيس الورق دون أن تفتحه، وتعود منها حاملةً بعض الكعك بالحليب والبسكويت على صحنٍ. تنظّف جانباً من المائدة، وتضع عليها الطبق وفنجان القهوة.

ثم إنها تطحن فترة قبل أن تسأل:

« لعلّك ذاهب إلى المستشفى؟ »

يستعجل الحذر، والسؤال الآخر يعقب الأول:

« أم لعلّها كتبت؟ أهو ذاك »؟

لم يبلغ بعدُ من الجرأة حداً يجعله يسأل بدوره، فيقول إذ ذاك، إنّ الرسائل صارت نادرةً، من الواحدة ومن الأخرى، ولهذا حضر بزيارةٍ قصيرةٍ.

بريق خاطف في نظرة « جوهانا » يجعله يفهم أنها تفكّر بالإيواء. فيتحدث إذ ذاك عن غرفته في الفندق. وهو بمقدار ما يسرع في الذّهاب يفكّر بالإسراع في الإياب، ولنفرض بعد غدٍ.

تنفرج زوايا فمها، غير أنها مع ذلك على قدرٍ من قلّة الحياء بحيث تقول: «أما بكّرت»؟.

التقصير في كل شيء، المطبخ، البنت، الطريقة التي استقبلته بها ـ ما من شيءٍ كما يتمنّى المرء أن يكون، وأقل وأبسط ما يشغل أفكارها يفسّره المرء بيسرٍ بالغ:

«إذهب إليها بعد الظهر. فإذا تأخرت أكثر، فلا طائل من الذهاب».

هو يعرف الآن كلّ شيءٍ. ويدرك ما في صوت الأخرى من ادّعاء وقسوةٍ ـ يتكهّن دون أن يسمع ـ حين تتابع بغير ما حاجةٍ للمتابعة:

«خلال النهار تستمتع بوقتها كله. تلك ليست حالي أنا، مع كلّ ما يقع على عاتقي من أعمالٍ».

فما تنقضي برهة حتى تدفع المقارنة، احتمال المقارنة:

«لكنت خجلت، لكنت أنا...»

فيلحق بها هذه المرة، قائلاً:

ـ نتحدث عن «إيلزا». أعطني فقط عنوانها.

ـ ليس عندي، تجيب.

إنها تكذب، هذا أمر واضح. تصحح:

«لأنني لا أعرف إن كانت بعنوانها. فهي تمضي وقتها بالتنقل.

فيردّ:

ـ لا حاجة بك لمرافقتي. سوف أجده. جئت على قدميّ من الفندق إلى هنا دونما عناءٍ كبير. اكتبي بوضوحٍ فقط.

ـ أرافقك؟ أنا؟ ما شاء الله...».

مع ذلك تفتر مقاومتها للتوق، توّضح له الطريق بالتفصيل. لا ترغب من جهتها بإلزامه بالبقاء، حتى في هذا اليوم.

«اعتقد أنك عائد، من بعد، لترتاح في الفندق».

لمَ كتب عليه أن يُفلت منه بالتّمام ما لا يريد قوله! كقوله الآن:

ـ ومساء اليوم؟ ماذا تفعلين؟

ويستدرك، متحسّباً مسترضياً:

«لا، مكثت فترةً طويلةً. ثم لعلّي أعود غداً فأراك برهةً».

ثم مبالغاً في الاسترضاء:

«بعد ذلك أعتقد أنك قد رأيتني بما فيه الكفاية».

وإذ هي لا تسأل شيئاً، ولا تحتج:

«لا يمكنني أبداً أن أغيب فترةً طويلةً. تعرفين ذلك جيداً».

أهي تعرف؟ تعرف ويعرف أن هذا الكلام لا يستقيم. فما من أحدٍ مثلاً وفي كل الأحوال، ينتظره في الفندق. إنه يلتزم ببساطةٍ بالبرنامج الذي تخطّطه له «جوهانا».

«حسناً. بعد قليلٍ أمضي إلى هنـاك متمشيّـاً على مهـل، وأستلقـي لأرتاح».

تلك السفرة كلها لكي يقول: إنه سيستلقي ويرتاح، هو الرجل المديد القويّ، هذا أكثر من ذاك لا يقف على قدمين.

وهي لا تخفّ إلى تقديم أيّ مساعدة، لا حقيقية ولا كاذبة، بل هي لا تلفظ كلمة «جوهانا»: «أما بكرت؟».

كانت في السرير حين وصل قبل فترةٍ، كانت قد سألت بغضبٍ شديدٍ عبر الباب، من القارع بحق الشيطان؟.

فلم تواته الجرأة للإجابة، ومكث منزرعاً هناك دونما كلمةٍ، حين فتحت الباب.

«إيه، بابا...»

شيء من الرعب، مع شيءٍ أقل من السعادة كذلك.

كان ذاك جنى الرحلة كلّه. بذلك فكّر.

كانت شديدة الشحوب في البداية. لكنها عادت فظهرت مرتديةً ملابسها، نضرةً ومورّدةً، من خلف الحاجز. ومشاكسة مثلما كانت في الماضي، وشأنها في الليلة الأخيرة التي قضتها في البيت.

«قل، لمَ تأتي؟. ألا يمكنك أن تدعني هادئة؟ لم أعد طفلةً. هوذا الأمر، أنت لا تقول شيئاً، لكنك مع ذلك تتساءل. وأنا أفهم لماذا جئت، دعك من ذلك!

إنها يوهانا» الطيّبة الروح، التي جعلتك تحضر! من أجل أن تحسدني! إذن فانظر! ها، هل أنت مسرور؟ أنا، هنا، في غاية السرور، أتسمع؟ أنا في غاية السرور هنا.

كان يسمع. كان يسمع كلّ شيءٍ. قائلاً لنفسه: لو أنها تسألني فقط عن عنوان الفندق. وكما لو أنه يفعل من أجل مزيدٍ من الأمان ـ لأنه ليس على ثقة تامة من توفر بقية من شجاعة لديه، إذا هو لم يرها هذا المساء ـ فإنه يشرح لها ذاك العنوان بتفصيلٍ مستفيضٍ. إلى اللحظة التي فهم فيها تماماً أنه، رغم كل شيء، سوف يظلّ وحيداً.

يتجاوز الأمر، كما حدث مع «بلومكفيست». «أيوه، الفندق، إنه جيد، المرء فيه حر كالهواء».

ولكن ما دام الآن هنا، فعليه أن يدافع عنها الآن ضد الآخرين، أن يقف في صفها ضدهم. لسوف يجد شيئاً ما يسعهم أن يتحدثوا عنه بطريقة لينة وطفولية، لكي يمكنها أن تعود، مقدار برهة، الطفلة التي كانت. مجمل الأمر أنها طريقتهم الوحيدة بالتعارف. لتكن الأمور كلها حلوة وطيبة.

«أنت لديك أثاث جميل».

لا يدل فمها وعيناها على سيماء الطفولة. بل هي تفعم باحتقارٍ ساخرٍ.

«هاه، أترى ذلك، وأنت ضليع في هذا، أليس كذلك؟».

وتزيد، حاقدةً:

«ألا قل، هل تهزأ بي؟».

يبلغ بها الأمر أن تفيض عيناها بالدّموع، دموع الغضب. وإذ هي تقف خلف مقعد، فإنها تؤرجحه، وهي تستند فيسقط على الأرض محدثاً ضجةً هائلةً.

تقول: «حماقاتٍ».

غير أنها لتوّها تقريباً، تسترخي، وقد عجزت عن حمل الحقيقة كلها، ولم يعد بوسعها أن تتحمل أبداً:

« إنه مسافر في رحلة عملٍ. ولكن لدى مرورك ثانيةً « باستوكهولم » سأعرفك به. إنه ممثّل تجاري لشركة ضخمة جداً. وضع متين. تقطن أمه « سمالاند »، وسنذهب لرؤيتها لدى عودته. فنصبح خطيبين. وسوف يهديني معطف فروٍ، من فأر أمريكا.

وتقطع كلامها على حين غرة.

« ألا تصدّقني؟ ».

تذهب فتعاين نفسها في المرآة، تهزّ قرطيها الأسودين، تنظر إلى ساعة يدها، تقول دون أن تستدير:

« على هذا، فأنت عائد إلى الفندق، أنا أيضاً يجب أن أخرج. أعمل نصف وقتٍ في مغسل ثياب. أحياناً، يمكن القول إنه عمل متعب ».

المغسل في القمر، والحماة في « سمالاند »، من أين تأتي بهذا كله؟ يستشعر ضرباً من الاعتزاز، ضرباً من التواطؤ المتزايد، يمازج تعاسته.

بما أنه غير راغبٍ في سحب محفظة نقوده ببرودٍ، فإنه يجرّب صيغةً ملتويةً:

« قريباً عيد ميلادك ».

بحركةٍ خرقاء، يدسّ أكبر ورقةٍ ماليةٍ تحت منفضة للسكائر. هناك زاوية ظاهرة، إنها ورقة كبيرة، هذا واضح.

إلا أنه لا يسمع قولها إنهما سيلتقيان في المساء. وعن الغداة، ولا كلمة واحدة.

يبدو له أنه مشى حتى الآن فترة طويلة جداً، ولعله تاه. لكنه إذ يستدير، يرى نوراً في نافذةٍ على الجانب الآخر من الشارع، فيتأكد لتوّه أنها نافذتها. الوحيدة المضاءة في جدارٍ هائلٍ داكنٍ. بل هوذا من ناحيةٍ أخرى رصيف سكة الحديد، أو شيء ما من هذا القبيل، هنالك في آخر الشارع. وعربات بضاعة بصفوف طويلة. وثمة قاطرةٍ تلهث، وتتوقف وتصفر، على مسافةٍ أبعد.

وهوذا شخص يقترب من النافذة، هي أو شخص آخر في غرفتها، لا يسعه أن يميز، تختلط عليه الرؤية مثلما حدث في الفندق عشية الأمس، وبعد لحظة تفرغ النافذة مجدّداً، ويبقى النور، ثم تستحيل إلى سوادٍ شأن النوافذ الأخرى.

يقول في نفسه حينذاك إنه لن يتحرك من هناك، وإنه سوف ينتظر. لكن الضوء يعود فيشتعل بعد برهةٍ، أشدّ سطوعاً من قبل، كما لو أنه متأتٍّ من مصباحين بدلاً من واحدٍ. يمضي للقيام بدورةٍ حتى الرصيف، دون أن يلتفت برأسه، مثبتاً النظر أمامه باستقامةٍ في الظلام، فوق العربات وخطوط السكة. قال في نفسه:

لعلها (ستنطفىء) حين أستدير. حينذاك يمكنني معاودة اتخاذ مركزي في الموضع ذاته».

النور أقل شدّةٍ فحسب. يهمّ بالابتعاد مجدداً حين يجد فجأةً أنه لم يعد وحيداً. ثمة شخص ما هناك في العتمة، إلى جانبه ـ مفتاحي خطوط السكة أو شيءٍ ما مقارب ـ وشريط من الجلد الملمع وزر يعكسان بريقاً في المطر الساقط بنعومةٍ.

لا يدري كيف يتصرف لكي يقول للآخر:

« إمضِ فنم. لا تبقَ منزرعاً ههنا، شاقاً عينيك عن آخرهما.

ـ أهي عارية تماماً »؟ يسأل عامل السكة.

يحسّ باديء ذي بدء أنه مشلول، من الرأس إلى القدم. ومع ذلك يتنبّه إلى أنّ لهجة الآخر ليست سوقية، لا يعبّر إلاّ عن الوحدة، وكذلك عن نوعٍ من العرفان.

« رأيتها ذات مرةٍ عاريةً تماماً في الخريف الماضي. ومنذ تلك الفترة، يحدث لي أن أتوقّف هنا وأنتظر فترةً ما، فيما أنا عائد من العمل، في هذه الساعة ».

ومن ثمّ يسود الصمت دقيقتين كاملتين.

« هل تعرفها »؟.

لا يسمع مفتاحي السكة الجواب تماماً، ولا يبدو أنه يعرفها. فيقول:

« أنا كذلك، لكنني أعرف أين تتصيّد على الرصيف. هي على كل حال فتاة حلوة.

دفع مساء البارحة حسابه، واستلم الايصال. ترك كذلك إكراميات، أكثر ممّا يجب لا أقل ـ كانت تلك، طريقته في الاحتفال ههنا وخاصة في هذه المرّة ـ يستيقظ مستذكراً ما قاله لنفسه قبل أن ينام: في كل الأحوال أنقذ المظاهر فيما إذا هو عاد لحضور مؤتمرٍ ما. ثم تحضره فكرة أخرى من أفكار عشية الأمس: من المحتمل أن يأتي هذه الليلة من يسطو عليّ، ما دمت قد أظهرت أنني أملك هذا القدر من النقود.

لا زالت محفظة نقوده وحافظة أوراقه ههنا ، تحت الوسادة.

وساعته كذلك هنا ، وهي تشير إلى الثالثة إلاّ خمس دقائق.

هو جاهز ، جاهز تماماً ، قبل الساعة الرابعة صباحاً ، لكن السكون يجعله يفهم أن باب الدخول لم يفتح بعد ، يتصدّر خلف طاولة مكتب ذات هاتفٍ وحاملة أقلامٍ ، كما لو أنه « بلومكفيست » آخر . يشعر أصلاً أنّ هذا الأمر يجب أن يستحوذ على جانبٍ ذي بالٍ من وصف رحلته لدى عودته إلى بلده : هوذا ما كان قادراً عليه في الفندق.

خطىً في الشارع الفارغ . ضجة تنبجس من حنفية . باب يخبط . النهار الجديد يبدأ.

عند ذاك يتناول حقيبته ، وينطلق إلى بيت « يوهانا » ، فلم يعد لديه هنا ما يفعله.

ترافقه « يوهانا » إلى المحطة ، بذلك أوعز الصهر . جعلها كذلك تلتزم الصمت حين جعلت تتشكّى من أخلاق « إيلزا ».

« اخرسي ، يا « يوهانا » . دعي أباك الذي سيذهب.

ها هما هناك قبل الوقت ، يشتري تفاحاً ، وسوساً ، وشوكولا للصبيّين ، وبرتقالةً للصغيرة التي تحملها أمها . تمكث « يوهانا » إلى جانبه خلال وقوفه في الصف ، لمدة ربع ساعة تقريباً ، حاملةً الصغيرة وكيس الورق بالساعد ذاته ، فلها على ذلك يد فارغة حتى يمكن دس ورقة من فئة عشرة كورون فيها.

تقول شكراً ، ولكن دون أن تنظر إليه ، بل ولا حتى إلى الرصيف ، أمام درجة العتبة . تتثبت نظرتها على نقطة أبعد بكثير ، ناحية القاطرة ،

« لم تبق سوى بضع دقائق، قالت وهي تغصب نفسها فجأة. الأفضل أن تصعد إلى القطار. قولي مع السلامة لجدك، يا « جون ». يمسك بيده يداً صغيرة هشّة. وتنتزع « يوهانا » نظرها عن القاطرة قائلةً بألطف لهجةٍ تقدرُ عليها:

« ابقَ المرة القادمة فترة أطول. اكتب مسبقاً كيما أتدبّر الأمور بعض الشيء، قبل وصولك ».

يا سلام، يا سلام! انظروا! هوذا « تشادر » يصل، هابطاً من خلفية قطار البضائع، هوذا الآن على بعد خمسين متراً من المحطة.

قال في نفسه: يمكنني أن أقطع الطريق باجتياز الخط واختراق حاجز الصنوبر. لكن الطريق ليست خالية تماماً، يرى أنه لكي يكون وحيداً كلياً يستحسن السير في محاذاة مبنى المحطة. إنه يحمل تذكرته في يده في كل حال.

قال « بترسون »، (Pettersson)، المأمور:

« لم تغب طويلاً. لِنرَ إلى يوم لذهاب. الإثنين؟

يجيب:

ـ مكثت مع هذا فترة أطول مما كنت أظن ».

ويضيف:

« المهم أن نتلاقى من حين إلى آخر ».

يجلس بهدوءٍ على المقعد ليرى عملية تحويل الخطوط. إنه يعرف من جهة أخرى ما عليه أن يقول، وفكّر أن يجرّب خطبته على « بترسون »،

ولكن ما جدوى ذلك، لقد لاحظ أموراً كثيرةً، ويمكنه أن يبتدع قصةً توازي قصة «بلومكفيست»: فهم لم يستقروا في الفندق، ويمكن القول إنهم أمضوا وقتهم في المطاعم، الواحد بعد الآخر ـ وقد توقّف فترةً طويلةً أمام واحدٍ منها فيه زهور في الصناديق، حديقة حقيقية، من أجمل ما يكون. وقائمة الطعام المؤطّرة تحت الزجاج.

كان هو «وايلزا» أكثر الوقت.

«يوهانا» أقل من ذلك، بسبب الأولاد. حالتها جيدة، «ايلزا»، حالتها جيدة جداً. يمدد ساقيه، يمدّدهما كما لو أنه لم يفعل ذلك منذ الأزل، حسبما يبدو له.

وقد انتهت المناورة على وجه التقريب، عربة بضاعة واحدة فقط تجري أمامه. ومن بعد لا يسمع سوى ضجّة ذهاب السنونوات وإيابها تحت السقف.

«ولكن، يا لطيف كم هذا متعب»، قال «لبترسون» حين جاء هذا يجلس بجواره.

وليس بحاجةٍ لأن يجيب عن أيّ سؤال. فالحقيقة أن مستخدم المحطّة هذا، ليس سوى امرءٍ عبوس. وهو بحق لا يوازي زميله مفتاحي السكة لباقةً، تحت نافذة «ايلزا»، ولا يساويه عرفاناً.

جان في القاعة

دانييل بولانجيه (فرنسا)

Daniel Boulanger (France)

★ دانييل بولانجيه: أحد أعلام القصة في فرنسا، ولد عام ١٩٢٢، نشر أوّل روايةٍ له « الظلّ » عام ١٩٥٨، ثم أعقبها برواياتٍ وقصصٍ كثيرةٍ. حصل على عدّة جوائز أدبيةٍ. واعتبرت « الجائزة الأدبية الكبرى لمؤسسة أمير موناكو » التي مُنحت له عام ١٩٧٨ عن مجمل أعماله تكريساً له كأحد كبار كتّاب فرنسا، كتب أيضاً سيناريوهات أفلام، وحوار أفلامٍ ومثّل. مجموع كتبه حتى الآن يزيد عن أربعين.

كان ذاك خريف « المجمع الديني »، وسكّان روما كلهم في روما، وما كان في المستطاع العثور على غرفةٍ يأوي إليها المرء. « وجان كوزينو » (Jeanne Cousineau) التي هبطت في الصباح من قطار باريس، لتلقى عشيقها الذي كان يصوّر لوحات طبيعيةً ميتةً في حي الترانستڤيري، كانت قد أخذت تفقد الإحساس بساقيها. فمذ قرعت الباب في بيت « آردوينو آغرستي » (Arduino Agresti) وأجابتها طفلة: فتية: « بابا مسافر ».

- إلى أين؟

- إلى « صقلية »، ليصوّر الجبال.

تيقنت « جان » أنها لن تراه من بعد قط. دخلت عشرين فندقاً، وعشر بنسيوناتٍ، مشغولة كلها، وقد جعلت المدينة تترجح وتصطبغ بلونِ صلصالي حار، ينثال غباراً وينقلب بلون الإسمنت في ظلال الدروب الصغيرة. كانت ابنة « آردوينو » جميلة حقاً، ذات فلّكٍ متين بعض الشيء على صورة أبيها، وعينين فاحمتين تغشاهما نقاط حمراء.

وضعت «جان» آخر الأمر محفظتها أمانةً في مقهى، وتابعت بحثها عن مأوى. لو لم يدعها «آردوينو»، ولو لم يرغب في مجيئها لرؤيته، لِم أعطاها عنوانه؟ إنه في «صقلية» لتصوير بعض المناظر الطبيعية، مثلما جاء «باريس» لتصوير الشوارع.

«في منزلي لا أعطي سوى فواكه في طبقٍ، باقةٍ، حاجاتٍ. لا يمكنني تصوير أشياء أخرى. وحين أصنع منها سلسلة أنطلق حيثما كان، بحثاً عن الضجيج، الحياة، الآلات الضخمة».

كانت تعود بالذاكرة إلى اللوحات التي صوّرها في غضون الشهر الذي قضياه معاً: تقاطعات طرق مدوّمةٍ، دار الأوبّرا ليلاً، سوق «موفتار» الشعبي، ولوحة الباستل التي قدّمها إليها، وعلّقها فوق سريرها: جمهرة الناس في حدائق «فرساي» أمام نوافير «المياه الكبرى».

في سبيل أن تظل «جان» رابطة الجأش، كانت تجرع كل ربع ساعةٍ فنجان قهوة، غير أنّ نعليها كانا يحرقانها، فنزعتها وسارت حافية القدمين. أخذ اليأس يساورها من إيجاد موضعٍ تنام فيه، وقد حلّ الآن وقت العصر، والبيت المفروش الخمسون مشغول، وهي تجتاز نهر «التيبر» من جديدٍ. وجدت نفسها مجدّداً، دونما قصدٍ منها، في شارع «آردونيو» الرطب. قرعت وفي ظنها أنها ستلقى الصغيرة ثانية، إلا أنّ سيدةً ابتسمت لها، كانت مثلما وصفها المصوّر، فذهب ذهن «جان» بجموح إلى أن من العجب العجاب أن نرى من يعيشون الجمال، يربطون حياتهم بهذا القدر من الأشكال الكئيبة.

«من أجل ماذا»؟ سألت مدام «آغرستي».

ـ غلط، قالت «جان». أعطوني دون ريبٍ عنواناً خاطئاً. ألا تؤجّرون غرفاً؟

ـ كلاّ، قالت الأخرى.

ـ لم يعد في المدينة كلها موضع يصلح لإيواء قطٍ. دفعت مئتي بابٍ.

فقالت مدام «آغرستي» وهي تحدج النعلين في يدي «جان»:

ـ إنه «المجمع الديني». حتى بيوت البغاء ممتلئة. وقد أكّدت لي ذلك صديقتي «جيوزبينا فورني» (Giusppina Forni) التي تدير بيتاً قرب ساحة اسبانيا. «وجيوزبينا» كانت معي فيما مضى في بيتٍ لأخوات الهوى. فاذا كان في مقدورها أن تفعل شيئاً فعلته. أترغبين أن أسألها؟».

من عتبة الباب كانت «جان» تنظر إلى الممر ذي البلاط الأصفر، وشجرة التين في الصدر من حديقة كثيفةٍ وضيقةٍ ومجنونةٍ.

«هل أنت فرنسية؟ زوجي يحب فرنسا حبّاً جماً. إنه يذهب اليها كل سنةٍ.

ـ كل سنة؟ سألتها «جان» وقد تملّكتها الغيرة.

قالت مدام «آغرستي»:

ـ هو فنّان. ولو أنه كان هنا لفعل المستحيل لمساعدتك. ادخلي، سأكلّم «جيوزبينا». الهاتف في الطابق الأعلى».

داعبت «جان» أعمدة الزينة على السلّم. وكان يسمع صوت الموسيقى عبر الجدار. وثمة رائحةٌ عتيقةٌ لبندورةٍ مشويةٍ تفرش الدرجات الحجرية،

حتى اللوحة التي كانت تزين المنبسط العلوي، وتمثّل قدحين على مائدة، فارغين ولكلّ لمعته على عروته شأن مجمل الأزواج، وتخيّلت « جان » مدام « آغرستي » و « آردونيو » جنباً إلى جنب.

« جيوزبينا ؟ أنا « كورنليا »، Cornelia كيف أنت ؟

لم تكن « جان كوزينو » تصغي، وقداستغرقها النظر إلى داخل البيت الذي يؤوب إليه الحبيب بانتظامٍ من بعد الهروب. وقد تراخى شيء ما في ذاتها شأن ما يحدث من بعد الخوف، حينما يتخلّص المرء من كارثةٍ. في الأسفل، كانت الصغيرة عائدة تغني، وهي تقذف وتتلقى حبة مانجه في يدها. لم تُبدِ اندهاشاً لرؤية الفرنسية مجدداً، وفكرت الفرنسية أن الطفلة ستأتي على ذكر لقائهما الأول، إلاّ أن العينين السوداوين ذوات البقع البرتقالية تحوّلتا، وجلجل صوت الأم معلناً عنوان مدام « فورني ».

« هأنا أكتبه لك، خذي. اسألي عن « جيوزبينا ». إنها معروفة، وهي في انتظارك ».

احتذت جان نعليها من جديدٍ، ولاحظت وجود نملةٍ على إحدى الدرجات، ثم أخرى، ورتلين يتصالبان في أسفل الجدار الأبيض. وقد كان يسرها عادة أن تسحقها، إلاّ أن احساساً بالرضا غمرها، إذ تمثّلت البيت الملغوم بالحشرات وهو ينهار فوق عائلة « آغرستي ».

قالت مدام « آغرستي »:

« أنا سعيدة جداً. هنالك أيام تحملك فيها المصادفة على فعل الخير.

وأضافت وهي ترى « جان » تتملّى من منظر لوحة القدحين: أتحبينها ؟ لدى زوجي أفكار مبسّطة جداً. يصوّر ما يرى، ويراه على طبيعته. قدحان كسبناهما بيانصيب، ذات يوم كنّا فيه سعيدين ».

هي ليست كذلك طوال الوقت، فكرت « جان » التي كانت ما تنفك تتخيّل بتلذذٍ البيت وهو ينهار.

« رغب بعض جامعي اللوحات في الحصول على هذه، لكن « آردوينو » يحرص عليها. أتفهمين جيداً؟ هل أتكلم بسرعةٍ أكثر مما ينبغي ؟ »

كان « آردوينو » يسألها ذلك أيضاً، منذ بعض الوقت.

« كلاّ »، قالت « جان » وهي تدسّ العنوان في محفظتها. « الوداع، شكراً ».

كان بيت « جيوزبينا فورني » يخبّىء نافورة ماءٍ، يذكّر خريرها في غرف المرمر أن الحرّ ما ينفكّ شديداً.

قالت صاحبة البيت « لجان »:

« اذا لم يكن لديك مانع، سأستخدم غرفتك بعد الظهر حين تخرجين للنزهة. إنني أرفض الزبائن، لكنني يجب ألاّ أبالغ. إننا نتبادل المعونة، أليس كذلك؟ اعلمي إنني أضع في صوان حمامك - فيما اذا نسيت، وهي حالة قلّما تحدث - عدّة أزواج من المفارش. هل تعرفين « روما » ؟

- كلا، قالت « جان ».

إنها إقليم ريفي. بؤرة زيت. في داخلها يتألّق بعض الأحبار بلون البهار. وحبات فلفل النساء الجميلة مخبوءة في الاعماق».

كانت «جيوزبينا» تلقي أول صنّارة لها، ولم تلحظ المرأة الشابة ذلك.

قالت «جان»:

«لن أتحرّك حتى الغداة. فقدماي مدمّيان».

فما كادت تتمدد على السرير حتى قرع الباب، وجاءتها خادم بالملح والمراهم، من قبل صاحبة البيت. فأسلمت «جان» قدميها للاستحمام والرعاية. وكان ثمة مرآة بيضاوية الشكل معلقة بجدائل من خيوط القنب شكت فيها نبتات من زهور الخالدة، تعكس لها صورتها ومجمل السرير. وإفريز من تماثيل الحب التي كانت ألوانها تتراكض على حافة السقف. وكان المصباح المصنوع على شكل الفطر يحتبس ضوءه تحت غلالة منسوجة بالصنّارة. نامت «جان»، واستيقظت ظهيرة اليوم التالي، تقريباً وهي في كامل ملابسها. دعتها «جيوزبينا» لمشاطرتها طعامها في الباحة الصغيرة الداخلية، التي كانت تظللها في شكل عرزال واقٍ نبتة حلوة متعرّشة.

«تعرفين اذن مدام «آغرستي»؟

ـ زوجها، قالت جان وقد زايلتها الرغبة في الكلام أو في التّستر على أيّ شيء كان.

ـ فنان! نبرت «جيوزبينا». سترين لوحةً له في الغرفة ١١، زنجية تسرح شعر أخـرى. ذاك مـا ينقصني، زنجيـة. كـان عنـدي منهـنّ في بداياتي. كن يشتغلن كثيراً، إلى أن جاء يوم قلن لي وداعاً، ليمضين

وحدهن ويعشن معاً. لقد منحتهن بركتي فليس لي سوى مبدأ واحدٍ، سعادة الجميع. تدخل الواحدة بيتي بلا عقدٍ. فالقلب وحده ما يحسب حسابه، وعليه تؤسس أمتن العقود. أنت جئت من أجل «آردوينو»، أليس كذلك؟

ـ أجل، قالت «جان»:

ـ فلم تجديه. وكان قد أعطاك عنوانه. وأنت تحبينه.

ـ كنت أحسب ذلك.

ـ هذا حسن، قالت «جيوزبينا». يمكنني إذن أن أكلّمك من فوري».

رفعت «جان» عينين قلقتين، وتقبّض حلقها.

قالت مدام «جيوزبينا»:

«عرفت «آردوينو» وهو بهذا الطول. وعندما صار كبيراً. وقد احتفظ بأفضل الذكرى عن التربية التي منحته إيّاها. يجب أن يبدأ الصبيان حياتهم بين أيدٍ مجرّبةٍ. فهذا سر الاحتفاظ بفؤاد فتيّ، خالٍ من الجروح. إنه بين الحين والحين، ومن قبيل الاعتراف بالجميل، يبعث لي النسوة الصبايا اللّواتي يقابلهن. وإنني لأعترف أنك جئتني بحيلةٍ أكثر نعومةٍ، ففي العادة يصطحب إلى هنا صويحباته. لم يجرؤ على استقبالك. إن للرجال أحياناً نذالاتهم، لكن لعله أحبك أكثر من الأخريات».

كانت جان تنظر إلى ذبابة تهبط في عنق دورقٍ قائمٍ على الطاولة، التي رسمت الظلال عليها نقوشاً. كانت قد بلغت مرحلة شديدة العناء، وعادت إلى طبيعتها الكسول، وميلها العميق إلى القبول بحكم القدر.

« أو ما زلت تحبينه؟ سألت « جيوزبينا ». غالباً ما تكون عواطفنا محاولاتٍ مموهةٍ للإقناع. والواقع أننا نتوق جميعاً إلى هدوء النفس، تلك هي السعادة، ولا شيء غير ذلك ».

كانت القّوادة تحدّق في « جان » بعينٍ نفّاذةٍ وتخترقها. لم يك في هذه البنت ما يحيّر إلاّ ظاهرها. وإنها لتقسم أنها غير جديرة أن تتوجّع. وإذ كالتها بمكيالها ثمنت كل ما يسعها أن تستخلص منها.

« باريسية! ذاك جانب أيضاً من الأسطورة. وههنا يجب الإفادة منه. في مدى شهور قليلةٍ، يا عزيزتي « جان »، ستكوّنين لنفسك ثروة. ستعودين إلى موطنك، وترتاحين، وتعيشين ميسورة دون اعتمادٍ على شخصٍ، وتعودين لرؤيتي لموسمٍ جديدٍ.

قالت « جان »:

ـ ما عدت أريد رؤية هذا الرجل قط. هل يأتي إلى هنا؟

ـ سأتدبّر أموري بحيث لا تلتقيان أبداً.

ـ هل يأتي؟ غمغمت « جان ».

كانت موجة تنقضّ عليها، واحدة من تلك الأمواج التي تكتسح في الكوارث الجدران والزهور، الحاجات، المارة، الأشياء الحبيبة، وتصهرها وتحيلها إلى خليطة عجينية، تغطي الأرض بحمأٍ ينهار. « وجان » التي كانت « جيوزبينا » تراها دقيقة القدّ في غلالاتٍ شفافةٍ، وهي تستقبل الزائر ببسمةٍ حزينةٍ أخّاذةٍ، لم تعد سوى شكلٍ حائرٍ، نتوء في صورةٍ ما ضمن الوحل العام.

« أفهم كونك تفكرين، قالت مدام « فورني »، منذ اللحظة هذا ردّ

إيجابيّ. يا صغيرتي، المستقبل لك. حصيلة كبيرة. لا تحدثيني بشيء عن حياتك في باريس. حدثني «آردوينو» عن كلّ شيء. أنت وحيدة بائعة صنف ثانٍ لدى خياط. مناولة دبابيسٍ إلى مصلحة الأثواب. الإتيان بقطع الفرو من خزانة الملابس، قهوة للمدام البائعة، زوج من الجوارب للزبونة، الركض إلى المشغل، هل الطلبات جاهزة؟ ساعية، متدربة، نقالة! لا تنسي العينة! اذهبي فاطلبي إلى العارضة أن تعود إلى ارتداء القطعة الثامنة من المجموعة. عجّلي يا «جان»! وتبعث بك العارضة بدورها لتعثري لها على أحمر شفاهٍ، والرئيسة لا تريد أن تستلحقك العارضة. دعي مساعِدتي، فأنا بحاجةٍ إليها! إنني لا أعثر عليها قط. إنها تقوم دوماً على خدمة الآخرين. وبالطبع، هنالك اللحظات الطيبة، حين تجرّب الواحدة في القبو معاطف الزبونات، حين تنتزع أختام المبيع إلى اللآتي يرغبن بتزيين أثوابهن بقرشين. فهذا يزيد، ولكن بنحوٍ ضئيلٍ ونادر جداً حصيلة الشهر الضنينة! عدا رسميات الصباح لدى الحضور! ويلك إن أنت نسيت أداء تحية الصباح لمديرة الدار، وبالتدريج لسلم المراتب كلّها! لكنها آخر الأمر حياة، طالما أنّ سيداً يظهر ذات يومٍ، ويرغب بتقديم وشاحٍ، ويكلّمك هذا السيد بلطف، يكلّمك أنت، أنت وحدك، لأن في وجهه نظراً. إنه يدعى «آردوينو». العين سوداء، نفق ينفتح هنالك على السماء، اللوحات المصورة، غرفة الحبّ، عن روما، عنيّ، يا «جان»! وهل لك أن تعلمي أنهن جميعاً، جميع أولئك اللواتي ساعدتهن، بعد الكثير من الزبائن، زبائن رائعين، وأنت تبدئين المهنة أيام «المجمع الديني»، كلهن وجدن زوجاً؟ إنهن يكتبن لي. لسوف أجعلك تقرئين رسائلهن. إنهن صديقات».

أخذت «جان» الدورق بحركةٍ بطيئةٍ وقلبته، ساكبة الماء على الغطاء،

ومخلّصةً الذبابة التي اجتازت الطاولة، على مدى زمنٍ طويلٍ، قبل تمكنها من الطيران. فقدت عينا مدام «جيوزبينا» لونهما، «وانقلبتا» قرصين شفافين، بلون رماديٍ قاتلٍ. كيف تراها انخدعت إلى هذه الدرجة! مع أن يد «آردوينو» كانت دوماً يد سعدٍ. فيالسوء الحظ أن تكون «جان» التي استقبلتها الطفلة على غير توقّع في المرة الأولى، قد عادت إلى بيت عائلة «آغرستي» من جديد! كيف يعاكس المرء القدر؟ نظرت إلى الساعة الراقدة بين ثدييها، وكانت على وشك أن تقول: «يا آنسة، بعد ساعتين لديك قطار إلى باريس»، حين تبسّمت لها «جان». رأتها مدام «جيوزبينا» تأخذ الدورق من عنقه، فزايلها أيما تفكيرٍ إذ تملّكها الرعب. فلعل الموت حين يحمّ، لا يدخل إلاّ الجسد المفرغ. شعرت مدام «جيوزبينا» أنها رحبة وباردة، قصرٌ خالٍ فيه ألواح زجاجية طويلة تنتظر حلول الليل، غير أنّ «جان» التي كانت تداعب الآن بكلتا يديها تعرّجات الكريستال، قالت بصوتٍ واضحٍ سمعته الأخرى كشكوى صادرةٍ من أعماق أبعد غرفةٍ من غرف بيتها:

«حسناً، أبدأ غداً».

مناورات ضرورية

دوميترو تسيبنياغ (رومانيا)
Dumitru Tsepeneag (Roumanie)

★ دوميترو تسيبنياغ: ولد عام ١٩٣٧ في بخارست، يعتبر منذ عام ١٩٦٥ قائد جماعةٍ من الكتّاب الرومانيين الشباب، لجأت إلى طرق أخرى في التعبير غير طرق الواقعية الاشتراكية. مؤلف عدّة مجموعاتٍ قصصيةٍ.

حضر رجل بادىء ذي بدء يسحب وراءه كرسيّاً، وكان يجرّه بنصبٍ شديدٍ على إسفلت السّاحة الخشن. كان كرسيّاً ضخماً من الأبنوس منحوتاً بثراءٍ، كعرشٍ حقيقيّ. وضع الرجل المقعد الثقيل العتيق بعنايةٍ في وسط الساحة تماماً، ومن ثمّ انصرف.

عاد بعد مضي بضع دقائقٍ، فظهر ومعه كرسيّان آخران، أصغر من الأول وأقلّ وزناً، فوضعهما مقلوبين، فوق الآخر. وسحب من جيبه منديلاً مسح به جبهته المندّاة بالعرق. ثم عاد أدراجه.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ عاد مع رجلٍ آخر مثله قامةً، وصنوه شبهاً. كان كلّ منهما يحمل على ظهره - وهو ينفخ تعباً - حملاً من الكراسي. ويبدو أنهما على عجلةٍ من أمرهما. فوضعا الكراسي كيفما اتّفق فوق مثيلاتها. ثم ابتعدا يجريان جريا، وحينما عادا، كانا يدفعان عربةً من صنفٍ ما - سطح فوق عجلتين - كدّسا فوقها عشرات الكراسي. أفرغا العربة بسرعةٍ واستدارا على عقبيهما بالسرعة ذاتها.

تكرّرت العمليّة على مدى ساعاتٍ عدة. وخلص الرجلان إلى أن ملآ

الساحة بحشدٍ من المقاعد من مختلف المقاسات: كراسٍ ضخمةٍ احتفاليةٍ مثل سُدّة الكهان، ثلاثية الأرجل، مضحكة ذات أقدامٍ كأقدام الطيور المائية، مقاعد مستديرة بلا ظهرٍ، نمارق بطيئة ذات محمَلٍ طرّيٍ، منابر عالية وقاسية، دواوين ثمينة من خشب الجُزُر، أو كراسي مطبخٍ ذات دُفوفٍ أسيء تقطيعها، صبغت بالأخضر، مقاعد طويلة مستطيلة، ودكك منخفضة مغطاة بالخدوش، مصاطب مطبخٍ، ومقاعد ذات أذرعٍ وسيقانٍ مذهّبةٍ... محيط من المقاعد.

كانت الغيوم في أثناء ذلك تتجمّع. وفي الأفق البعيد، في العمق، تبدو فسحة من سماءٍ زرقاء. كان الجو قد مال مذ ذاك إلى البرودة، وهي تزداد شيئاً فشيئاً.

بدا الاعياء على الرجلين. كانا يلهثان، وقد غشّاهما الغبار، وتلطّخ وجهاهما بسواد الدّخان والعرق. ومن أرديتهما الممزّقة كانت تظهر عضلاتهما المعصوبة. ولم يمنحا نفسيهما أيّ برهةٍ للراحة، بل شمّرا الأردان وانكبّا على العمل. فجعلا، بدءاً، من المقاعد المتينة ذات المساند الحديدية مربّعاً يشكّل الأساس، ورفعا فوقه الكراسي والمقاعد الأكبر حجماً. وفي خفّةٍ مذهلةٍ تسلق أحدهما على كتفيّ الآخر، ومن هناك صعد فوق مساند المقاعد، كما يصعد المرء على صقالةٍ. وأخذ الذي بقي في الأسفل يلقي إليه بالكراسي الأخرى واحداً بعد واحدٍ. ويبدو للملاحظ أنهما كانا يتّبعان خطةً أعدّاها طويلاً، فهما يرتّبان المقاعد حسب نظامٍ محدّدٍ مسبقاً: ففوق المقاعد الكراسي الواطئة المستديرة، وفوق هذه صفٌّ من الكراسي ذات الظهور العالية، ومن ثمّ دكك توضع شاقولياً بنحوٍ متوازنٍ كلّياً، وهكذا دواليك. فلما خارت قوى الرّامي بسبب الارتفاع الذي بلغه بناؤهما، عمدا إلى طريقةٍ مبسّطةٍ بقدر ما هي حاذقة، فقد صنعا،

ـ باستخدام حبلٍ مرّراه تحت ساعدي مقعدٍ ـ ، نوعاً من البكرة المت
الرافعة ، وعلى هذا النحو ارتفعت الكراسي الأخرى بدورها نحو ا
ومن حينٍ إلى آخر كان الذي بقي في الأسفل يسأل :

« هل تشاهد شيئاً ؟ هل تراه ؟ »
وكان الجواب في كلّ مرةٍ سلبياً .
فيعاودان العمل ثانيةً باحتدادٍ .

وعندما جاء دور الكرسي الأخير ، ربطه بالحبل ، ورفعه عالياً ، ا
يشاهد الرجل الجاثم فوق قمة هذا الهرم الهائل إلاّ بصعوبةٍ فائقةٍ . فما
من الآخر إلاّ أن جمع يديه حول فمه على صورة مكبّر صوتٍ ، وصا

« هيه ! هل تراه الآن ؟ »
فلم يتلقّ جواباً . فكرّر سؤاله ، وهو يكاد يزمجر :
« أجبني ، هل رأيته ؟ »

فما ردّ عليه أحد ثانيةً ، فأخذه الغضب ، وجعل يرفس برجل
ويضرب بقبضتيه على الكراسي التي كانت في متناول يديه ، ويهزّ ظ
المقاعد المنحوتة كما تهزّ القضبان .
ثم إنه صرخ ثانيةً في اتّجاه صاحبه .
وأخيراً استسلم للسقوط تعباً على بلاط الساحة البارد ، وانفجر نا
وقد أخفى وجهه بين يديه .

حكاية مزعجة

ندلتشو دراغانوف (بلغاريا)

Ndeltcho Draghanov (Boulgarie)

★ ندلتشو دراغانوف: كاتب بلغاريّ معاصر، نشر حتى الآن عدّة مجموعاتٍ قصصيةٍ. يتميّز بمعالجة موضوعاتٍ من الحياة المعاصرة، فيها تصوير دقيق للعلاقات الإنسانية وفهم عميق وذكيّ لنفسيّة الرجل والمرأة في المجتمع الحديث، ويغلّف الكاتب ذلك كله بنفحةٍ من الفكاهة، يستخلصها من طبيعة العلاقات التي يصوّرها .

الصديقة الحميمة

كان رقيقاً، مخلصاً، لطيفاً، (أو هكذا في أقلّ تقديرٍ كنتُ أراه) ولهذا كنتُ أحبّه. كان هو نفسه يقول: أترين يا عزيزتي؟، أنا رجل بمعنى الكلمة. وكان يلحّ على هذه الناحية، أكثر ممّا يجب حسب رأيي، غير أنني كنت أؤمن مع ذلك بما يقول. من جهة أخرى لم يكن ثمة سببٌ يحول دون تصديق ذلك. وسارت الحال على هذه الصورة حتى يوم الصفر.

في يوم الصفر ـ وكان الجو جميلاً، والشمس ساطعةً، وكانت السماء زرقاء ـ قررنا الذهاب إلى الجبل. كان يوماً جميلاً في الواقع، تناولنا فيه وجبةً طيبةً، ولم يستطع أي إنسان، حتى نادل المطعم أن يفسد علينا مزاجنا الحسن. كانت الأمور كلها تسير على أفضل صورةٍ، خصوصاً أنّ «روميف» هذه المرة دون باقي المرات لم يكن على عجلةٍ من أمره. (كما هي عادته)، ولم يبدُ عليه الانزعاج من نظرات الآخرين. (تلك العادة التي تجعله دوماً في موقف المترصّد). وكان أمامنا بعد الظهر بكامله وسهرة بتمامها. لنا، ولنا وحدنا. وكنا قد قرّرنا الذهاب بعد الغداء لنأخذ نصيباً من الراحة في موقعٍ لطيفٍ جد قريبٍ، هادئٍ وصامتٍ،

(موقعنا) بعيد عن النظرات المتطفلة .

حين خرجنا من المطعم، رأينا أنّ السيارة اختفت من مكانها . وكنت أتذكّر تماماً أننا كنـا قد أوقفناها في المكان الوحيد المتاح، بين سيارة فوكس فاغن حمراء ، وسيارة لادا خضراء . وقد كانتا بالفعل هناك ، لكـن سيارتنا البيجو كانت قد اختفت. دار بسرعةٍ حول خلفيات السيارات ـ الخلفيات العليا والسفلى، المستديرة أو المسحاء، المتعددة الألوان ـ وهو يلقي نظراتٍ تائهةً من حوله، حتى ظهرت بقع حمراء على وجهه ـ كعلامةٍ مؤكدةٍ على الاهتياج عنده. عاد إليّ راكضاً فاقداً أنفاسه، غارقاً في العرق، وبما أنه لم يكن يصدّق عينيه، فقد عاد يحدج المكان الفارغ الوحيد في الصف الطويل للسيارات المتوقفـة ـ فيما بين الفـوكس فـاغـن واللادا الخضراء .

ـ مستحيل. سرقوها .

ـ مشكلة ارتكبها بعض الصبية الرعناء، يا « رومين »، (Romine)، وستجدها الشرطة على الفور .

ـ لكن في أيّ حالةٍ! مثل سيارة « نيكولا » (Nicola)، حطّموها بكل معنى الكلمة، ولا من رأى، ولا من عرف .

وما لبث أن اندفع نحو الجرف العاري من الشجر، ثم عاد أدراجه، فاجتاز الساحة أمام المطعم العام راكضاً، وهبط على مدى الجادة التي تقود إلى المدينة. وعاد فظهر بعد ربع ساعةٍ، وقـد تخضّـب وجهـه وتقطّعـت أنفاسه .

ـ لم . . لم . . لم أجدها .

ـ اسمع يا « روم »، لننطلق إلى المدينة، وهناك تطلب الشرطة من فورك.

ـ كلاّ، ما الذي تتفوهين به؟ أذهب هكذا؟ بيجو ٥٠٤ ويحك ألا تفهمين.

وعاد يركض، الله يعلم إلى أين.

انتظرته نصف ساعة. فما رجع. أخذت سيارة تكسي وعدت إلى المدينة.مكثت يومين دون أن أهتف له. وفي الثالث لم أعد أتمالك نفسي. طلبته في مكتبه.

ـ مرحباً، « روم »، أنت حرّ هذا المساء؟
ـ كان عليك أن تسأليني أولاً عمّا جرى بالسيارة.
ـ وجدوها، أليس كذلك؟
ـ تصوّري أن الجواب: لا. الشرطة كلها أخطرت، ومع ذلك، لا شيء!
ـ لكنهم سيجدونها آخر الأمر، لم تطر في الهواء.... « روم »، هل نلتقي هذا المساء؟
ـ كلا، أرجوك، ليس لديّ وقت. أنا أسير نحو الجنون، وهي لا تفكّر إلاّ بالتسلية.

ـ ماذا تعني؟
ـ بالضبط ما قلته ـ كان الجواب قاطعاً.
ـ اسمع، أنا أيضاً تقلقني حكاية السيارة هذه، لكنني لا أرى أيّ شيء يسعنا عمله.

ـ اسمعي، دعيني في سلامٍ، يكفيني ما أنا فيه. أنت التي حرصت على الذهاب إلى الجبل، فالغلطة غلطتك.

أعدت السماعة، هتفت له مرتين أخريين. لم تكن في رأسه سوى هذه السيارة. ما عادت به رغبة للخروج في صحبتي، ولا أن يراني، بل حتى ولا أن يكلمني. وقد توجّب أن تحدث قصة السيارة هذه لأفهم أخيراً كم كان رقيقاً، مخلصاً، لطيفاً، أعني، رجلاً حقيقياً.

الزوجة

فهمت منذ أمدٍ ليس ببعيدٍ أنّ له صديقةً حميمةً. زوجي «رومين» له معشوقة! جعلت أتصوّره وهو يرفعها إلى أعلى عليين، شأن ما كان يفعل معي قبل زواجنا. وأنا أعرف روحه اللطيفة معرفةً وثيقةً، لذلك قررت تسوية الأمور بلا ضجيج ولا دموعٍ. فحين أخذ السيارة ذات يوم سبتٍ، قفزت إلى سيارة تكسي، وقد قرّرت ملاحقته. كانت صديقته تنتظره في زاوية الطريق، كانت جميلةً حسبما أمكنني أن أحكم من بعيدٍ ـ طويلةً وممشوقةً، تلبس بذوقٍ، ولها شعر أشقر، أو خرنوبيّ فاتح. سلكت سيارة البيجو الطريق المؤدية إلى الجبل. فرجوت السائق أن يتمهّل، فبدا مندهشاً، ونبر قائلاً:

ـ لا أفهم شيئاً، كنت أظن أنّك تودّين ألاّ تغفل العين عن سيارة البيجو البيضاء.

عندما بلغنا الساحة الصغيرة أمام المطعم، أبصر السائق البيجو البيضاء

تلمع بكل بهائها ما بين سيارةٍ حمراء وأخرى خضراء زيتونيةٍ. توجّه إليّ ببسمةٍ تآمريةٍ، فسوّيت حساب التكسي، وأخرجت من محفظتي مفاتيح السيارة، (فقد كان عندي بديل للأصلية). كان هنالك معطف نسائي بلون كحليّ مُلقى على المقعد الخلفيّ. لمسته، فوجدت القماش ناعماً للغاية. لا بأس، قلت في نفسي، وجلست خلف المقود، واتّجهت نحو المدينة، وضعت السيارة في مرآب أصدق صديقاتي. فما عاد زوجي مساءً حتى أخذ يزمجر:

ـ لعنة الله عليهم، الأوغاد، كومة القمامة، آه لو أني ألقي القبض عليهم:

ـ من هم؟ قلت في براءةٍ. كان منظره مخيفاً ـ مبهوتاً، مشعّث الشعر، وأيّ رأسٍ، يا إلهي، كما لو كان يشكو وجعاً رهيباً في أسنانه.

ـ يا للأوغاد، اللصوص، الدّواب الوسخة... (كان لا يتمالك أنفاسه)، الأنذال الفجرة...

ـ لكن يا عزيزي، هدّىء نفسك، لا أفهم شيئاً مما تقول.

ـ سرقوا سيارتي، أفهمت؟، سيارتي البيجو!

ـ مستحيل!

ـ آه، لو أنهم يقعون تحت يدي، سأحطّمهم، أؤكد لك ذلك، حتى لو ساقوني إلى السجن.

ـ لا تتفوّه بالحماقات من فضلك، وبدلاً من أن تغضب على هذا النحو، ليتك تفكّر قليلاً...

ـ ولكن ما الذي تقولينه؟، فظاعة... أفكّر! أأنت التي تتكلمين عن التفكير؟ أنت والتفكير لا تلتقيان. أفهمت؟

ـ طيّب، طيّب، روح النكتة نامية عندك. هيّا، هل هتفت إلى

الشرطة على الأقل؟

هوى في مقعدٍ، انتزع ربطة عنقه انتزاعاً، وألقى بها أرضاً بغضبٍ.

ـ من هناك أنا آتٍ بالضبط.

ـ إذن؟

ـ أخذوا رقم التسجيل، ووعدوا بالبحث عنها و... هم يعدون دوماً... في أيّ حالةٍ سوف يعيدونها إليّ، في أي حالةٍ! هذا الذي يزيدني انزعاجاً على وجه الخصوص.. سيارة جديدة، بلا شطبٍ، أجل في غاية الجدّة، مشت ٨٠٠ كيلو مترٍ فقط، وأنت تعرفين على الأقلّ كم كنت أعتني بها على الدوام.

ـ أعرف بالطبع، فأنت لم تعرني إيّاها سوى ثلاث، أو أربع مراتٍ.. لم أمشِ بها ٥٠٠ كم.

ـ وهذا كافٍ لك وزيادة، انفجر مجدّداً، أجل زيادة. إيه للأوغاد، الأوغاد، فليقعوا بين يدي، وليروا أي كارثةٍ ستحلّ بهم.

ـ تمالكت نفسي بصعوبةٍ كي لا أبتسم.

ـ «رومين»، لم أكن أعرف أنك قادر على إصدار صرير من أسنانك.

ـ كيف لا أصرّ.. هه غر، غررر. وبعد، ما الذي يهمك من الأمر أنت، إنها أسناني أنا، وأفعل بها ما أريد.

ـ طيّب، طيّب، تابع، ما دامت هذه الموسيقى تلذّ لك، لكن ذلك لن يجعلك تتقدم في الموضوع. قل لي متى، وأين سرقوا لك سيارتك؟

ـ كيف أين، قال مقطّباً حاجبيه. تغضّنت ملامحه، غير أنّ نظرته بقيت غامضةً.

ـ كيف أين ؟ كان يجهد لكسب الوقت. الخلاصة، كنت قد أوقفتها أمام المطعم، تعرفينه هناك في الجبل. كنت قد ذهبت إلى هناك في صحبة أحد الأجانب، ضيف على شركتنا. شخص هنغاري، أو شيء من هذا القبيل. كان عليّ أن أدعوه إلى الغداء، وهذا يحدث أليس كذلك؟ ومن ثمّ، أترين، كان راغباً اطلاقاً بالذّهاب إلى الجبل، فقد سمع عنه أو ما يشبه ذلك. وعاد صوته ناعماً، لا يكاد يسمع.

ـ ولماذا لم تركبا سيارة الشركة ؟

ـ لأن... لأنني أبله، هوذا! سوف يقال فيما بعد إنني راغب في استجرار مكسبٍ.. تعرفين، وسيقال...

ـ اسمع يا «رومين»، إنك تدهشني! هذه أول مرةٍ أسمع فيها شيئا كهذا. لم يكن مثل هذا الأمر ليضايقك، أو ليحرجك حسب علمي..

ـ بلى، لكن اليوم هو السبت، وتعرفين أنّ تكليف السائق يوم السبت أمر مزعج، أليس كذلك... ؟

ـ بلى، بلى، معك حق! لم تكونا سوى أنتما الإثنين مع ذاك الهنغاري.

ـ بلى، طبعاً، مع من تريدين ؟

ـ بأيّ لغةٍ تحدثتما، مع ذاك الهنغاري ؟

انتفض ونظر إليّ نظرةً بلهاء.

ـ بأيّ لغةٍ... لكنك لا تريديننا أن نتحدّث بالهنغارية، أليس كذلك ؟ كان يتكلم هوَ الفرنسية.

ـ هنغاري يتكلم بالفرنسية ؟

ـ ولِم لا ؟ قولي لي. الهنغاريون ليسوا كالصينيين، أليس كذلك ؟ إنهم أوروبيون، أليس كذلك ؟، فلا غرابة. ومع هذا فما أهمية ذلك. صاح مجدّداً في حنقٍ. أنا أجنّ وهي تكلمني هنا عن الصينيين. فما كان منّي إلاّ

أن انفجرت ضاحكةً.

ـ اية، يمكنك أن تضحكي، هيّا ـ قال «رومين» مكتئباً ـ إنك تضحكين مثل... كما لو كانت تلك السيارة لا تخصك أنت أيضاً، كما لو كانت ملكاً للبقّال الذي في الزاوية.

ـ لكم أنت مسلٍّ، حقاً. أين تريدهم أن يحشروا سيارتك؟ غداً أو بعد غدٍ، على الأكثر سيقعون عليها.

ـ أجل سوف يجدونها، لكنها لن تكون سيارةً بمعنى الكلمة.

انقضى أسبوع، صار الجوّ أكثر برودةٍ، ووجدت نفسي أفكّر بمعطف خليلته. يا للمسكينة، سترى نفسها مجبرةً على شراء آخر جديدٍ، أو أن تلبس معطفاً شتوياً، منذ الآن. ومن الواضح أن «رومين» لم يفكّر مجرّد تفكير بالمعطف في أي لحظةٍ. فما كان في رأسه سوى تلك السيارة. كان يتردد كلّ يومٍ على الشرطة، ويهتف ـ دوماً لا شيء! كان يحقد على الشرطة وعلى الدنيا بأجمعها لعجزها عن اكتشاف المجرمين. (أشخاص كهؤلاء ـ كان يقول وقد خنقه الغضب ـ يجب إعدامهم، إعدامهم فوراً!).

بعد عشرين يوماً، عندما لاحظت أنّ رومين قد نقص وزنه بسبب عدم النوم، وعدم الأكل، وأنّ أعصابه باتت على وشك الانهيار، وأنه بعث بخليلته حتماً إلى الجحيم. (فالسيارة قبل كلّ شيء)، أعلنتُ أمامه أنني تلقيت هاتفاً من الشرطة: أنّ السيارة موجودة في الساحة التي تركها فيها أمام المطعم.

ـ لكن هذا مستحيل. زمجر بقوةٍ. ذهبت إلى هناك ستّ مراتٍ على الأقل!

ـ حتى لو ذهبت إلى هناك عشرين مرةً، فالأمر سواء. قالوها بوضوحٍ، بيجو ٥٠٤ ـ رقم كذا وكذا ـ سيارتنا البيجو هي الموجودة أمام المطعم ـ نظيفة ولم يصبها أذى.

رفض حتى أن يتناول غداءه. طلب سيارة تكسي.

ـ لكنها سيارتنا، بالفعل، صاح وقد أثملته الفرحة، منذ أن رآها.

وفيما كان يسوّي حساب التكسي، هرعت إلى السيارة التي كنت قد أعدتها بنفسي في ذلك الصباح.

قلت له:

ـ أنظر، يوجد داخلها معطف نسائي. لا ريب في أن شخصاً ما قد نسيه، أتعرف، هناك مؤخراً نسوة كثيرات صرن عضواتٍ في عصاباتٍ. إنه أنيق جدّاً. ما رأيك فيه؟

ـ ما عساي أفكر ـ قال مغمغماً بعض الشيء ـ معك حق بلا شك، فالنساء يمكن أيضاً أن يصبحن سارقاتٍ.

ـ في هذه الحالة يسرّني أن أقبل هذا المعطف كهديةٍ متواضعةٍ من سارقةٍ كبيرةٍ.

المنشرة

أوغستو روا باستوس (باراغواي)

Augusto roa Bastos (Paraguay)

★ أوغستوروا باستوس: ولد عام ۱۹۱۷ في الباراغواي. يعتبر أحد معلّمي القصة الواقعية، برز في وصف شقاء واستغلال أهل بلده، الذي هو أفقر بلدان أميركا الجنوبية.

يتبادر للمرء، أيام الريح الشمالية، أنّ المنشرة أقرب إلى القرية الصغيرة ممّا هي عليه حقاً، لأنّ العصفات المحرقة تقرّبها منها ضمن هدير المناشير الكبيرة. علماً أنها لا تبعد أكثر من نصف فرسخ. فهي قائمة في الموضع ذاته الذي بوشر فيه بنشر الجذوع الأولى بُعَيْد «الحرب الطويلة»، حينما وُضعت الأراضي المصادرة في المزاد العلني لرفع الديون ـ كما قيل ـ لمنتصري «الحلف الثلاثي». وهذا ما يبعث على الاستغراب، إذ هو يشبه أن يقضى على أهل الميت بأن يموتوا كدّاً ونَصَباً، على مدى عشرة أجيال، ليدفعوا للقاتل نفقات الميتة والدّفن. إنها حقاً حكاية من الحكايا التي تُروى في سهرات المآتم. ولكن امض فارْوها في سهرة مأتمٍ ما، لقد تُفيض في القول، وتفعل ما يحلو لك فعله: لكن ذلك لن يُضحك أيّ إنسانٍ، لأنّ الناس يسخرون منه كعادتهم وهم يزدادون سخريةً مما جرى سابقاً. حتى أنهم ليسخرون بالقدر ذاته مما حدث مؤخراً، وما عساه أن يحدث. إنّ الناس لا يتذكرون البلاء، وبما أنه لا يحدث ما يسعد، فالناس لا يتذكّرون شيئاً.

ولعلّ من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو.. لكنّ أسوأ ما في

الحال أنّ الأمور قد لا يسعها أن تجري مجرى آخر، لأنّ تلك الأرض، وعلى الأقلّ تلك التي أعرفها من منطقة غويرا، حيث ولدت، بقيت مدفونةً عملياً في الماضي. الأرض والبشر. فإذا رغبتم في معرفة قرارة نفسي، فسأقول إن ذلك هو شأن الدّواب ذاتها، لا تلك التي تَقْطُرها أو تحتبسها فحسب، بل حتى الحيوانات المتوحشة. كل نوع: الأفاعي، الحشرات، حتى الطيور التي تطير بنحو منحرف، كما لو كانت توشك على السقوط في اي لحظة، مصطدمة بذاك الجدار من القيظ الأبيض كلّه، الذي يسدّ الأفق من أيّ جانب تملاّه المرء.

يكفي أن يرى المرء العيون الباهتة، الخالية من الذكريات، وتلك الحركات التي لا تعرب عن أيّ توقع، حتى ولا عن الأمل أن الزمن يتصرّم ويجرف معه ذاك الموج كله المرتد على أعقابه، المتراكم إلى علوّ يوشك معه أن يلامس سماء الهضبة السفلى والكثيفة.. ذاك الموجُ المرتدّ الموجود حتى لو لم نره، لأنه في داخل كلّ منّا، أكثر منه في خارجه، ويطفو بالتأكيد في نظراتنا وفي تنفّسنا، في تلك الطريقة التي تخصّنا بالمشي كما لو كنا نضع قدماً خلف الأخرى، ونتكلّم بصوتٍ خفيضٍ ومغشى، كما لو أننا نعبّر عن مرادنا بنحوٍ معوجٍ.. ذاك الموج المرتدّ الذي يمكث كلّه دوماً في ذاتك، مهما تبادر لك أنك قد تخلّصت منه. ونحن كلما ازددنا تحدثاً عنه، وأمعنّا فيه تفكيراً، ازداد هو تسمماً لدمائنا.

لكنّ المشكلة أنّ الغيوم ذاتها قذرة، بلون القطن الخام الممزوج بالتراب.. لأنها، تجرف بالتأكيد مياه المستنقع المحيط بمنطقتنا. ففي كلّ عامٍ يهطل مطر أحمر يوم القديس «بليز»، (Saint - Blaise) فإذا لم يهطل في سنة من السنين، قلق النّاس لأنهم لا يرون هطوله: كما هي الحال

مع الجفاف، أو الجراد، أو الثورات. عند ذاك يمضون لاستجداء مسيح الرابية، الذي بدأ دون ريب يملّ اللّجوجين، من هذا الشعب، متسوّل العناية الآلهية.

هنالك، على جنبات الرّابية، كانت تولد الغابات العذراء التي بُدىء بقطعها منذ بعض الوقت، وبات جزء كبير منها، ـ حسبما يُقال ـ، ملكاً لذاك الماريشال البرازيلي، الذي قاد جيوش الاحتلال. وهي الآن تستثمر من قبل « شركة الغابات الباراغوانية ـ البرازيلية ش. م. » هذا إذا صدّقنا الكتابات المصوّرة بالقطران على نقاط التخوم وعلى العرّبات. وفي هذا المكان بالضبط تقوم المنشرة مثلما كان عليه الأمر فيما مضى: ضيعة أصغر من الأخرى، أكواخ بلا جدران، ليس فيها سوى عوارض، سقوفها القشيّة ذات المنحدرين، وقممها المصنوعة من الخشب الغليظ، وتحتها حفرها المربعة كالقبور.

كان في كلّ كوخٍ رجلان يعملان من الفجر حتى الليل: كان أحدهما في الأعلى، واقفاً على الجذع، رافعاً ومنزلاً ببطءٍ ذراعيه المشدودتين على مقبض المنشار الضخم، متتبّعاً بوصة بعد بوصةِ الخطوط المرسومة بالدّخان الأسود على القشرة الخشنة. أمّا الآخر فرأسه خارج الحفرة، وقد ابيضّ من النّشارة المتساقطة.

إنّ كلّ شيءٍ على حاله الأولى، ومن المؤكّد أنه لن تركّب أبداً مناشير على البخار، وبقدر أقل على الكهرباء، لأنه إذا كان صحيحاً أنّ أذرع الكادحين تعمل ببطءٍ أشدّ، فإنّها كذلك أقلّ كلفةً، ومن جهة أخرى، فلو رُكّب منشار ميكانيكي، فلن يغيّر ذلك عظيم أمرٍ. فلا تزال غابات

عذراء باقية. فلو جرى ذلك بمنشار بخاريّ، أو بطاقةٍ مولّدةٍ من الماء، أو ببساطة، من رئات الرّجال الذين ينثنون شقّين لدى كلّ هدير منشارٍ تحت سقف القشّ المتعفّن، فسيبقى عملٌ لمدة ألف سنةٍ. إنّ الزّمن لا حساب له. فلا معنى للزمن عند أولئك الرّجال، سوى تلك الغابة التي لا نهاية لها، والتي تقطع المنشرة أوصالها، وحيث لا يفكّر المرء إلاّ أن يبصُق في يديه، بعد قطع شبرين أو ثلاثة، لكي يمسك من جديد مقبض المنشار الكبير ويعاود العمل.

« ها قد عاد ايلوجيو » (Eulogio)، خبّر ذاك الذي في الأعلى، رجل قصير غليظ. وذراعاه القصيرتان تضطرّانه للانحناء أكثر من الآخرين.

« من؟ » سأل الذي في الأسفل.

ـ « ايلوجيو أسْكيفِلْ ». توجّب على القزم أن يرفع صوته، واغتنم تلك الفرصة لإيقاف المنشار الكبير في الجوّ، وليمرّر حافّة يده على صدره الدّبق. هزّها بعصبيةٍ، فتساقط الرّشاش على الألواح. وفي الحال، جاءت الزّنابير (الدّبابير) الحمراء الجائعة، فاندسّت داخل هذا الثفل من الخشب والعرق.

ـ « ايلوجيو أسْكيفلْ » ردّدها الرّجل الشاب كالصدى، وهو ينظر إلى البعيد.

ـ رأيته وأنا قادم قرب الساقية، نائماً تحت شجرةٍ. كانت قبّعته فوق وجهه. لكنني واثق من هويّته. بسبب تلك الطريقة التي كانت لايلوجيو باظهار نفسه، حتى حين يكون ثملاً، أو مستغرقاً في النوم، كان الشخص هو ذاك العفريت أسكيفل.

ـ لا يمكن أن يكــون هــو. فقــد انقضى ردحٌ مــن الزّمــن وهــو في الأرجنتين.

ـ لِمَ تُراه يعود؟ فهناك كل ما يُرجى من عملٍ، ولكلّ الناس.

ـ لم يقلق العمل باله قط. لا ريب أن في ذهنه خاطراً آخر، تعال أعرفه، ولعلّ ذلك فقط، من أجل متعة أن يدّس تحت أنوفنا العضلات القوّية والأموال التي عاد بها من هناك.

ـ شاهدناه في حالة «دون نيكانور تَلْها سيدا».

ـ يمكنك أن تثق. وافق القزم، إن الأمر كذلك حقاً. فالأمر الأول الذي كان يهمّه، أن يمضي، فيسكر كعادته دائماً. ولعلّي أخطأتُ إذن. يا لِلْحَرّ العاهر! وطعام الغداء ما انفكّ بعيداً..»

كان جليّاً أنه يعمل على إطالة المحاورة، فيتكلّم في أمورٍ وفي أخرى، من أجل الاستمتاع بمتابعة تهوية نفسه بقبعته الوسيعة من القشّ، وهو مزروع بقوة فوق جذعــه. فلم يجب الآخــر، بــل أفــاد هــو أيضــاً مــن الاستراحة، لينفض النشارة اللاّصقة التي كانت تلطّخ جلده.

«أودّ لو أتمدّد هنا بالذات، تابع الآخر، فأحتسي جعّةً مثلجةً جداً، مثل تلك التي يقدّمونها لك في منهل «ايتابيه»! يا للشيطان! يتمثّل لي أنّني أرى العرق المتجمّد الذي يكسو القنّينة! لا شيء افضل من الجعّة، يا صاحب. أتمنّى لو أجرع قنينــةً بعــد أخــرى بلا حــراكٍ، حتى أصــاب بالحزقة، وإلى أن أحسّ بما يشبه ساقيةً من الجعّة المثلّجة تسري فيّ، وتدغدغ أنفي برغوتها... وأنا أعتقد أنني ذاهب أيضاً يوماً مــا لأحسّــن

أحواليّ في الأرجنتين. فقد ننجح هناك، « يامانويل » Manuel. يقال: إنّ المرء هناك يأكل ويشرب جيداً، على الأقلّ».

ـ يجب أن نعاود العمل، يا « بيرو » Peru. نُزْجي الوقت في تسمين أنفسنا، وهذا لا يدفع العمل. غرز الرجل السمين قبّعته ثانية حتى عينيه، وعاد المنشار الضّخم يزمجر على خشب التّيمبو.

حدث ذلك في الصباح، قبل وصول النّساء حاملات أواني الغداء.

وعند غروب الشّمس، ولدى إشارة رئيس العمّال بالضّرب على قطعة فولاذٍ، هبط الرجال عن المنصّات الحاملة، وخرجوا من الحفر، فكدّسوا الألواح، وجمعوا الأدوات بعجلةٍ فائقةٍ، في غمرة من مزاحٍ وصيحاتٍ جافةٍ، أخذت تنطفيء بلا أصداء بين أكوام النشارة.

تأخّر « مانويل راموس » (Manuel Ramos) أكثر من المعتاد، وهو يعدّ الألواح ويكعّبها ثم انغمس في سنّ المنشار الكبير بتباطؤ كبير بحيث أن رئيس العمّال اقترب وقال له:

« ألن ترجع إلى بيتك »؟

ـ بلى، قال دون أن يلحظ لهجة الآخر السّاخرة.

ـ لا ريب في أن زوجتك تنتظرك. (وأمام صمت مانويل (Manuel): أنا لو كانت لي زوجة مثل زوجتك ما تركتها قيد أنملةٍ». قالها مع غمزة عين، لم يرها مانويل Manuel أبداً، لأنه كان منحنياً على الفصل المثلم الملتمع كلّه بلونٍ أحمر فاقعٍ تحت البريق الأخير للغروب.

بعد انقضاء برهة، عاد مانويل Manuel متمايلاً، وهو يعرج لدى كل خطوةٍ يخطوها، في اتجاه الدُّور الزراعيـة غير المرئيـة عبر السـاقيـة، على الجانب الآخر من صفوف النّخيل كانت طيور ضخمة مائلة تطير عنه وهي تزقو. كان يستنشق بقلقٍ رائحة ثمار الغوّافة الناضجة التي يعبق بها المساء، وذاك الفوح المعدنيّ الصادر عن الصراصير التي اطار صوابها اقتراب الليل: شيء ما يمكن لمسه بالأيدي، أليس كذلك، يا مانويل (Mnuel) ؟ مثلما كان يحدث حين كنّا أطفالاً، نمضي للسباحة في المستنقع لعلّك كنت تبادلني الكلام الآن أيضاً، ولو لم تتكلّم لعرفت من الأمر القدر ذاته بمجرّد أن أنظر إليك. وكلّ ما جرى من بعد كان سيجري. وما كانت بي حاجة لأن أحفر رأسي كي أحزر مشاغلك.

إنك حين ترجع إلى مزرعتك، تعاودك أمسيات صيفية أخرى كهذه. بالتأكيد، حين بدأ خصامك مع «ايلوجيو» (Eulogio) على حب «بترونيلا سانا بريا»، (petronila sanabria)، خصام بدل أن يفرّق ما بينكما، جمعكما بقوّةٍ متعاظمةٍ في ذاك الضّرب من المطاردة المتبادلة الذي لم يكن سوى شكلٍ جديد للصحبة، تلك الصحبة الشّجارية المتحرّرة التي ما كانت تبلى فيما بينكما أنتما الاثنان منذ أيام المدرسة في «ايتابه» (Itapé). فأمامك بمقدار صفين كان مقعد «نيلا» (Nila) التي تتغنّج لكليكما وتقبل منكما الإثنين، بلا تفضيلٍ ظاهريّ، بيوض الحجل الملوّنة، وأناثى الببّغاء الصغيرة التي التقطت في الغابة بالشّرك، الأمر الذي لم يكن ينجم عنه سوى أن تعمدا إلى مزيدٍ من شدّ القبضات والعضّ على النواجذ حتى الإدماء. لقد كانا حينئذ متقاربين جدّاً، متلاحمين أحدهما بالآخر بالحبّ ذاته، وبالكراهية ذاتها، حتى لم يعودا سوى الشفتين والأسنان من فمٍ واحد.

حلّت مع ذلك، فترة تبادر فيها « لايلوجيو إسكيفل » (Eulogio Esquivel) أنه في سبيله إلى الانتصار: حدث ذلك حين أصبحتَ معوقاً بإحدى قدميك، وبدأت كلمات السُخرية والهزء التي كان « ايلوجيو » (Eulogio) يستثيرها أكثر من أيّ شخصٍ آخر، دون أن يدري أنّ ذاك المزاح ذاته كان يثني « بترونيلا » (Petronila) لصالحك، هي التي ما كانت قادرة على رؤية انسان ما يتوجّع، بل ولا أصغر دابةٍ تضرب. ومن بعد، طلبهما التّجنيد كليهما إلى « آسونسيون » (Asunsion). هل تراك تذكر أنّ الأمر جاءك كالفرج، لأن حبّك « لبترونيلا » (Petro Nila) طوال ذاك الوقت كان قد تعاظم وأنّ ما في قدمك من عيبٍ فقط هو ما كان يعينك على كتمانه، خشية أن تُذلّه وأن تُذلّ أنت نفسك، لأنك ما كنت قادراً على تحمل إشفاقها؟

كانت تلك العاهة ـ نوع من الثّأر لم تَسْعَ إليه ـ هي التي أعْفتك من الخدمة وأعادتك إلى القرية. أمّا « ايلوجيو » (Eulogio) فاضطرّ للبقاء مجترّاً غضبه وغبار الثكنة، طوال سنتين لا نهاية لها. فلمّا عاد، رأى أسباب تخوّفه في مرآة الواقع: اكتشف أنك تزوّجت من « بترونيلا » (petro Nila). فشعر أنّ خيانة مزدوجة قد حلّت به، في صداقته وفي حبّه. إلا أنه لا يفاتحك بشيءٍ. بدا فجأة وكأنه نسي تلك السنين كلّها من التنافس. حتى ليقال: إنه انقلب حقاً على حين غرّةٍ، وللمرة الأولى، صديقاً لك، رغم أنك ـ باختصار ـ شككت بلا ريبٍ في البداية أنه ينوء الآن بعبء إخفاء خيبته، بمقدار ما وقع عليك أنت نفسك في البداية عبء إخفاء يأسك. واقتنعت آخر الأمر بإخلاصه، أي أنه بمعنى آخر خدعك للمرة الأولى. وقد خدعك لأنك كنتَ تجهل ما حاك خلف ظهرك. وفي هذا لعلّ « بترونيلا » (Petro Nila) أخطأت حين كتمت

عنك كلّ شيء.

وإنك لتذكر أن « إيلوجيو » (Eulogio) منذ عاد كان يجرجر قدميه كشخصٍ تافهٍ في القرية. كان يقضي أيامه كلّها في حانة « دون نيكانور بلما سيدا »، (don nicanor Balma ceda» ، وهناك اعتاد التردّد على بيتك، مشبعاً بالخمر والغمّ، لمناوشة « بترونيلا »، (petronila) ، زوجتك أنت، في حين كنت تضني نفسك تحت جذوع الخشب المدوّرة في المنشرة.

بذلت « بترونيلا » (petronila) جهدها لطرده ولإسماعه صوت العقل. فكّرت بأفضل وسيلةٍ لإبعاد رجلٍ في مثل عناد « ايلوجيو » (Eulogio). أمّا هو، فقد تخيّل أن الأمر سينتهي « ببترونيلا » (petro Nila) إلى الاستسلام. وذات صباح تجرأ وأراد استعجال الأمر. فقاومت « بترونيلا » (Petro Nila) ـ وللأسف أنك لم تدر بذلك! ـ بسكّين مطبخها، وسبّبت له جرحاً في وجهه. عندئذٍ اختفى. وفي المرة الأخيرة التي سمعت عنه كلاماً، علمت أنه شوهد لدى نزوح العمال الموسميّين الذين يهاجرون كلّ عامٍ للحصاد عبر الحدود.

ولكن في هذا العصر الورديّ والحارّ من كانون الثاني، عاد « ايلوجيو اسكيفل » (Eulogio Esquivel) فظهر بعد غياب ثلاث سنين. رآه « مانويل » (Manuel) من بعيدٍ، حزر تقريباً من يكون، وهو مستلقٍ على حافّة الطريق بين الأعشاب المجنونة، بقبّعته المنزلة فوق وجهه. فينتصب دفعةً واحدة ويمكث جالساً، متّكئاً على كوعٍ، ناظراً إلى « مانويل » (Manuel) ومرسلاً ضحكةً عريضةً.

« هولا، مانويل »! .(Manuel)

إنه أشدّ سواداً وأكثر نحافةً، لوّحته شموس أكثر قدرةً على الإحراق من شموس المزرعة وحرقته المسافات، والدروب والتيّه. إنه محروق بنحو أخصّ من الداخل، بتلك الشّعلة التي يلحظها المرء في عينيه، في ضحكته، فوق جلده المسمّر، المتيبّس بلا قدرٍ ولو ضئيل من الشّحم، الملتحم بشدّةٍ بعظام وجهه، الذي يكاد يتمزّق عند الوجنتين البارزتين. لا يزال يُبدي المودّة والتباعد، كأنه لم يرجع بعد تماماً، أو كما لو كان بعث بغتةً تحت شجرة الغوافة، ولم يسعه بعد أن يجمع جسمه كلّه بسرعةٍ. وأنا خلال تذكّري رجالاً من شاكلة « ايلوجيو » (Eulogio) مثُل في ذهني ما قلته قبل قليل: هذا الصنف من الموج المرتدّ، الوحل الجاف، الحياة بالمقلوب، كما هي متواجدة داخل أعطاف كلّ منّا، والتي لا يسع « ايلوجيو » (Eulogio) اخفاءها، حتى ولا بتلك الضحّكة العريضة العظمية كلّها، التي يرنو بها إلى « مانويل » (Manuel).

« ايلوجيو ! (Eulogio) متى عدت ؟

ـ للتوّ »، أجاب باحثاً عن شيءٍ ما حوله، لأنه مذ ذاك انصرف عن المكان، بل إنه لم ير، أو تعمّد ألاّ يرى اليد التي مدّها إليه « مانويل » (Manuel). فينهض وينتزع ثمرة غوّافةٍ، فيهشمّها بأسنانه، ويأكلها ببطءٍ، متلمّظاً كالأطفال. تُلطّخ الحبّات الصغيرة فمه بالأبيض والأحمر، فيما هو يرمق « مانويل » (Manuel) مجدّداً، ولكن كما لو كان لا يراه، أو كما لو كان « مانويل » (Manuel) لا ينتصب أمامه.

« روى لي « بدرو اورويه » (pedro Orué) أنه رآك هذا الصباح فما أمكنني تصديق ذلك... ».

بعد لحظةٍ، يتحول تعبير « ايلوجيو » (Eulogio) البهيج، المكّار، إلى تكشيرةِ قرفٍ، إلاّ أنّ بسمته تعود للتوّ فترتسم على فتحة فمه.

« وصلت للتوّ ولم أمرّ بالقرية. لا يمكن لأحدٍ أن يراني ».

يلقي ما تبقّى من الثمرة، ينظّف فمه بقفا يده، ويضعها من بعد على كتف « مانويل » (Manuel)، الذي لا يلحظ خطّ الجرح المندمل على أحد صفحتي الوجه، لأنه بالتأكيد، لا يدري بوجود هذا الجرح فيه، ولا البسمة السّاخرة إلى حدٍّ ما، بل يلحظ وجود الصديق العائد فحسب. إنه لا يذكر، أو لعلّه راغب الآن في نسيان كلّ الأمور السيّئة التي ربطت ما بينهما فيما مضى: خصومتهما بسبب « بترونيلا »، (Petro Nlla)، لطمة « ايلوجيو » (Eulogio) التي جعلته يسقط عن شجرةٍ، لمنعه من الإمساك بالقبّرة الصغيرة، فكُسرت قدمه بتلك السقطة، والمشاجرات الإفرادية لدى الخروج من المدرسة، حين كانا يتضاربان، كما لو كان ذلك في الخفاء، وسط أشجار جوز الهند، حتى الإدماء، وإلى درجة الانهيار على آخر نفسٍ، مستمرّين بالتّماسك على الأرض المحرقة، المرشوشة بأشواك جوز الهند الطويلة، تلك الأشواك التي ينسج منها أهل « ايتابه » (Itapé) أكاليل الصّليب « للجمعة المقدّسة ». إني لأتذّكر تلك المرّة التي أراد فيها إغراقك في ثنّيةٍ من النّهر، بأن بطحك تحت جذورٍ ضخمةٍ من « الإينغا » وتطلّب الأمر أن نهجم عليه، فنوسعه ضرباً بالعصيّ وبالحجارة ليتركك، وحين جررناك فوق الرّمل، كان وجهك قد تغشّى بطحالب الغرقى، في حين كان هو يتضاحك مستنداً على شجرة، نصف حانقٍ، نصف راضٍ عن نفسه، مداعباً ذكره، مبرزاً لنا بغتةً بتكشيرةٍ بذيئةٍ خصيتيه المنتفختين بنحو لا يصدّق، وهما تطفران تحت ضغط اليد. حركة لم تكن

تخصّنا، إحدى تلك الحركات السريعة والمبهمة التي تدهش، أو تعزل جانباً أولئك الذين لا يقدرون على فهمها، لأنها تنجم عن عاطفةٍ أقوى وأشد غموضاً من مجرّد السفاهة والحقد والخزي.

« هيّا، تعال، سنذهب إلى البيت، يا « ايلوجيو » (Eulogio) (لا بدّ أنه قال له ذلك).

ـ بلى، ولكن عليك أولاً أن ترافقني.

ـ إلى أين »؟

ترتفع اليد ذات السّلاميات المتعظّمة في اتّجاه الرّابية.

« وقعت على ـ قبر من قبور الحرب الطويلةـ ».

ـ إنك تسخر منّي، يا « إيلوجيو »، (Eulogio) قال « مانويل » (Manuel) بين مصدّقٍ ومكذّبٍ.

ـ كلاّ، بل بقدر صحّة مواجهة أحدنا الآخر. أتذكر « دون كاسيانو »، (Don Casiano) ذاك الجنديّ القديم من « إيسلا ـ فاللي » (Isla - Valle)؟

ـ أجل، لكنّه قضى منذ زمنٍ بعيدٍ.

ـ قابلت ابنه، « سكونديــنو » (Secundino) في « فورموزا ». كان مريضاً جداً، فاعتنيت به. وقبل أن يموت، ذكر لي أين يوجد القبر..

ـ كان قبره هنا، ويذهب إلى الشيطان ليميت نفسه في العمل كأيّما

كادحٍ ؟ ـ يقاطعه « مانويل » (Manuel) ، وقد تملّكه الغضب إمّا بسبب غباء العامل الموسمي ، أو بسبب ترّهات العائد .

ـ إنك لا تدع لي فرصة حتى للكلام . طرحت عليه السؤال ذاته ، وكدت أضحك منه ، في حين كان هو يسلم الروح . ألا أنّه أفهمني عند ذاك أنهم حفروا مع العجوز في عدة أماكن ، دون أن يعثروا على شيءٍ ، ولكن لا بدّ لشخصٍ آخر يتمتّع بحظٍّ أوفر ، ولا يحول أحد دونه ، من أن ينبشه . وقد انتهى بي الأمر أن صدّقت ذلك لأنه كان قد مات فعلاً ، ولأنّ مسيحياً في تلك الحال لا يكذب من أجل أيّ شيءٍ في الدنيا .

« كان يرغب في ذكر المزيد ، إلاّ أن صوته غاب ، وكانت تنتشر منه رائحة كريهة أكثر من جثّةٍ ، لأنّ دمه كله كان فاسداً في الدّاخل . لهذا عدت يا « مانويل » (Manuel) ، لأجرّب حظّي . ومثلما تفيد الكلاب ممّا تخلّفه القطط وراءها ، أخذت أحفر مذ وصلت . إلاّ أنّ هناك مساحةً كبيرةً ، وأنا بحاجةٍ إلى شخصٍ أثق به . لهذا جئت باحثاً عنك .

ـ سوف نذهب غداً .

ـ كلاّ ، هذا المساء بلا تأخيرٍ . غرفت قدراً لا بأس به ، وقد يكتشف المكان . فمن المعروف أنَّ الرابية لا تزال تحتفظ بقدر وافٍ من المحفوظات من هذا النوع ... ـ تنغلق يد « ايلوجيو » (Eulogio) على كتف « مانويل » (Manuel) . سنصبح أغنياء ، يا « مانويل » (Manuel) ! لسوف يسقطون على أقفيتهم ، حين يرون جرارنا مليئة بقطع النقد والحاجات الجميلة . سنشتري حانة « دون نيكانور » (Don Nicanor) ونعمل شريكين . سنفتح دكاناً كذلك : وعلى هذا يمكنك أن تترك

منشرتك . . . » تكشف ضحكته أسنانه المسودّة من التّبغ ، في حين أن عينيه اللّتين لا تتحرّكان ، وتبقيان جادّتين ، تغترفان في موق العينين رغبة « مانويل » (Manuel) ، وتدفعانه رغماً عن إرادته .

يتّجه الإثنان نحو الرابية ، أحدهما ظالعاً ، والآخر بمشية مرنة ، متكّوراً كما لو كان تحت ثقل تلك الثروة المتلاحة ، والرّفاهية القادمة ، تلك الطمأنينة التي تغشاه كلّه ، حتى تذوب القامتان في واحدةٍ ، وتخلصان إلى التّلاشي في ظلال الغسق .

إلاّ أن « بترونيلا » (Petro Nila) لا تملك أن تعرف ، إنها لا تستطيع أن تقدّر ما الذي حدث « لمانويل » (Manuel) .

أخذت ترقب ، كما هي عادتها ، الدّرب التي لا بدّ أنه عائد منها إليها ، فيما هي تجهّز الماء في السطل بسرعة ، والمنشفة ، والقميص النّظيف الذي سوف تزررّه له بنفسها ، وهي تتلّكأ عند كل زرّ ، متكّئة آخر الأمر على صدره ، فيما أصابعه الدّبقة ، الفوّاحة برائحة الخشب تلتفّ على شعر ضفائرها الأسود ، التي يحبّ العبث بها . بل لقد قال لها أكثر من مرةٍ ، ليغيظها ، إنه يريد أن يموت مشغوفاً بإحدى ضفائرها . وهي التي كانت تجيبه ضاحكةً : « إنّ الحبل أحاط بعنقك وقُضي الأمر ، يا « مانويل » ، (Manuel) منذ أن تزوجتني . وأنا أيضاً أسلمت الروح . ولأننا ميّتان كلانا بالضبط ، ليس لنا أولاد » . في تلك المرة تهرّب منها « مانويل » (Manuel) ، وظلّ على استيائه منها طوال أيامٍ عديدةٍ .

إنها تعرف بدّقة اللّحظة التي اعتاد الظهور فيها عند منحنى الدّرب ، بالضبط بعد شجرة الخرّوب الكبرى ، القائمة تقريباً مقابل حانة « نيكانور

بمزيدٍ من الثقة كما لو أنها محميةً بهذه الرقيّة. إن شعلة الشمعة الصغيرة تدعو زوجها، تحميه بفوح هذا الدّهان اللّعابي ضدّ سلطان نساء « من شاكلة » « ماريا دومنغا »، (Maria Dominga)، التي تجتذب الرّجال والقيثارات تحت جنح سقفها.

أطفأت هبّة ريح الشّمعة على منحنى الجرن. و « بترونيلا » (Petro Nila) لا تدري لأنها خرجت للمرة المئة، لتذهب فتنظر إلى الدّرب وقد أفعم بالقمر. هيّأت لنفسها ببطءٍ، وبتمهّلٍ، منقوع « كوروبا »، من نسغ تلك النبتة ذات الأوراق الصغيرة، كنقاط المطر التي تفوح منها رائحة بقّ الأدغال، والتي كانت تنوّم جدّها كحطبةٍ في أسوأ فترات سهاده. أوَتْ « بترونيلا » (petro Nila) إلى فراشها في نحو منتصف الليل، بعد فترة طويلة من تلاشي الدّرب شيئا فشيئاً تحت بِلى نظراتها، المكدّرة هي ذاتها بالمنوّم البلديّ.

تبلّغها ضجّة، تمرق عبر النعاس الذي تحاول الخروج منه، في قلب هذا الدّغل اللّزج الذي ما إن تتناهض، حتى تغوص فيه أكثر فأكثر.

« ما... نويل...، قالت متلعثمة »، بصوتٍ ثقيلٍ.

ـ نعم...»، أجابها بصوتٍ خفيضٍ. ثمّة تعبٍ عظيمٍ، تعبٍ طويلٍ وقديم، شيء ما آتٍ، من موضعٍ جد بعيدٍ، في هذا اللهاث الحيواني اليائس، في هذا الصوت الخافت الصّافر. ولكن فيه كذلك جزعاً، وتعجّلاً يجعله يتعثّر في الظلمة.

« سأحضر... لك... العشاء...

ـ لا أريد الأكل...»

سكوت. يدع نفسه يسقط على السّرير. إنه يسبح في العرق. في غمرة نعاسها، نصف المقطوع، تتشبّث به « بترونيلا » (Petro Nila)، تداعبه آلياً في عتابٍ حنونٍ، ينبجس على مهلٍ مثل حشرجة، حيث الغريزة لا الرّأس، هي التي تعمل بلا ريبٍ، بنحوٍ غامضٍ. ولا بدّ أنها أحسّت أنّ جسد زوجها المتين، الرّطب، يتشبّث كذلك بها إلى الدّرجة التي تكاد تخنقها بين العلّيق الإسفنجي، حتى أنها لا تملك أن تنتزع نفسها، هذا الجسد الذي يناوشها بمداعباتٍ فظّةٍ وجازمة، تجعل النّسيج الجلدي للسرير يصرّ، وتجعلها تتوجّع، وهي تلوك اسمه حتى شهقة التّشنّج النهائي، وحتى صارت كالميتة إلى جانبه.

ولسوف يُبحث عن « مانويل » (Manuel) عبثاً في الصّباح، في كلّ الجهات. فلا أحد يدري أين هو، لم يقل لأحد إنه ذاهب. تبخّر كما يتبدّد الدّخان، وستروي « بترونيلا » (Petro Nila) أنها سمعته وهي في سدير « الكوروبا »، وأنها نامت في جواره حتى الفجر. « لا بد أنها قد حلمت » سيقول « بدرو أورويه » (Pedro Orué)، همساً، للآخرين، ألا إنّ هنالك في الحقيقة بقعة دم صغيرةٍ فوق الوسادة، كإمارة خلّفها وجه مخدوش، وأنه يمكن أن يرى على الأرض نثاراً من رمل الرابية الأحمر.

وما من أحد ـ حتى ولا معتادي التّقفي الذين وجدوا آثار رجلين، يظهر أنهما تشاجرا على أقصى حافّة كهف المنحدر، الذي يجهل الناس مقدار عمقه، والذين اكتشفوا من النظرة الأولى انّ الخطى المرتسمة بالرمل فوق أرضية المزرعة لم تتخلّف عن خفيّ « مانويل » (Manuel ـ يرغب في ذكر ما يفكّر فيه. حتى « بدرو اوريه »، (Pedro Orué)، الذي سيتوجب عليه الآن أن يبحث عن صاحبٍ جديدٍ لمنشرته، لن يجرؤ على مناقضتها، ولا على تثبيط همّتها بمجرّد شكوكٍ بسيطةٍ.

فعندها أن « مانــويــل » (Manuel) انطلــق هــو الآخــر إلى بلاد الله الواسعة ، ضمن نزوح العمّال المياومين. وهي لا تتوّصل إلى تفسير أسباب ذلك ، لأنها كانت تحسّه فرحاً بقربها. إلا أنّ كلّ شيءٍ يبدو غريباً لها ، منذ أن خسرت « مانويل » (Manuel) .

ولن يجرؤ أحد ، لا في ذاك الحين ولا فيما تلاه، على تسميم انتظار « بترونيلا » (petronila) العنيد ، فستصبح عيناها محترقتين ومتباعدتين أكثر فأكثر ، وخصوصاً عندما يقرّب ريحُ الشمال المنشـرة من موضعٍ جدّ قريبٍ من بيتها ، وستمضي بين فترةٍ وأخرى إلى المجـازة، عند « ماريا دومنغا » (Maria, Dominga) ، لتشحذ بعض أخبار زوجهـا مـن حـرّاس القطعان ، والجنود المسافرين العابرين ، وستمكث أخيراً ـ حين يستحيـل انتظارهـا اليـائس دون أن يـدري بها أحـد ، إلى ذاك الجنـون الهادىء والمجرّد الذي يرسّخها إلى الأبد في المستقبل ـ لتلازم « ماريا دومنغا » (Maria Dominga) ، مكرسةً وقتها معها لزبـائنهـا الرحّـل ، دونما أجـرٍ تتقاضاه ، سوى تلك الشائعـات الغـامضـة التي تحتمـل أمَلَهـا ، وشبـحَ « مانويل » (Manuel) وتذهب بها .

المبلّغ

جود ستيفان (فرنسا)

Jude Stéfan (France)

جود ستيفان: كاتب فرنسي محدث، ولد عام ١٩٣٦، ونشر مجموعاتٍ قصصيةٍ وشعريةٍ. قصصه متنوّعة، تتميّز بمستوياتٍ متباينةٍ في الفكرة، التحليل، البحث البسيكولوجي، ولئن بنى قصصه على أحداثٍ من واقع الحياة، أو أسّسها على أحداث غير معاشةٍ من بنات الخيال، وفيض الخاطر، فإنّها تظل تحمل لمسةً شعريةً في مستوى من الحنان، أو القسوة، حسب مقتضى الحال، تُستشفّ من خلفيات الأحداث.

متّ العديد من المرّات، ثم بعثت، ثم متّ وبعثت ـ دون أن يبقى في ذاكرتي، رغم ذلك، أثر من تلك الذّوات المؤقتة، بل صرت بالمقابل غير آبه كلياً بمصيري ـ إلى أن أمكنني آخر الأمر أن أمارس وظيفة أرضى عنها، مرهقةً بالتأكيد، لكنّها منزّهةً كلياً عن أيّ غرضٍ، هي وظيفة مأمورٍ مكلّفٍ تخصيصاً بالوفيات. وأنا منتظم، دقيق الألفاظ لا يعرف المسايرة حسب الطلب؛ لذا ما كان لهم إلاّ أن يثنوا على خدماتي. وعلى هذا، أوُفدت آنذاك إلى مدينة صغيرة، حيث باشرت عملي مذ وصلت مساءً ـ فكلمّا بكّر واحدنا في التخلّص من تلك الأمور، كان ذلك أفضل، إذ يتوجّب على المرء أن يعّجل في دفن حياته.

كان عليّ أن أقوم بعملي في شارع الأرامل، وهو شريان عريض للمواصلات، كانت تقطن فيه كما تشير التسمية أكثرية من الأرامل وأرباب المداخيل، بالإضافة إلى عدد من الأزواج الشباب وكثير من الأطفال. مضيت، على ذلك، لدى هبوط الليل إلى البيت الأول المقرر، في الرقم ١٩ على اليسار صعوداً، ضربت ضرباتٍ خفيفةً على الزجاج، مستعيناً بالدليل المطوي. وكان لباسي يمازج الظلمة الهابطة، فيما كنت

أنتظر. وتسلّقت الدرجتين المهترئتين، كما ألقي نظرةً من فوق السجف التي يتكهّن المرء بقذارتها، وإنها لم تستبدل منذ سنواتٍ، إلا أنني لم أكُ أميّز سوى كتلةٍ ما انفكت منوّرة عن يميني: طاولة ريفية. وظهر ألق على الجدار، آتٍ من الظل، فهبطت الدرجتين وانفتح الباب. تملكتني رائحة عفنة فيما كان يغلقه ـ وكان في الواقع هو الذي هبط ـ بعد أن وضع المصباح على الطاولة. حنيت رأسي: «لديّ ما أتحدّث به معك حول قضيةٍ خاصةٍ».

كان ينتظر بقية كلامي، مرفوع الوجه، متقبّضاً بلا ريبٍ بما اكتسب من تنبهٍ دقيقٍ عبر ممارسة مهنته كخيّاطٍ. لمحت كرسيّاً وأشرت إليه بالأصبع، سائلاً إيّاه بالنظر، وجلست وظهري إلى الجدار، ومرفقي مستند على الطاولة. نادى من جهة الظل صوت رفيع: «ليون!». ـ فمضى يقف عند أسفل السلم و: «ماذا؟ آتٍ. شخص جاء لشأن». (لم يكن قد تكهّن بعد بأي شيءٍ). عاد خبباً، واتّخذ مكاناً على كرسي، ملتفتاً بعض الالتفات ليواجهني، وأخرج قراباً من جيبه وقرص أنفه بنظّارةٍ. كان الآن يتفحصني، مطرق الوجه، كما لو أنه يدع لي الوقت لمباشرة اللعبة التي ستقودنا لأن نلتقي هنا كل ليلةٍ. قلت عند ذاك ممرّراً يدي التي ما انفكت في القفاز على شفتي: «يتعلق الأمر بقضيةٍ دقيقةٍ بعض الشيء...» وأخبرته، وقد جعلت جلستي أكثر راحةٍ، عن حلول الأجل بألفاظٍ واضحةٍ ومع ذلك غير متميزة بنحوٍ ما، لإقناعه بنعومةٍ بالأمر المحتوم الحزين: فالقضية ليست بذات بالٍ في الواقع، ويمكن للإنسان أن يعيش ثانيةً في آخر، فيما بعد، دون أن يدري حتى بذلك، مستعيداً بين الحين والآخر وبنحو مفاجىء ذكرياتٍ مبهمةً ومقلقةً. ـ بدل أن تنطلق كلمة خرقاء، (وغالباً ما برهنت لي التجربة على ذلك)،

لتوقّع الإنسان في أحابيل الشكّ، وتعيده إلى الأسوأ،: « ولكنّك تخيفني »! أو: « أو تعتقد أنني سأصدّقك »؟.

كان واضحاً للعيان أنّ الشخص إنسان بسيط، ولم أخطىء في ملاحظاتي السريعة، حين أبصرت به ظهراً، وقد اعتمر قبّعةً وطالت لحيته واندسّت يداه في جيوبه أمام باب بيته متبادلاً الكلام مع بعض المارة، ثم ماضياً لشراء زجاجةٍ من البقالية المجاورة. ورغم ذلك كنت أخشى أن يظهر، شأن غيره، انزعاجاً عديم الجدوى، أو يحاول المراوغة، أو يتضرّع، أو يقاوم ما ليس منه مهرب. أجاب فقط حين فرغت، وقد قلقت عيناه، وغلظ صوته:

« وزوجتي، ما الذي سيحل بها »؟.

كنت قد تأملّتها هي أيضاً، قصيرةً متكوّمةً على نفسها، ممسكةً بعنان كليبٍ صغيرٍ، فيما كانت ترافقه في نزهته اليومية، وهي متدثّرة بوشاحٍ غليظٍ. ما من ريبٍ في أنهما كانا زوجين سعيدين، يكتفيان بالقليل بسبب عوزهما، إلاّ أنهما راضيان بما كتب لهما.

وعاد يقول: « هل أنت متأكد؟.. »

ـ نعم.

ـ ولكن أما كنت تعرفني حتى الآن؟..

ـ وصلت لتوّي، وتعرّفت إليكما ظهراً. نزلت في الفندق، في أسفل الشارع.

ـ لكن ماذا إذا كان الأمر مجرّد حلمٍ؟... أو خطيئةٍ... قال ذلك وهو

يمرّر يده، كالمذهول، على اللحية القصيرة المشعّثة والوسخة التي تبيّض خدّيه.

قلت: كلا.

كنت قد تعودّت الآن الرائحة، فلا بد أنه البلاط الذي لم يغسل منذ زمنٍ طويلٍ. كان يستجدي تفسيراً، إلاّ أنه لم يكن في وسعي أن أبدأ من جديدٍ. فوقنا، كانت المرأة تسير بخطى قصيرةٍ، وكنت أتساءل أين هو الكلب؟ ولمَ لم ينبح لدى قدومي؟. ولرغبتي بالابتعاد قبل نزولها، غرزت عينيّ في عينيه، يجب أن يتم الأمر مستأذناً بالانصراف بقسوةٍ، ومهنّئاً النفس لاختياري تلك الساعة المناسبة، مستفيداً من تواطؤ الظل ـ فعلى هذا النحو سوف يمكنه أن يتم يومه بهدوء فلعلّ لها ابن يأتي لزيارتها مرة في السنة، يكاتبها. كان ذلك مصدر فرحةٍ أخيرةٍ لها بعد انفراط عقد الآخرين، وانتظار موزّع البريد والقراءة بصوتٍ عالٍ. كان المصباح يدخّن، وبما أنه لم يعد يفكر قط في ضبط فتيله، فقد فعلت ذلك عنه، ونزعت يدي من القفاز حتى لا أفسد الجوّ الهادىء المحيط بنا، الذي يثبت أنه ما من أمرٍ غريبٍ كان يحدث. ولامس ساقي شيء ما، لا ريب أنه الكلب هبط بلا ضجيجٍ. عند ذاك جعل ينبح بعد أن تشمّمني.

«قال العجوز: سأدعو زوجتي.

ـ لا، لا تفعل أبداً. ليس من الضروري أن تعلم».

نهضت، وبقي هو خافض الرأس، منحنياً على الطاولة، حيث كان القراب يلتمع في متناول اليد، دون أن يعير أي انتباهٍ إلى تفجرات الكلب. لم يكن سوى خياطٍ فقيرٍ اهترأت حياته، وتخربّت رئتاه، حلّ

مساء فتمدّد، لكي لا ينهض من بعد قط. لم يكن في وسعي أن أبادره: « ما من سرٍ مكنونٍ، يجب أن تقبل الأمر». فاكتفيت بوضع يدي بالنحـو المعتاد على كتفه:

ـ ليس الأمر بذي بالٍ، لا شيء بالمرّة.

ـ ولكن زوجتي، هي؟... هكذا، بغباءٍ... أما كان ثمة حاجةٍ لإبلاغي.

ـ بلى، قل إنه بسبب زوجتك...».

والتي كانت ما تنفك تمشي في الأعلى، أوشكت أن تنزل، وظلالها تحرّكت برهةً. فما بلغت، في الواقع، منتهى الشارع ـ وقد تصرّمت بضع دقائقٍ ـ حتى قرع ناقوس الموت في الساعة المحتومة. فلا بد أنه سقط هاوياً من الانفعال عند قدميّ زوجته. نظرت إلى ساعتي، وأخذت دفتري، وشطبت اسم: « غانديه » (Gandais).

على هذا المنوال، أتممت مهمتي، طوال فترةٍ دامت ثلاثة شهورٍ، تقريباً ذاهباً أول الأمر إلى بيت مدير أحد المصارف، في الرقم ٣٩، الذي كافح يائساً بالرغم من نصائحي في أن يستسلم للراحة، مستشيراً أخصائيين باهظي الكلفة، مستصرخاً أصدقاء له في جماعةٍ سريّةٍ ليهبّوا إلى مساعدته. ومن ثم نزلت الجادّة، من الجهة المزدوجة هذه المرة، في الرقم ١٤، لدى سيدةٍ عجوزٍ: دخلت بيتها ذات مساءٍ، (كما دخلت بيت الخياط الذي باتت نوافذه مغلقةً منذ فترةٍ). ودفعت بها إلى قبوها، فيما كانت تميل فوق سطل فحمٍ. مكثت على ذاك النحو طوال الليل، تحشرج فاقدة الوعي، إلى أن حضر أولادها صباح الأحد، وكانوا يقطنون

الريف، ويأتون ليمدّوها بما يقيم أودها مرةً في الأسبوع. والكهربائي في الرقم ١٧، كان يقيم مقابلها: توفي بحادثة عملٍ، حين فتحت العدّاد خفيةً وكان يظنه مغلقاً، فيما هو يصلح تيار الفندق، سقط هاوياً عن سلّمه.

ساد الذعر في الجوار. فذهب بعضهم في إجازات استجمامٍ، غير أنّ هؤلاء كانوا من الشباب الذين لم يكن الأمر يمسهم بشيءٍ. وزوجة الخياط، في الرقم ١٩، لم تعش من بعده سوى شهرين: وكانت قد حطّت الرحال في مستشفى، إذ لم تعد قادرةً على القيام وحدها بحاجاتها. على هذا لم يكن لي سوى أن أدع الحزن يفعل فعله - فبكت، وأبلت نفسها، وجفّت نهائياً. أجهزت كذلك بالسكتة، في الرقم ٣١، على مزارع ضخم اعتزل العمل، السيد «مارسيال» (Martial). فلم يتأسّ أحد قط على مصيره، على نقيض السابقين. كانت له ابنة دخلت سلك الدين، عادت بهذه المناسبة لرؤية الدنيا، وزوجة مخلصة كان قد اعتاد توبيخها. وأخيراً محوت بتصميمٍ من عداد الأحياء، واحداً بعد الآخر، كاتباً عجوزاً خرفاً فاق عمره كتبه، وكاهن خورنية كانت وظيفته الصلاة في موت أبناء رعيته، وطبيب اشتهر في الجوار بمقدرته على الإبراء - وتلك حالة أثارت أسف من بقي على قيد الحياة. فلما فرغت من تلك الميتات، لم تبق لي سوى واحدةٍ قبل مغادرتي الحي - لأن الولادات كانت تترى في أماكن أخرى، مما يهدّد التوازن الحيوي للمدينة.

توجهت هذه المرة إلى أسفل الشارع تقريباً، وكان له امتداد من جهة واحدةٍ يميناً، نجا من أثر حرب سابقةٍ في الرقم ٧. قرعت جرس بيتٍ ذي مظهرٍ بالٍ، رغم أن نبتات من زهر البغونية كانت تتنافر والواجهة المخططة. كانت الضحية قد أنذرت مؤخراً فيما كانت عائدةً من شراء

حاجياتها. فقد تملّكها دوار، فجعلت تترجّح في الطريق بحيث ـ وقد فاتتها فرصة التشبّث بالسياج القريب ـ أخذت تدور على نفسها مثل خذروفٍ، وسقطت بكلّ ثقلها على جنبها فوق إسفلت الطريق. فرفعها تجّار العربات وأحد زبائنه وأعاداها إلى بيتها. أجابتني هي نفسها، فاتحة الباب على ممرٍ تمتدّ به باحة صغيرة نحو الخارج، تظهر بعدها خضرة حديقة ـ وذلك كله ضمن منظر بهيجٍ. كان ثمة قطٌّ يتمسّح بساقيّ، فيما كنت أدخل مستعملاً التوريات المعتادة، وقد اجتذبني الضياء الذي تستحمّ به الساحة ذات الجدار المدهون مجدّداً بالأبيض. أدخلتني غرفة الطعام. من جانبيّ المفترق كانت نبتات خضراء تلقي أوراقها المتشققة، وعلى الطاولة اللامعة تبتسم حزمة زنبقٍ، وعلى الجدار لوحة لابنٍ قتل في حادث طائرة، وعلى جدار المدفئة صورة فوتوغرافية لبنتٍ صغيرةٍ لطيفةٍ، وفي الجانب الآخر من تمثالٍ صغيرٍ للربّة ديانا الصيادة، تمثال لموسيقيٍ ألمانيٍّ. لِمَ سجّلت تلك التفاصيل، في حين كان عليّ عادةً أن أغلق عينيّ دون أيّ شيء؟ على خزانة الصحون كانت ما تزال ترى، في أطرها المذهبة، وجوه مكبّرة لبعض الأجداد. وأخيراً، قرب الباب الذي ينفتح على الساحة المشمسة، قفص معلّق يزقزق فيه عصفوران.

ثمة أمورٍ أخرى حيّرتني أيضاً. ففيما كانت المرأة العجوز تكلّمني ـ وكانت تبدو وقد تآكلت من حامض البول، فالعينان مخمورتان بسمّ الأدوية، والوجه مصفرّ، أو منفوخ في مواضع بفعل البودرة التي كانت تكافح ضد الأذى ـ كانت تسمع أصداء بيانو آتيةً من غرفةٍ تؤدّي إلى الساحة، ضيقة، لكنها عميقة. خرج منها إذ ذاك كلب شائخ جاء يشمّمني، ثم تمدّد على السجّادة، وقد وضع قدماً فوق أخرى، علامة الانتظار الصابر. والقطّ الأسود الموشّح بالأبيض، اتخذ لنفسه بهدوء

مكاناً فوق أحد الكراسي الجلدية، وانشغل كلياً بتنظيف نفسه ـ والأمر المعتاد أن يكشفا أمري بسرعةٍ، فيهرب أحدهما وقد وقف شعره، وينبح الآخر. كانت المرأة العجوز قد سبقتني إلى الكلام. ودون أن تتوسّل إليّ، أخذت تروي قصةً وجودها بقوةٍ، متظاهرةً أنها ظنتني صديقاً قديماً لابنها، وأنها لم تعرف للتوّ من أكون. كانت ابنتها تعكف على الموسيقى منذ وفاة الأخ، وذهاب الأب الذي تركها «لتجديد شبابه». لفت نظرها إليّ أنها لم تعد تشاهد في المدينة إلاّ نادراً. (والواقع أنه لم تعطِ لي أيّ إشارةٍ إلى حياتها): كلاّ، إنها لم تعد تخرج قط. «أتريد رؤيتها؟» عرضت عليّ. نهضت بسرعةٍ، مؤكّداً أنّ ذلك بوجه خاصٍ يجب ألاّ يحدث. «إنها تحيا وكأنها ميتة»، تابعت كلامها وهي تحدجني عن قصدٍ.

في لحظة الوداع ـ وكان عليّ أن أعاود المجيء، وأن ألقي الحقيقة هذه المرة في وجهها، دون أن أستسلم للانذهال بكلامها المشوّش: فهي لا بد تعرف أنني أجوب تلك الأمكنة منذ بعض الوقت ـ أبصرت على الجدار، فوق صورة الطيّار ذي الشاربين الدقيقين، رأس كلبٍ مصغّراً، ومعلّقاً هناك، كلب يشبه ذاك الذي كان للمضيفة، مجعّد الشعر وبنّياً. فلما خرجت وقعت في حيرةٍ من أمري، إذ كنت في حاجةٍ إلى روح عاشرة. فالفتاة لن تعيش من بعد موتها كما أسمعتني أمها، وإنما هي نفسها ما كانت تعيش بعد ما حلّ بها من مصائب، إلاّ لتتفادى وقوعها في براثن اليأس المطلق. وعلى ذلك يمكن تركها لتنطفىء وحدها، كما فكّرت، فمرضها يوشك من جهةٍ ثانيةٍ أن يقصفها بقسوةٍ: فالحياة لذوي الصلابة، لا لذوي الأوجاع. مضيت على ذلك إلى بيت المبلّغ، ذاك الذي يذهب من بيتٍ إلى بيتٍ، ليخبر أهل المدينة بميتة الأمس، وبساعة الصلاة الجنائزية. أخبرته أنّ الناقوس لن يقرع مساءً، حسبما هو مقرّر. ـ ولمن

كان سيقرع؟ سألني من وراء زجاج نظارته المدخّن، وقد استبدّ به حبّ الاطلاع رغم الرفعة التي تمنحه إيّاها وظيفته. ـ لقد تأجل الأمر إلى فترةٍ لاحقةٍ، والواقع أنّ الأسى الخالص لم يدخل بعد البيت ذا الزهور والطيور، بل حلّ محله الحزن الذي سبّبه فقدان كلبٍ مسنٍ وأصمّ، لدى حلول الشتاء.

بعد تلك الحماقة الطفيفة، وخرقي وظيفتي، (على أنّ الحيوانات اليوم في الحقيقة، تبدو وقد حبيت بـ «النفس» الوهمية ذاتها التي يدّعيها البشر وحدهم، وقد خدعتهم لغتهم المنطوقة، فلديهم دفن، وصلوات، وأسف كما يكون الأسف تماماً)، تمّ نقلي إلى مدينة أخرى، وألحقت بفرعٍ مختلفٍ ـ لم يعد فرع الشيوخ، الميّسر نسبياً، بل هو أشدّ إيلاماً، فرع «الموت المفاجىء وغير المتوقّع»، الذي يختصّ بأشخاصٍ يتمتّعون بصحةٍ كاملةٍ وتقبض أرواحهم في حلاوة العمر. وعلى هذا، فمنذ صبيحة الغداة يتوجّب عليّ أن أنكبّ على العمل، فأروح أقرع بالسرّ باب واحدٍ ما من مواطني هذه الدنيا الفانية ـ قد يكون بابك أنت.

العصفور في ثوب صبية

ويللي سورنسن (الدانيمارك)

Willy Sorensen (Danemark)

★ ويللي سورنسن: ولد عام ١٩٣٩ في « كوبنهاغن »، ناقد لامع وحادّ، أثّر تأثيراً بالغاً في جيلٍ بتمامه، مؤلّف دراساتٍ فلسفيةٍ، أدبية سياسيةٍ، ووضع قصصاً فلسفية وفنتازية.

كنت جالسة إلى طاولة أمي، أقلّب كتباً مزينةً بالصّور، كانت الصّور تمثّل جميعها حيواناتٍ، فأتخيّل أنّ الحيوانات تنطق مثل البشر، وأتوق بحرارةٍ للحصول على كلبٍ، أتبادل الكلام معه، لأنني كنت بنتاً وحيدةً. غير أنّ أمي كانت تخاف الكلاب، وكلُّ ما حصلت عليه وعاء فيه سمك أحمر، ولم تكن الأسماك تتكلّم، لكنّ ذلك لا يعيقها عن فتح فمها، كما لو أنها راغبة فيه. وإذ كانت لا تبلغ أن تنطق، ولعلّ ذلك أيضاً بسبب البلل المحيط بها، فقد كانت عيناي تمتلئان دموعاً من شدّة تأمّلها. ومن ثمّ حصلت على عصفورٍ أصفر كله، ذي منقارٍ معقوفٍ: كان ينشد طول اليوم، وتعلمت الإنشاد مثله.

لكنه من جانبه لم يتعلّم قطّ أن ينشد مثلي. كانت الأغاني القديمة التي أغنيّها تدور حول حيواناتٍ، تنقلب إلى بشر حين تتلقّى قبلةً آدميةً، فكنت أمنح عصفوري قبلاتٍ كثيرةٍ، إلاّ أنه بمنقاره المعقوف عضّني بأنفي ورفض أن ينقلب إلى مخلوقٍ بشريٌّ.

وتوّجب عليّ من ثمّ أن أذهب إلى المدرسة، فوجدتني وسط أولادٍ أخر، وساءلت نفسي، لِمَ رغبت في قلب الحيوانات إلى أبناء آدم؟. فثمّة

منهم على هذا النحو ما يكفي. كنت أفهم لغتهم بنحوٍ أفضل وتعلّمت التّهجئة، وعلى طاولة أمي كنت أجلس وأقلّب أكداساً من الكتب، غير أنّ تلك الكتب لم تكن تزيّنها الصّور.

كان رفاق المدرسة يتمثّلون في خاطري كعصافير، وكانوا يزقزقون مثلهم، ومع ذلك لم أستطع، وأنا في صحبتهم الإنشاد، بمثل الفرح الذي كنت أنشد فيه حين كنت وحيدة فيما مضى مع عصفوري الأصفر. إذ لم أعد إلى تصوّري السابق بتحويلهم إلى بشر بمجرّد منحهم قبلةً، ما داموا هم كذلك أصلاً. ولم يعد شاغلي أن أمنحهم قبلاً.

في تلك الفترة خطر لي، أن الأولاد قد لا يكونون بشراً حقيقيين أيضاً، وأنني أنا نفسي لست واحدةً منهم. كنت أكبر، وأصابني وجع في الرّكب، فذاك هو النموّ، ولاحظت أنّ جلدي لم يعد يسعني. وحين كنت أنظر إلى نفسي في المرآة، أرى بالفعل أنني أكبر، لكنني ما عدت أتساءل عمّا يشبهني فإذا كان شخص ما مقابلي، كنت أرجو لو أقف أمامه، مثلما يقف المرء أمام مرآةٍ، فأعرف أفكاره، مثلما أعرف أفكاري بالتّمام. كنت دوماً أعرف المزيد من الكلمات، بل أعرف منها بلغاتٍ أجنبيةٍ، غير أنّ ذلك لا يعني أنني كنت أتكلم أكثر من السابق، ولعلّي ورثت هذا عن أمي، مع أنها لم تكن لي في الحقيقة غير أمٍّ بالتبنّي، وبالفعل كانت صامتةً على الدّوام.

علّموني في المدرسة أنّ البشر كانوا حيوانـاتٍ، وحينـذاك عـاودتني ذكرى أناشيدي القديمة. فسألت: ألَمْ تنقلب الحيوانات فيما مضى تحت تأثير قبلةٍ إلى مخلوقاتٍ بشريةٍ؟ فانفجر الجميع ضاحكين منّي، وكان الصبيان أشدّهم ضحكاً، بأصواتهم التي باتت تختلف منذ بعض الوقت

عمّا كانت عليه، حتى ليظن المرء أنهم على وشك أن يتحولوا جميعاً إلى ذئابٍ، وقد اكتفى الأستاذ بالابتسام، ولفظ بضع كلماتٍ لم أفهمها للتوّ، وبسبب ذلك لم يكن بمقدوري قطّ أن أنساها: « في ذلك الزمان، كان البشر يشفقون على حال الدّواب، لأنها لم تكن بشراً. والآن يشفق البشر أنفسهم على حالهم لأنهم ليسوا دواباً. هنا يكمن الفارق: إن الدابة يسعها أن تتشكّى لحالها، أمّا الإنسان فيسعه أن يشكو حال غيره ـ وحاله هو ».

منذ ذلك اليوم لاحقني الصبيان مادّين الألسن لي: « هلاّ أردت قبلةً صغيرةً لتصبحي مخلوقاً بشرياً »؟. كذا كانوا يصيحون وهم يحيطون بي كدائرةٍ، وأنا أخمش أيديهم حتى تُدْمى. وكانوا يصيحون: « إنها قطّة متوحّشة »!. وحيثما كنت، كانوا يركضون خلفي ويتحلّقون حولي مردّدين: « كيس كيس... ميس، مس.. » ـ لأنهم تعلموا أن كلمة قبلةٍ تُلفظ كيس في لغةٍ أخرى.

كان أحد أولئك الصبيان يُدعى حنّا ـ الذئب، لأنه كان أقوى من الآخرين، ولهذا السبب كان يخيفني كذلك أكثر منهم. فقد كنت أحسّه على الدّوام ورائي. وحين كان الآخرون يلاحقونني بصيحاتهم « كيس، ميس.. »، كان يطردهم، فصوته كان أقوى من أصواتهم، ويسيطر عليهم جميعاً. ومع هذا لم يكن يوجه إليّ الكلام قطّ. وحين كنت أغادر المدرسة وأعود إلى البيت، كان يعود هو الآخر، وإذ يبلغ المدخل، يتوقّف ويمكث هناك يراقبني، فيما أنا أجلس إلى طاولتي وأنظر إلى الخارج، لأنّ أمي بالتبنّي لم تكن تسمح لي في تلك السن بالخروج. وفيما بعد، حين كان الليل يرخي سدوله، وبما أنّ نظر أمي كان يخفّ، كنت أخرج مع ذلك ونبقى هناك، نحن الإثنين، كلّ في جانبنا من المدخل،

دونما كلمة ننطق بها ، وكنت أستشعر الإحساس نفسه الذي كان يخالجني ، حين كنت أنظر إلى نفسي في المرآة ، وأحلم بذاك الذي سأعرف أفكاره بمقدار ما أعرف أفكاري . ومع هذا ، كان ثمة فارق : فلم تعد لي حاجة للتفكر في نفسي ، ما دام هو يفعل ذلك . لذا كنت أفكّر فيه هو . إلاّ أنه لم يكن من الممكن أن نبقى دوماً صامتين هنالك ، رغم أنّ ذلك كان مفضلاً ، فيرغب دائماً بأن يقول شيئاً ما ، إلا أنّه كان ينسى ، إذ يغادر المدرسة ، كيف يتدبّر ليتكلم فتخرج من فمه أصوات غريبة . كنت أعود مسرعةً ، ولكن رغم أن الوقت كان ليلاً ، إلاّ أنني لا أبلغ أن أنام وأتابع سماعه ، وأتابع رؤيته متسكّعاً في ضوء القمر ، دون أن أعلم إن كان ذلك لحمايتي ضد كل أنواع الأخطار ، أم سهراً منه عليّ حتى لا أغادر البيت .

هكذا تتابعت الليالي ، وكان يعلم أنّ أمي بالتبنّي راغبة في أن أترك البيت ، لأذهب وأعيش في بيتٍ آخر . وُلدتِ من بيضة طيرٍ ـ كانت تقول لي ـ آن الأوان لتغادري العشّ » . ولم أك أنشغل بتلك الكلمات ، ولكن حين توجّب عليّ أن أرحل ، دعوت حنّا ـ الذئب . إلا أنه كان ـ في غضون ذلك ـ قد نام ولم يتوقّف عن إرسال بعض النّخير في نومه .

لم أمضِ للعيش في بيتٍ آخر ، لأن البيوت كانت نادرةً ، فوجدتني أنتقل إلى دكّان للزهور . هنالك كنت أبيع زنابق وورودا ً، ويدفعون لي أجري زهوراً ، ولكن لمن أعطيها ؟ وهنالك في أعلى غرفتي في السقيفة ، كان الجوّ مثقلاً بعطر الورود الحمراء . وكنت أسير في النهار كما أسير في الضباب ، ولا أبلغ أن أنام في الليل حتى تصفّر الورود في ضوء القمر .

كان هنالك فتى يأتي الدّكان كل يومٍ فيشتري طاقاتٍ ضخمةً ، فإذا صدّقنا لباسه مع ذلك قلنا إنه لم يكن سوى ساعٍ بسيط في فندق . كان

سلوكه عصبياً بنحو مستغرب، وحين كنت أدير ظهري لربط الزهور، أراه في المرآة مائلاً فوق المكتب، فأتصوّر بشيء من الغرور، أنه يفعل ذلك ليراني بنحو أفضل. إلى أن حلّ يوم اكتشفت فيه أن ما يطمع فيه هو درج الصندوق للحصول على المال الذي يدفع به قيمة الزهور. لم أتظاهر بشيء، وقلت في نفسي: ما من ريب في أنه يعرف شخصاً ما يقدم إليه هذه الطاقات. إلاّ أن تاجر الزهور استدعاني، وهدّدني بالطّرد لأنّ المال ينقص في الصندوق، فلما عاد الفتى، قلت له: إنه لم يعد لي حق في بيعه أي شيء، أمّا إذا صعد مساءً إلى سقيفتي، فيسعني أن أعطيه زهوراً، لأن الهواء في غرفتي أصبح خانقاً أكثر فأكثر. وصعد، لكنه لم يرغب في قبول الزهور، كان عصبياً جداً، ويكاد يغمى عليه. وروى لي بصوته الغريب الذي يشبه صوت طير الشاهين، أنه إنما جاء الدكّان بسببي أنا، وأن هناك زنابق ووروداً كثيرةً في المكان الذي يقطن فيه.

صعد ليراني كلّ مساء، محدّثاً إياي عن الطقس الجميل، وعن المطر، وما عدت أبالي بصوته الذي يشبه صوت الشاهين، ولا بعينيه المنقّبتين، وذات مساء جلب خاتمين من الفضة، ورغب في إعطائي أحدهما. كان يرغب في أن يحملني على أجنحةٍ، فهنالك حيث يقطن تنبت زنابق وورود. وكانت تكفيني ورودي الذابلة، وكنت شديدة الإصفرار في ضوء القمر، فقبلت خاتمه، لكنّ يدينا ارتجفتا بقوةٍ، بحيث سقط الخاتم أرضاً. وفي الغداة جاءتنا ابنة الصائغ لتقول لنا أن ننتبه، لأن خاتمين فضيين قد اختفيا من متجر الحليّ. وقد حمل إليّ في المساء مجوهراتٍ من الذّهب والفضة، إلاّ أنني قلت له: إنـك سـارق، فـاغـرورقـت عينـاه بالدّموع، وبكى إلى أن صار صوته في غاية النعومة، وجعل يقول: ما إن يرى أشياء تلمع حتى يفقد المقاومة، فيندفع إلى أخذها، تلك كانت

طبيعته، وهو تعيس جداً وأنا وحدي يسعني مساعدته على إخفاء مختلساته، واكتشاف كل ما ينطوي عليه من طيبةٍ، فجعلت أقبّل البدلة التي يرتديها، ومنحني أول قبلةٍ في حياتي الفتية، لكنني لم ألحظ التحوّل الذي حلمت به: فلم أصبح بسبب ذلك مخلوقاً بشرياً حقيقياً، كما لم يصبح هو كذلك من جهةٍ أخرى، لأنهم حين طرقوا بابي وانفتح فاسحاً المجال لدخول رجالٍ بلباس الشرطة، تسلّق نافذتي، وهوذا، كالعصفور قد طار. ولم يقدّم لي أيّ عونٍ، وكانت الحليّ تلمع في ضوء القمر، فوضعوني في القفص كما لو كنت عصفوراً.

فلما خرجت منه، مضيت إلى تاجر الحليّ لأقسم له على براءتي، ولكنني فوجئت به هناك، بصحبة ابنة الصائغ، وقد مال برأسه خلف المكتب. فعدت أدراجي، وعلى طول طريقي، فوق كلّ المداخن، كانت قد حطّت عقاعق كبيرة، وهي تحكّ أذيالها متفاخرةً، وتضحك بأصواتها التي تشبه أصوات الشاهين.

حينذاك، قفلت عائدةً إلى بيت أمي بالتبنّي، وقد أفعمت أفكاراً سوداء، وتمنيّت رؤية حنّا ـ الذئب مجدّداً، لمجرّد أن أسأله بأن يمزّق أوصال ساعيّ. لكنني لم أقع إلاّ على أمي بالتبنّي، وكانت قد هرمت، مثلي، وشاخت إلى الدرجة التي تحتاج فيها إلى عونٍ. قالت لي: «أي بنيّتي، أردت لك أن تغادري هذا البيت حتى لا تتشبّهي بي، وليكون لك أولاد حقيقيون من البشر. ومع ذلك كنت أتمنّى مخلصةً أن تعيشي حياةً أخرى تختلف عن حياتي، لأنني التقطتك بغية أن أحبّ فيك مصابي الشخصي، وكنت أعرف أنك سوف تعودين».

كان صوت أمي بالتّبني من الآن فصاعداً أبحّ مثل صوت الغراب،

ولم يكن لكلام الناس أبداً مثل هذا الرّجع في أذنيّ. عند ذاك فهمت أنّ البشر يجبرون على الكلام لفهم بعضهم البعض بعد فوات الأوان. كنت أحب الآن التزام الصمت، وأذهب بذاكرتي إلى أسماك طفولتي التي كانت تتظاهر فقط بمعرفة النطق، وأفكّر أيضاً بجنا ـ الذئب الذي لم يكن بمقدوره أن يلفظ كلمةً واحدةً، ويكتفي بإرسال أصواتٍ غريبةٍ. لم أعد أقول لأمي بالتّبني كلمةً واحدةً، كما كانت هي ساكتة فيما مضى. فأنا أعرف أنني لو أردت التّحدث معها، فسأكون مجبرةً على توجيه أقوالٍ خبيثةٍ لها، وكنت أتأسّى لها بسبب شراستها. خلال النّهار، لم يكن بمقدوري مغادرتها، فلا أخرج إلاّ ليلاً، في عتمة الحديقة، لكنني حيثما سرت خشخشت الأوراق الميّتة، فكنت أسلك الطرقات الهادئة، حيث تلتمع المصابيح أكثر من ضوء القمر، وهنالك أيضاً سمعت همساً خلفي، وقد حزرت من يكون على ضوء المصابيح، إلاّ أنني لم أرغب في رؤيته، لأنني كنت أحتقر ما في هذا الإنسان من شيءٍ زاحفٍ. ومع ذلك، تركت الباب مواربًا لأنني سوف أصبح عمّا قريب في سنٍ متقدمةٍ، أكثر مما يجب لكي أكون شابةً. وفيما هو يصفر، مال فوقي وطبع قبلةً على شفّتي النديتين والباردتين، وكاد يخنقني، والتفّ من حول صدري، وعضّني في أسفل البطن، وحينذاك صرخت مثلما تمنّيت دوماً أن أفعل، صرخةً وحشيةً، صرخة دابةٍ، فيما لعابه يسيل فوقي، والغثيان يبعث النّتن في فمي. فلمّا عدت إلى نفسي، كان قد مضى زاحفاً. في تلك الليلة ماتت أمي بالتبنّي، ولعلها ماتت رعباً وهي تسمع صراخي.

كنت أجلس وحيدةً، إلى طاولة أمي بالتبنّي، أنظر إلى أحواض الماء بأسماكها، والمعاشب بثعابينها، وأقفاص الزجاج بفئرانها التي تصئي. لم أعد أغادر الحديقة أبداً، فهي تغلق ما إن يهبط الليل، وتضاء المصابيح،

وفي أماسي الصيف، كنت أمكث جالسة خلف السياج، أصغي إلى الدواب التي تمرّ خبباً. لم تعد بي حاجة لمنح قبلةٍ إلى رجلٍ، لأعرف ما يكون شكله الحيواني، وحين مرّ حنّا ـ الذئب فيما بعد ـ ولعلّ ذلك بدافعٍ من ذكرياتٍ قديمةٍ ـ رأيته وقد تغطّى جسمه كلّه بالشعر، دابّاً على أربعٍ، لأن أخريات غيري طبعن قبلةً على خطمه. فطرت إلى أعلى شجرة الزيزفون، وهناك بكيت، ولكن ليس بالصوت العالي مثلما كنت أصيح أيام حداثتي، لأنني كنت قد تعلّمت كيف أتمالك نفسي. فما عتّم أن هرب، وسمعته يزمجر مبتعداً أكثر فأكثر، وفي تلك الليلة الصيفية بكاملها، بقيت في الزيزفون أتجشأ بقايا فئراني.

رباط

ميهاي شيكشو (المجر)

Mihai Chikcho (Hongrie)

★ ميهاي شيكشو : ولد عام ١٩٣٣ ، ودرس الأدب في بودابست ، كاتب ، باحث ، ناقد ، ورئيس تحرير مجلةٍ ذات صفةٍ عقائديةٍ واجتماعيةٍ ، يعتبر من أرباب الثقافة الواسعة ، ومن المهتمّين بنحوٍ خاصٍ بالأدب الأنغلوسكسوني ، يتميّز بنبرةٍ حديثة ، وذهنيةٍ ، وتعبيرٍ مفاجىء عن مشاعر وعواطف معاشةٍ .

ما إنْ تواريتِ خلف الباب، حتى استدرتُ، فهبطت السّلالم، واشتريت زجاجة كونياكٍ من المخزن المقابل.

أمّا أنتِ، ففي خلال تلك الوهلة، كنت قد وُسدت على سريرٍ مدّ عليه غطاء مطاطي، وحلقوا شعرك، وأعطوك حقنةً منظفةً أفرغت أمعاءك، وأخذت تنتظرين استعداداً للبدء، في قميصٍ كتانيٍّ جد فضفاضٍ عليك.

في ذاك اليوم، الرابع من حزيران، يوم سبتٍ، الساعة التاسعة والنصف صباحاً، والطقس حار نسبة للموسم، سألتُ طبيبكَ، صديقي، ما إذا كانت الأمور تسير على ما يرام، فأجاب وقد كان يتسلّى بـ «مجلة الشطرنج»، عن عمومية سؤالي إجابةً عامةً، أنكِ احتملت حَملك بصورةٍ حسنةٍ جداً.

ما كاد أحدنا يرى الآخر، حتى كنتِ قد حملت، وفيما خلا تنانيرك التي ضاقت عليك، فلم يُغمَّ عليك أبداً، ولا كان التعب يتغشّاك بأسرع مما اعتدت، وكنت تهيّئين لي القهوة، وتتزيّنين، وتمكثين واقفةً مثلي حتى

الساعة الثانية من الصباح، وننام في السرير ذاته، وفي الصباح توقظينني، فيما أنتِ تقومين بحركاتك الرياضية.

على ذلك، قبّلت طبيبك، صديقي، متمنياً له حظاً سعيداً، ولنا كذلك، ثم هبطت السلالم، وأخذت تاكسي، وفي البيت فتحت زجاجة البراندي، ذقته، وجلست قريباً من الهاتف.

لم يجرِ شيء، أخذت دوشاً، وجلست بالمايو إلى جانب الهاتف الأخرس، ولم يحدث شيء. أدرت الرقم، فأجابني صوت نسائي اعتاد أن يكون موضوعياً، أنِ الولادة لم تبدأ بعد.

شربت قدحي الثاني من الكونياك، وكانت شقتنا آنذاك معرّضة لشمس الظهيرة، فكل ركنٍ كان إذن غارقاً آنذاك بالضياء، ذرعت غرفتينا الصغرتين سائراً في كل اتجاهٍ، ونصبت سرير الوليد في الموضع المقرّر.

كانت تتملّكني الرغبة في أن يتوسّده ولدنا، إذ كنت أعلم أنه سوف يرسّخ عرى حياتنا المشتركة، إلاّ أني كنت أعلم أنه سوف يفسد نهديك، وأن صراخه المفاجىء سيزعجنا خلال تبادلنا الحبّ.

قال لي الصوت النسائي الذي اعتاد أن يكون موضوعياً، وهو يخفي نفاد صبره! إنّ الأمور ستطول، وعليّ ألاّ أقلق، وما من شيء غريبٍ يحدث (هذا ما قالته، هذا ما بلغ علمها، بنحوٍ غير صحيحٍ، لكن بوضوح). فتناولت طعام غدائي خبزاً وجبناً، وشربت قدحي الرابع من الكونياك، ووضعت الهاتف عند قمة السرير، والطقس جد حار.

أيقظني الهاتف ووخزُ الضمير في الوقت ذاته، فلعلّي أكون قد قصّرت

في أمرٍ من الأمور، كانت تلك المرأة أمي، (كانت آنذاك عجوزاً في الرابعة والستين، وتوفيت بعد خمس سنواتٍ بسرطان المعدة)، على بعد حوالي سبعة وعشرين كيلو متراً بخط طيران العصفور، وكانت تنتظر حفيدها بتلهّف.

كانت الظلمة قد بدأت تحلّ، فطلبت المستشفى، وهذه المرة خرج لي طبيبك على الطرف الآخر من الخطّ، وكان يفترض أن يكون مع عائلته في العطلة منذ يومين، وهو مهما حدث سيذهب في الغداة، يوم أحد، إلى «البالاتون»، ويرجوني الآن بعصبيةٍ، (في سمّاعتي وفي أذني)، أن ألتزم الهدوء، فالأمور تجري مجراها، واذا لم يبدأ الوضع الساعة الثامنة والنصف، فسيثقب الأغشية، ولا حاجة لمجيئي.

بدأت للحال أستشعر الخوف الشديد، فلبست من فوري قميصاً نظيفاً، وطلبت سيارة أجرةٍ، ومضيت للقائك، (استدرت مرتين على العتبة نصف دورةٍ، إذ وقع في ظني أني سمعت الهاتف يرنّ).

في قاعة العمل، وأنت على سريرك المسطح، كنت قد زرقت حقنتين محرضتين، وكنت تعدّين نبضاتك، (كانوا قد صادروا منك ساعتك، وسوارك، وسلسلتك حتى لا تضايقك في عملك)، لتري كل خمس دقائق متى ستظهر الآلام التي كانت تعاودك كل عشر دقائق، وكنتِ قد رفعت بلا جدوى شعرك الذي كان قد بلله التوقّع.

كانت قد تقضّت تسع ساعاتٍ، وأنت تستمعين إلى العويل الموقع واللامنتظم المنسرب من قاعة التوليد المجاورة، وكانت تتملّكك الرغبة والرعشة للانتقال إليها، فيما كانت الممرّضة ـ المولّدة تحيك بالصنّارة.

غطاءً صغيراً أصفر مربعاً، ليوضع تحت جهاز التلفزيون أو الراديو، اللّهم إلاّ إذا كان مهيّأً لمسند رأس في مقعدٍ، (حتى لا يوسخه الضيوف)، وهي تلقي عليك نظرةً وتتثاءب، أنتِ التي بسببك يمتنع عليها حتى الانصراف للالتقاء بزوجها، أو عشيقها مساء يوم سبتٍ.

صعدت الدرج، (وكنت أسمع خلال ذلك رنين الهاتف هناك، في البيت)، قالت لي رئيسة الممرضات: إنه لم يحدث شيء بعد، إلاّ أنهم سيبادرون فوراً إلى تحريض الوضع، أعطيتها خمسين فورنت بالتمام، قطعة عشرين أولاً، وقطعة عشرة، ثم بسوء تصرّفٍ وتسرّعٍ، وفيما أنا يضايقني ضيقي، وجدت قطعة عشرين أخرى، فاذا وضعت امرأتي، أخبريني، وسأكون في المدخل.

في المواجهة، ورغم الظلام، رأيت سيارة أبيك، وكان يجلس أمام المقود والنور مطفأ، فقبّل أحدنا الآخر عبر الباب المنزل زجاجه، ولم يسألني أيّ شيءٍ، وقلت له: إنني ذاهب لاحتساء قهوةٍ، ولم أجلس، فشربت القهوة وظهري إلى الدكّة، وعيناي متجهتان نحو مدخل المستشفى، ومن فوري شربت فنجاناً آخر، وعدت إلى أمام مدخل المستشفى، فرأيت لفافة أبيك في السيارة المظلمة، ورأى هو أيضاً لفافتي بكلّ تأكيدٍ.

خلال ذلك، لم يعد طبيبك ينتظر المزيد، فثقب الأغشية بمقصّه المستدير، وخطر لك أنّ عويلك هو الذي ستسمعه الأخريات، ولم تعد بك حاجة لأن تعدّي نبضاتك.

نقلوك من ثمّ، من قاعة العمل إلى قاعة التوليد، وما كنت تفكرين

بشيء، لأنك كنت قد قضيت أربع عشرة ساعةً مستلقيةً على ظهرك، والطقس حار، ولم تتناولي أيّ طعامٍ، وفقدتِ ماءً كثيراً لم يسمح لك بتعويضه.

عندما توقفت الممرضة المساعدة عند العتبة متطلّعة حولها، علمت أنني أنا الذي تبحث عنه، فقفزت السلالم. كانت تلك هي السنة الثالثة التي نعيش فيها معاً، ومن الصباح إلى الصباح لم يكن قد تعب أحدنا من الآخر، أمّا الآن..

تحت الغطاء، ثمة جسد متعب من العمل الذي استكمل، مخلوق جميل بنحو عام، لكن عينيه الآن محتقنتان بالدّم، مع خطّين غائرين في لحم الوجه الرّخو في كلّ من طرفي الأنف المدبّب الحادّ. لم تكوني تعرفين سوى شيءٍ واحدٍ، هو أنّ الأمر انتهى، فاستدرت على جنبك لتنامي، ومضيت أرى ولدي.

كتلة لحمٍ منتزعةٍ من غطائها الحروري، بلغتْ الهواء الطّلق، وثمة عينان برّاقتان وضريرتان، ومواء بلا غايةٍ، ولا هدف خلف حاجز الزجاج.

الأب في الجانب الآخر من الزجاج.

سعيد، فخور، مسرور؟

مرتاح، لأن هذا النهار بلغ أيضاً نهايته، نهاي مثمرة، ويسعه أن يعود إلى بيته، ويشرب ما تبقّى من الكحول المقرّر ليومه، ويغوص في النوم، أمّا عودة زوجته وابنه إلى البيت فأمر ما ينفكّ بعيداً.

عدت إلى البيت، سمعت أخبار منتصف الليل، شربت باقي

الكونياك، ما يقارب القدح ونصفه، ابتلعت مضاداً للتعصيب مع ماء غازي كثيرٍ، حتى لا أصاب الغداة بوجع الرأس، طلبت المنبّه الهاتفي لأتمكن من الذهاب في وقتٍ مبكرٍ.

صعدت وفي يدي باقة من قرنفل أبيض وأحمر مضمومٍ بعنايةٍ، لأرى الأم الشابة التي كانت قد استغرقت في نومٍ هادىءٍ ليلها بطوله، وقد أعطت ثديها لابنها، وكانت قد نهضت لتقضي حاجتها في نهاية الممرّ، وتزيّنت، وتهيأت لتلقي قبلات العرفان من الزوج، الأب، ورحنا معاً نشاهد ابننا خلف زجاجة.

هذه الشفّة السفلى التي تشبه شفتيك، وهذا المشبك الأنفي المقولب على أنفك، ميراث الجدّين، والأسلاف الذين لا يحصرهم عدّ، هذه الدلائل التي لا تخيّب لديمومة الحياة.

ثمة ظل من ازرقاقٍ يتلامح على الوجه المخملي، فوق جلد ابني الأول المولود من صلب امرأتي الأولى، كما لو أني لم أر قط ما يشبه ذلك من قبل.

اليوم الأحد، في الصبيحة الباكرة، والطقس حار، وطبيبك، صديقي، قد وصل «البالاتون».

أعتذر من الطبيب الداخلي المناوب، إلاّ أنّ وجه ولدي، ابني، مزرقّ، فيقولون لي إنّ عليّ ألاّ أبالغ في الأمور، فأسأله أن يعذر عدم اختصاصي، غير أنّ لون الصبي لا يعجبني، فيقول إنه سيذهب ليرى، وإنّ عليّ أن أقوم بتطويف زوجتي على الشرفة.

هنالك مقعد وقمم الأشجار على خطٍّ مستقيمٍ تحت شمس حزيران،

وذراعي فوق كتفيك، وعلى شفتك السفلى أثر عضة أسنانك العلوية، وآثار معركة الأمس، لكن هي ذي منذ الآن شريطة بيضاء في شعرك، وأصابعي تفتّت مئزر المستشفى الذي ترتدين، علامات صامتة لتحاببنا.

الطبيب الداخلي عند الباب البلّوري المفتوح، فقد حان وقت عودة الأم الشابة إلى سريرها.

إن الطفل أزرق بما لا يدع مجالاً للشك، ـ يقول الطبيب ـ الذي هو أكثر شباباً مني: ـ أنا لست مؤهلاً لاتخاذ قرار، ويستحسن أن يراه مختص.

سألته: «بسرعة؟»، وأنا أحسب المسافة التي يمكنك أن تسمعي منها، فقال: «بسرعة»، وهو يدير نظره.

كادت الظهيرة تحلّ، وكنت تتلقّين الشمس، وأنت ملتفتة لنحو النافذة، وتنتظرين ابنك، إلاّ أنني جئت وحدي جاهداً لأقول، إنّ شيئاً ما يتعثّر في الطريقة التي يبلع بها ابنك، وإنه لن يتناول غداءه قربك، وإنه سيتفادى ما فاته في ساعة العصر.

وأنت اذ ذاك سألت: أهو أزرق؟

إنه أزرق، أجبت بعد تحيّر قصير لأنني كنت أعلم أنك تعلمين، ولأنه كان في وسع المرء أن يأمل أن تكوني على قدرٍ من الشجاعة.

ارتديتِ مئزر المستشفى وعدنا إلى المقعد، مع قمم الأشجار على خطٍ مستقيمٍ، وضعت الكريم على وجهك، وقد قاربت الظهيرة وزايلتنا الرغبة في تناول الغذاء فمكثنا جالسين على المقعد، وقد رغب الاختصاصي

بالتحدث إليّ.

التحدّث إلى الأب، رئيس العائلة، فهو الذي يقرّر، هو الأقوى.

هذا الاختصاصي في القيظ اللاّهب من ظهيرة هذا الأحد، بقميصٍ أبيض، وربطة عنقٍ سوداء بالصنّارة، والزّر الأوسط من بزّته الوبرية الرّمادية مربوط، هو شاب أيضاً في مثل سني تقريباً قد قطّب جبينه. فليس من سبب للقلق، ويشير لون وجه المولود إلى علّةٍ ولاديّةٍ في القلب، ويستحسن نقله إلى مستوصفٍ مختصٍ، ويجب تهدئة الأم.

قلتِ لك عند ذاك: إنني سأرافق الصغير إلى المستوصف، وإنّ هذا قد يستغرق يوماً أو إثنين، الفترة اللازمة لتخليص رئتيه من المفرزات التي توضّعت فيهما خلال الوضع، والتي تسبّب ازرقاق الوجه، حتى إني لم تكن بي حاجة كبيرة لتهدئتك، اذ خلّفتْ أظافرك على ذراعي شجّاً دامياً إلى أن غادرتك.

ومن بعد، صعدت إلى سيارة أجرةٍ على المقعد الخلفي، (كانت الساعة تقارب الواحدة والربع)، وإلى جانبي ممرضة - مساعدة شابة، وفي حضنها الصغيرُ ملفوفاً بقماطه.

كنت أنظر إلى ابني على طول المسار، لأرى ما اذا كان وجهه حقّاً أزرق، وفي حال الإيجاب، (فمن واجبي أن أرضخ لحكم الواقع)، ما الذي يمثله هذا اللّون الأزرق، بالنسبة لكِ، أنتِ التي لم تكوني معه، وبالنسبة لي، أنا الموجود هنا، وبالنسبة له، هو الذي لم يكن له سوى معنى، بغير ما إدراكٍ بعد.

جعل ابني يتعرّق، حباتٍ دقاق كثيفة من العرق ملأت البشرة

الزرقاء للوجه.

عند ذاك أخذت أنا أيضاً أتعرّق، وكنتُ قد بلّلتني الريب عندما توقف التاكسي، (في الساعة الثانية إلا ربعاً تقريباً)، أمـام مستـوصـف الأطفال. رافقت الممرضة ـ المساعدة التي كانت تحمل ابني بين ذراعيها إلى قسم الإسعاف، وهناك سلّمتُ ممرضة المستوصف الرزمة، وشكرت للممرضة المساعدة وما تحملته من نصـب، ومنحتهـا خمسين فـورنـت، إضافةً إلى أجرة التاكسي ذهاباً واياباً.

أمليت الإجابات لاستمارة الدخول عبر كوّةٍ صغيرةٍ، ومن بعد كان عليّ أن أنتظر.

كنت جالساً على جانبٍ من مقعدٍ طويلٍ، وحيداً في قسم الإسعاف، والتلفزيون يذيع بصوتٍ خفيضٍ مسابقة العابٍ، وقد أذِن المقدّم للاعبين أن ينزعوا ستراتهم، وتوجّـب عليّ أن أنتظر طويلاً، وكانوا قد حقنوك جرعةً مزدوجةً من مادةٍ منوّمة، وكنت أجهد باحثاً عن إجاباتٍ لأسئلة المسابقة، عندما دخل دكتور «غولد شميث»، (Gold Shmith) ونظر من حوله.

لـم يكن بالإمكان إلاّ أن أكون أنا من يبحث عنه، فقدّمت نفسي، ونظر في عينيّ عبر نظارتيه المطوّقتين بالمعدن، إنه يميل إلى الظن، بعد أن قام بالفحوص الأولى، أن ابني جاء إلى الدنيا مع علّةٍ عضويةٍ، اذ يمكن سماع ضربات قلبه على سطح الصدر كله، الأمر الذي يفترض إذن أنه ليس هنالك غشاء بين الأذين والبطين، ومن المسلّم به أن الفحص المتعمّق يمكن أن يعدّل تلك الفرضية، ويتوجّب ابقاء ابني آنياً في المستوصف.

هذا ما قاله دكتور « غولد شميث » تقريباً ، فيما هو يحاول أن يتحدث بنحوٍ مفهومٍ حتى أمام شخصٍ غير متفقهٍ ، إلا أن كل ما فهمته هو أن الأمور تسير بنحوٍ سيّء ، وفكرت بدءاً من تلك اللحظة بما سوف أقول لك .

من حسن الطّالع أنه أمكنك أن تنامي أربع عشرة ساعةً ، فلما استيقظت ، قلت لك : إن ابننا تحت رقابة أطبّاء ممتازين ، مهنئاً النفس في أعماقي ، أنك لم تسمعي دكتور « غولد شميث » ، وهو يتلفظ بتشخيصه المقتضب . لأنني في وقتٍ مبكّرٍ من صبيحة الغداة ، في الطابق الثالث من مستوصف شارع « فرسو » ، حدجني دكتور « شميث » في العينين عبر نظّارتيه ، (لم يكن آنذاك من شخصٍ ما ينفكّ يضع تلك النظارات المستديرة المطوقة بالمعدن ، أو أنه لم يضعها أحد بعد) . إن الفحوص التفصيلية أكّدت فرضيته ، فقد ولد ابني ببطينٍ مفتوح ، وفي مجرى دمه يختلط الدم الطازج المحمّل بالأوكسجين بالدم المستهلك باستمرار ، وإن حالة ابني تتطلب إشرافاً منتظماً ، وسئلت أن أرسل ثلاث مراتٍ في اليوم كميةً من حليب الأم الطازج إلى المستوصف .

انكببت على العمل بذلك .

بدأت بطلب إجازةٍ ، بالهاتف ، اذ لم تكن لي رغبة بالإجابة عن اسئلة زملائي ، وهي تكشف إشفاقهم أو تتستّر عليه .

ثم إني فككت سرير الوليد الذي سبق لي أن جهزته في البيت ، وأخفيت قطعه في خزانة المحافظ في شقتنا آنذاك (فوق المدخل) ، وحشوت كسوة الوليد التي اشتريناها في الخزانة ، تحت قمصاني .

وذهبت ثالثاً، لقبض معونة الولادة، غير أني لم أنفقها كما كان مقرّراً على شراء الكسوة، بل لتغطية رحلات التاكسي المتتالية في الأيام التالية.

بعد أن فعلت هذا كله فقد جسرت على التفكير بكِ، وبعودتك إلى البيت، ونظرتك الدائرية الأولى في الشقة، والطريقة التي سيستمرّ بها كلّ منّا، معاً أو منفصلين، أو يقدر بها على الاستمرار.

في اليوم الرابع، كان ابننا يحيا عندما عدت بكِ إلى المنزل، ولعدة أيامٍ أخرى.

خلال تلك الحال التي لا تصدّق والتي يتمكّن المرء من أن يعتادها، كنت أنت تجمعين حليبك ثلاث مرات في اليوم بجهاز حصيف من المطاط والزجاج، وتضعين الرضاعة في كيسٍ من البلاستيك، وأنا أمتطي الترام آخذاً طريقي.

وتمضي الأيام، فيأتيني دكتور «غولد شميث» ويشدّ على يدي، مهيئاً إيايّ للأسوأ قائلاً: إن البطين المفتوح يفسح المجال أحياناً بالعيش عدّة سنينٍ، إلاّ أنّ احتمال أن يذهب ابننا بعيداً احتمال ضعيف، ويقول دكتور «غولد شميث» إن مزيج الدم الطازج والمستهلك يبطىء من سيرورة الحياة يوماً بعد يوم، إلى أن تتوقف سيرورة الحياة، يقول ذلك وهو يحدجني عبر نظّارتيه المطوّقتين بالمعدن.

كان الطقس في ذلك المساء قائظاً جداً، وظلّك على الجدار، وفي ذاكرتي التي لا تستطيع ولا تريد أن تنسى.

امرأة شابة عقيم على بلاط المطبخ الأسود والأبيض، أثناء الليل في مجمع «لاجيهانيوش» السكني الكبير، بإحدى عواصم الرّيف، في نهاية الستينات.

هي أمّ لا تزال تخاف من آثار جهدها الخائب، بطنها المرخي، ثدييها المنفوخين، تعرّق من الجبهة إلى الحوض، وتصرخ بمزقٍ من كلماتٍ.

أضعك في السرير، أغسلك باسفنجةٍ.

وفي الغداة، تحيط بسرير ولدنا صقائل وأجهزة، بما يوحي اليّ بانطباعةٍ مستحيلةٍ، (وتبدّلِ الحال بنحوٍ فاضحٍ)، أنّ فريقاً من التلفزيون يرغب في تصوير القاعة، وفي الوسط منها سرير ابني.

قضبان حديدية، أمبيقات من زجاج، أسلاك معدنية، آنية متصلة، سائل متلألىء يجري، ذاك أنّ ابني يرفض حليب الأم منذ ثلاثة أيامٍ، وأنبوبان رفيعان مطاطيان يخرجان من أنفه، (هل لي أن أتجرّأ فأتذكر انطباعتي الأولى: كان ذلك يشبه لقاطة شواربٍ مضحكةٍ)، ويصلانه بقناني الأوكسجين وباللوحة.

فألحني فوقه، وبي رغبة في أن أثبت العناصر المرتبطة بنا، المتروكة لمصيرها، المخلّدة عندي، والعارضة عند الآخرين طرّاً.

ثمة جذر الأنف الذي كان يشبه مثيله عندي، ويستنشق منذ الآن هواءً اصطناعياً، والعينان اللوزيتان اللتان كانتا تشبهان عينيك، وقد باتتا مغمضتين أكثر الوقت، والغضون الثلاثة الدقيقة في الرقبة فوق قبة قميص المولود، وارتعاشة أصابعه (جذور وردةٍ، عظيمات فرخ دجاج؟).

انحنيت فوق الجسد الصغير، فتنشقت عبق المولود، خليطة رائحة حليب الأم، والمفرزات، وتعقيم أغطية سرير المستشفى. ولم يكن حينئذٍ هو الذي يتنفس.

ألحفت عليّ لنحمل معاً في اليوم التالي آخر قدَرٍ، غير ذي نفعٍ، من

الحليب الأمومي إلى شارع « فرسو » ، ومن حسن الطالع أن أوقفتـ
المرضة في الممرّ ، ومن حسن الطالع أنني دخلت القاعة .

قضبان الحديد المختفية ، السرير بغير أغطيةٍ ، مكان ابني الفارغ ،
مفقود .

النظارتان المطوقتان بالمعدن ، الصوت الموضوعي ، ودكتور « غـو
شميث » يقول : صدّق أن ذلك أفضل له .

كنت أرغب حقاً في تصديقه ، إلاّ أنني كنت هنالك ، في فقدان
وعبثاً كنت أتشمّم من حولي متعقباً رائحة ابني الذي بات عدماً .

أخذت يدك ، لم تسألي شيئاً ، لم أجب بشيء ، رأسي برأسك المنكـ
على مدى الجدران المقشّرة . في المدخل جعلت تبكين ، فأخذتك
ذراعيّ ، وازداد بكاؤك أكثر فأكثر ، وأنا أضمّك أكثر فأكثر ، وقـ
الجادّة متعثّرين متجاوزين الخطّ المتتابع .

امرأة شابة تمرّر أصابع مجنونةٍ في شعرها المحلول ، وصدرُها قاسٍ
صلابة الشلل ، تترنّح على قدميها من الداخل .

ورجل في الحداد ، تأخذه الرّعدة ، ويحيط زوجته بذراعيه الطويلتيـ

أعمى يقود امرأةً ماتت منها العينان ، وثـمَّة من سارع في اللحظـ
المناسبة ، حتى لا نسقط تحت الترام ، وجدّه صمتنا الأبكم .

وجدت كرسيّين من خشب الصفصاف الأحمر في الطرف الآخر
الجادّة ، وعلى حين غرةٍ عاودني النطق ، ولم أكن أستشعر الخسارة ا
أحاقت بي أنا نفسي ، بل كان همّي الأكبر أن أملأ فراغك ، ومذ طلبـ

إحضار القهوة، لم أعد أتوقف عن الكلام.

قلت: إن ما حدث فاجعةٌ تتّصل بالدقائق الحاضرة، وإننا إما راجعنا التفكير بها غداً، بعد أسبوع، بعد سنةٍ، فلسوف نسترجع ذكرى اختفاء مخلوقٍ بلا شعور، بلا إحساسٍ، لم يتوجّع، وجعلتْ منه الصدفة ولدنا الأول، وقضى في سن أحد عشر يوماً.

وقلت: إنه قد مضى، وإننا لنحن باقيان، مستمرّان في الوجود، وشابّان نسبياً، واننا قادران، ونحن جنباً إلى جنبٍ، أن ننجب ذريةً أخرى قادرة حتماً على العيش.

وقلت: إننا محظوظان، اذ إن عدد الوشائج التي تصلنا بالعالم في المواقف الحرجة هو المعوّل عليه، وهو الذي يقرّر كل شيء، وإن وشيجتك أنت، ووشيجتي على قدرٍ كافٍ من التفرّع، وموت ولدنا الأول ليس نهايةً، بل بداية جديدةً.

وقلت أخيراً كدسةً من العموميات، عموميات مقنعة نسبياً فوق ذلك، وكنتُ جالساً إلى جانبك، أكلّمك، وشربتِ قهوتك، وامتطينا الترام، وفي البيت وضعتك في السرير.

كنت تنامين كثيراً حقاً، وتعتنين بجسمك المتعطّل، واذا أنت تأخرت عن وضع الكمادات، كان الحليب غير المفيد يتجاوز قميصك.

وددت لو كنت قادراً على النفاذ تحت جلدك كيما أرقبك على الدوام، فقد كنت أخاف عليك من أجلك، رغم معرفتي بكِ، كنت أخشى اندفاعاتٍ غريزيةً مجهولةً، فأنبش محفظة يدك، أقلّب أدراجك، أدخل

فجأةً حجرة الاستحمام، وكنت قد ذهبت لشراء الخبز، فلما عدتُ كنتِ منطرحةً على أرضية الخشب، ووجهك على الأرض. استجوبتك.

تلك كانت علينا أشد فترة استمرّت ساعة ونصف الساعة، فلا أنت تردّين، ولا أنا بقادر على معرفة ما اذا كنتِ فعلت شيئاً ما، فأرقب حدقتيك، وأداعب جبينك، وأرطّبك. على مدى ساعةٍ ونصف الساعة حيوانان يتحاوران، الأنثى، أضعف، وتئنّ بصوت من الرأس، والذكر (ظاهرياً) أقوى، يهدّئها بصوتٍ من الحلق.

وفي اليوم الأخير،
وقد تلاشى قيظ شهر حزيران اللاّهب، كنّا نحثّ الخطى تحت مظلتينا،

خلف عربة مقبرة «فركشرت»، في القفص الزجاجي المقترب من الهدف ضمن علبة سيجار، فَشَلٌ - استمراريتنا، البقايا الرمزية لحياتنا المشتركة، خلف العربة السوداء الموحّدة الشكل، شخصان في الحداد الموحّد الشكل، وعلبة السيجار في رفّها، مصطفة بين علبٍ أخرى، في مستودع رماد الموتى، مع الأحرف المذهبة، وتاج السعف... آخذ ذراعك فتتوكئين عليّ.

وانطلاقاً من تلك اللحظة، يصبح كلّ شيءٍ في غاية البساطة.

أنتِ بلغتِ لتوّك الرابعة والعشرين من عمرك، وأنا مقبل على الخامسة والثلاثين، ولن يكون في وسع هذا أن ينسينا، لو أننا شئنا أن ننسى.

يسعنا أن نفعل أيّ شيءٍ.

لسوف نحيا سنين طويلةً جنباً إلى جنبٍ، معاً، ونحن نحسب على جبينينا، على وركينا، في عموميات محاوراتنا، تقدّم الآخر في العمر.

في وسعك أن تفعلي أيّ شيء، أن تشربي نبيذاً أكثر مما يجب، أن تروي بصوتٍ أعلى ممّا يجب حياتنا الصميمة، أن تعودي في وقتٍ متأخرٍ أكثر مما يجب، أن تذهبي في عطلةٍ بدوني، أن تتنقّلي.

وفي وسعي أن أفعل ما أشاء، فأطلب من صديقتك أن تمثّل دور الشخص الثالث في بيتنا، أو أتركُك فجأة في مواقف مقلقة، أو أذهب فألتقي بـ «جنيفر» في لندن.

يسعنا أن نفعل أيّ شيء، أن يبرهن واحدنا للآخر عن كنهه، متحرّراً أحدنا من الآخر، مبتعداً أحدنا عن الآخر، باستطاعتنا أن نحيا منفصلين، أن أصفعك على الوجه، ويمكنك أن تخمشيني تحت العينين، ونعود أحدُنا للآخر.

نريد أن نكون معاً، إننا معاً.
نسير، منفصلين، مجتمعين، جنباً إلى جنبٍ، مع طريقٍ أمامنا، وطريقٍ وراءنا، نقترب من القبر، (الذي لم يحتفر بعد)، إلا أننا لا ننسى.

تلك الأيام الأحد عشر، القيظ، المطر، مقبض سياج الدرج، تكتكة عدادات التكسيات، الانتظار القلق قبل النوم وبعد اليقظة.

أما وقد كنتِ إيّايَ وكنتُ إياكِ، أنّ كتلتين من الخلايا اكتشفت

إحداهما الأخرى بنحوٍ متبادلٍ في حضورٍ، وفي اختفاء ثالثةٍ ولدت منهما، فما تقدران على النسيان، حتى لو رغبتا في النسيان.

هذا الضياء الحزيراني، والعرق المتلألىء فوق شفتيك، على جبهة ولدنا الميّت، تحت ابطي النبات الصائر في المقبرة، فرحنا، ألمنا الزائلين.

برغم ممّا حدث، وفي توقّع ما سيحدث، سنبقى سويةً ما دامت لم تخمد لنا ذاكرة، تحفظ الماضي وتطلب البقية.

السلام في بلغاريا

ويللي كيركلوند (فنلندا)

Willy Kyrklund (Finlande)

★ ويللي كيركلوند: ولد عام ١٩٢١ في « هلسنكي ». نشر روايات قصيرة، ومجموعات قصصية، ووصف أسفار ومسرحيات.

عندما جاشت الكراهية في نفس « باصيل » حامل اللّقب المجيد « باصيل ذبّاح البلغار »، بمقدارٍ كافٍ من الشدّة على مدى عدد كافٍ من السنين، أسلمه الربّ جيش البلغار برمّته. فجعلت النواقيس تقرع فوق أسطحة القسطنطينية جميعاً، ومن الكنائس كلها ترتفع تراتيل العرفان، ويتصاعد البخور في السماء الزرقاء، وريح الجنوب تذهب بالبخور إلى ما فوق « القرن الذهبي »، باتجاه « بيرا » (pera) بحمد الله تعالى!.

وكان أن سمل عيون الجميع! غير أنه ترك لرجلٍ من مائة عيناً واحدةً، بحيث يقدر ذاك على قيادة الآخرين إلى منازلهم.

فسار البلغار يداً بيدٍ، باتّجاه الغرب، بطوابير مديدة لا نهاية لها. سلسلةً طويلةً، طويلةً، تتعرّج كالأفاعي فوق الجبال العارية، وعلى رأس كل سلسلةٍ يسير الرجل المائة، ذاك الذي احتفظ بعينٍ واحدةٍ مفتوحةٍ. كان الجميع يمضون محنيّ الرّقاب، فلمّا انفتحت ممرات الجبال أمامهم ودنت منهم بلادهم، خذلتهم قواهم عن رفع الرأس.

كانت نسوتهم ينتظرن في المنازل. فخلال تلك السنين الطويلة، وعلى

قدر ما يسع ذاكرتهن أن تضرب صعداً في الأجيال، كان قدرهن أن يحلبن الماعز، وينفخن في الرّماد، في انتظار الرّجال. فلمّا بدأت طوابير الجنود العميان التي لا نهاية لها تجتاز القرى، فهمّتْ النسوة أنهم عادوا كلّهم، وأنها عودة لا رجعة بعدها.

في ذلك اليوم أعطت الماعز خلاًّ وانطفأت النار وسط الرماد. والشيوخ الذين مكثوا في البيوت بسبب سنّهم المتقدمة، سقطوا مرضى من غمّ وغيظٍ، ثم قضوا نحبهم. غير أن الشباب كانوا أعظم قوةٍ، فما كان لهم أن يموتوا. إنّ أجساد المحاربين المفتولة العضلات، المتصلّبة، ما كان لها أن تموت من جرحٍ بسيطٍ تحت الجبين. فلما استعاد الشباب قواهم، انتزعوا أنفسهم من جلود الماعز، أخذ التلّهف يتصاعد في أعضائهم، مثلما يتصاعد النسغ بالشجر في فصل الربيع.

اجتمعوا في مجلس القرية ليتناقشوا فيما بينهم، لكنّ تلك الجلسة اتخذت مجرىً مضطرباً واختتمت في البلبلة، فاجتمعوا في الحانة ليتضاربوا، فسارت الأمور سيراً أفضل. كانت الضربات تضيع في الأغلب، لكنها توجع عندما تصيب. ولدى انبثاق الفجر، كان الرجال يعودون إلى منازلهم متلمّسين طريقهم بالسيف بمثابة عصا الأعمى، وفي غضون ذلك يمكث كثيرون في مواضعهم على شفا الموت. كان في ذلك عزاء وراحة.

غير أنه لم يكن بمقدور الرجال أن يفهموا ما جرى حقّاً. فعن الحرب مع بيزنطة، كانت الأمور كالفصول، تتقلّب مثل الربيع والخريف. كانت تسير مسارها، مثلما الجليدُ في الشتاء، وفي الصيف الحرُّ اللاّهب. ولكن هي ذي الأمور الآن قد مضت وانقضت. فبلغاريا مغلوبة على أمرها، بلغاريا القوية المتوحّشة مسحوقة. حدثت أعمال همجية غزيرة،

واندفاعات رجولية، لكنّ الأمبراطور وضع لذاك حدّاً. فارتجّ على ذلك كلّه بمفتاحه الصغير المحمّر، وأنه لأمر يعسر على الفهم.

كانت النسوة يفكّرن بسرعةٍ أكبر بقليلٍ. فبلغاريا مسحوقة، والروم قد فازوا، والحرب المستمرّة تبلغ غايتها! كان ثمّة عمالقة، مشدودةً عضلات سيقانهم يهيمون على وجوههم في شوارع القرى، شراذم عاجزة، حينذاك، فيما بين النساء، كانت تلتهب في عمق العيون المائلة، العيون التترية، نار خفيفة. كنّ يهررن كالقططِ، ويمشينّ إلى الرجال فيسحبنهم من اللّحية. ويبتعدن من ثمّ وهنّ يهززن أردافهنّ.

هكذا في بلغاريا الغمّ، كانت تُسمع من أحواض الغسيل، ومن الينابيع ثرثرة النسوة وضحكاتهن الرّنانة. وقد انتزع بعضهن أسلحة الرّجال، حتى إذا هم ذهبوا إلى الحانة لا يبقر أحدهم بطن الآخر بعض الشيء. وجعل بعضهنّ يحملن السيف على جنبٍ، لكن أولئك كنّ شرساتٍ، عسيرات المراس، نسوة بلا رحمةٍ. كان قد حلّ آخر الأمر الزمن الذي لم تعد فيه للنسوة ذوات العين الحادّة والجسد الودود حاجة لتحمل ضربات الأزواج، إذا لم تكن لهنّ فيها رغبة.

وخلال ذلك كان الأعمى يستحيل مغنّياً، بالطبع، هكذا كان الأمر دوماً، لأنّ العمى يحسّن الصوت، بعض الشيء على أقل تقدير. ولكنّ مثل هذا العدد الكبير من الرجال العميان، هل يمكنهم أن يشكّلوا جوقةً؟ امتنع الرجال عن مناقشة هذا الأمر. كان السقوط عقيماً، ولم يكن في المقدور محو المذلة، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لأولئك الرجال.

كانت جوقة المنشدين خارقةً، رائعةٍ. فالرجال يتدرّبون في ساحة

القرية، ويتوفّر لهم متّسع من الوقت. كانوا ينشدون حتى لتتطاير الفضلات على طول الدروب، والمنازل تهتزّ، ويترجّع الصدى فيما بين الجبال البلغارية. غير أنها ما كانت تهويمات أطفالٍ. كانوا ينشدون هزيمة جيش الروم عبر الاستعراضات، والبطون المبقورة لجند الأعداء، وهم يمسكون أحشاءهم بكلتا اليدين. كان الرجال ينشدون للجيش اليوناني النائم في قعر النهر حيث النسوة ينهلن الماء، ويغسلن الثياب، كانوا ينشدون قباب القسطنطينية والطريق المؤدّية إليها، واليونانيون الذين يلتقونهم على الدّرب وما ينتظرهم من مصيرٍ وما يُهيّأ من مصيرٍ لنسوة أولئك اليونانيين.

كانت النسوة يصخن السمع مفتوناتٍ، وما من ريب في أنهنّ سمعن أنّات الشيوخ، وسمعن أنغام العود الذي يُضرب على اوتاره. لكن هؤلاء كانوا رجالاً! فلما لم يعد ثمة متسعٍ في القرية للمنشدين، توجّهوا إلى الحقول. فتبعتهم النسوة، وأمسكن عن حلب الماعز. ها قد حلّ الآن أوان التسلية. كان نوع من الطيش يشيع، فحين ينشد الرجال، تصفّق النسوة بالأيدي.

أبداً لم يخطر ببال النسوة أن يوماً كذاك سيحلّ، يقف فيه الرجال أنفسهم فقط على تسليتهن وإمتاعهنّ، تلك الجوقة الوسيعة كلّها، من دمٍ وأعصاب، وهي تتمايل وسط الحقول.. لم يكن لها من همٍّ سوى أن ترفّه عنهن، هنّ النساء، نعم، الغناء لهنّ، وإمتاعهنّ بلحظاتٍ طيّبةٍ.

وكان الرجال يبدون تعطّشا كبيراً للحظات الطيّبة، فما كان يشغلهم أمر سواها، ولا يفكّرون بغيرها. حتى إذا حظوا بساق امرأةٍ فحسب، أو

بذراعٍ ، أو بأصبعٍ ، كان يظهر للعيان أنه لم يكن ينقصهم شيء. ولا تذكر النسوة أن قد سبق لهنّ أبداً أن سُري عنهن بمقدار ذلك.

كانت الجوقة تحتلّ وسط الحقول. ويترنّح الرجال على إيقاع الموسيقى، وقد انعقد منهم تشكيل مغلق، استدارت فيه الظهور نحو الداخل وبين الواحد والآخر مسافة ذراعٍ. وعلى المدار كله تحوم النساء كالهررة، شحذ قابليتها طبق طعامٍ ما ينفكّ يغلي. فهنّ يمددن بحذرٍ إصبعاً، ثم ما يلبثن أن يسحبنه.

فلما جعلت رياح الربيع تصفر في الدغل، وتمايل زهر شقائق النعمان في الحقول أحمر قانياً، في ذلك الحين بدأت الجوقة تعاني عسراً بالتجمّع في الوقت المطلوب. فيحدث أن يتمّ التجمّع صباحاً جماعاتٍ صغيرة متناثرةً، وفي ساعة الغداء يقرّر أصحاب الأصوات الجهيرة الإضراب، وبعد الظهر يذهب المطرب ذو الصوت الأعلى إلى الحانة. لكنّ الأناشيد الرائعة كانت تستمر الليل بطوله، وتمتدّ، ولا تتوقف، فكانت النسوة يمكثن يقظاتٍ الوقت كلّه، وبخاصةٍ الصبايا اللواتي يجافيهنّ النوم العميق. هكذا كان الرجال كالديكة المستثارة التي تضرب بأجنحتها في منتصف الليل، وبأعلى حنجرتها تصيح، فكلّ دجاج الحظيرة يعود فيفتح العيون.

أمّا الصبايا من النساء، أولئك اللواتي يجفوهن النوم، فينطلقن إلى الحقول المجاورة للقرية. كنّ يمددن إصبعاً، يمددن يداً، وكانت الشرسات يلاحقنهنّ بسيوفهنّ، غير أنّ ذاك كان يجري في الليل البهيم، فتدوس الأقدام قدراً كبيراً من زهر شقائق النعمان.

وفيما بعض النساء بدأن يتساءلن إلى أين المصير، مع هذا السلام؟ لم

تكن لديهن تجربةٌ سابقةٌ في هذا المجال، فكيف لهنّ أن يعرفن أيّ إجراءاتٍ تتخذ؟ وكان الرجال بغير ما إحساسٍ بالمسؤولية إطلاقاً، فما يصغون عندما يتوجّه إليهم أحد بكلامٍ. كان يأسهم بعد الهزيمة عظيماً جداً. فما يبلغون أن يتعزّوا منه بشيءٍ، وأن يتلاءموا معه.

جاء من القسطنطينية في أعقاب السلام حشد من الباعة الجوّالين يعرضون بضاعتهم، وهي على الأغلب حوائج برّاقة ومنتجات نفيسة، كما تحبّها النساء. وقد اشترت النسوة حاجاتٍ لم تبلغ علم الرجال إلاّ فيما بعد.

« ما هذا الذي يحيط بساعدك؟

ـ ايه ليس سوى سوار من الماسٍ، عرضها الرومي بسعرٍ بخسٍ.

ـ وما هذا الذي في شعرك؟

ـ ايه، ليس سوى مشطٍ من ذهبٍ. اشتريته لأتحلّى به لك.

ـ وما هذا الذي يحيط بعنقك؟

ـ قلادة عليها أربعة حروفٍ روميةٍ تعني: « ليس كلّ ما عدا ذلك سوى رمادٍ ».

ـ أربعة حروفٍ يونانيةٍ تعني: « ليس الباقي سوى رمادٍ »؟.

ـ ذاك ما قاله التاجر ».

كانت الزوجة تطلب من الزوج أن يسامحها لهذا الإسراف المفرط، واعدةً أنها لن تعود إليه. ولكن بما أنّ الزوج كان يشكّ في أنّ زوجته حصلت على مجوهرات أخرى تخفيها عنه، فقد أخذ على عاتقه أن يبحث عنها في كلّ جزءٍ من جسدها. كان يبحث بحميّةٍ فوجد ما وجد.

واستمرت النسوة يتزينّ بكلّ صنفٍ من بضائع القسطنطينية الرديئة.

أساور، أمشاط، مشابك، تحمل هذه الكتابة: إيروس [1].

كانت الصبايا في ليالي الصيف يمضين إلى الحقول، وكان ذاك شهر القيظ الشديد. فالهواء عليل غير أنّ الأرض ما انفكّت حارة. كانت الحجارة تحترق، ويظل التراب ساخناً حتى الصباح.

وعلى ذلك فقد حدث ما كان متوقّعاً أن يحدث، فبطون النسوة بدأت تتضخّم، وانصبّ اهتمام النسوة فجأةً على شؤون أخرى. بتن حذراتٍ، متخوّفاتٍ ببطونهن الضخمة من الاصطدام بأحدٍ ما، وما هي إلاّ فترة حتى صرن أثقل من أن يجدن الجرأة على النهوض ليلاً والتوجّه إلى الحقول. وفي كلّ حالٍ كان الخريف يقترب.

غضب الرجال بالطبع غضبةً شديدةً من سلوك النساء، ولكن لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً. كانوا يتزاحمون في الحانة، بعضهم لصق ببعضٍ، وكان الثلج خلال ذلك يتساقط. وفي تلك الفترة ابتُدعت أناشيد جديدة، كانت تتحدّث عن الزهد وعن تجارب الحياة.

وفي الربيع وُلد الأولاد. كانوا جميعاً من الصبيان، وجعلوا يرضعون حليب الأمهات، ويترعرعون في ظلّ عنايتهنّ الدائمة. حتى إذا آن الأوان، فلسوف يشرعون سيوفهم، ويعاودون الحرب. ذاك أنّ بلغاريا لم تكن قد سحقت بعد، ولم ينتهِ كلّ شيء. كانت النسوة يتشممن جماجم المواليد، حيث تنبض الحياة تحت الغشاوة الرقيقة.

(١) الإسم اليوناني لإله الحب.

رسائل

ميكلوش فاموش (المجر)

Mikloche Vamouche (Hongrie)

* ميكلوش فاموش: كاتب مجري شاب، ولد عام ١٩٥٠، ظهر بنحوٍ عاصفٍ في أجواء الآداب المجرية في الستينات، نشر أولى قصصه ولما يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، واعتبر على الفور من أفضل ذوي المواهب الجديدة. بذل نشاطاً نقدياً، وأصدر مجموعاتٍ قصصيةٍ، تتّصف برؤيةٍ فظّة، وساخرةٍ للعالم مع ميلٍ هازلٍ لكشف عيوب ونقائص الحياة اليومية للنّاس.

أتيين. (Etienne) - يجب عليك قطعاً أن تكون هنا مساء هذا اليوم، فالسيد « بيلاّ » (Bella) يأتي للعشاء. وقد أصبت في المرة الفائتة بخزي شديدٍ، لأنك لم تفعل سوى أن مددت رأسك من الباب، لتلقي التحية وتمضي في الحال. قل كذلك « لماري » (Marie) رجاءً، أن تكون هناك. وتذكّر أن تذهب إلى الحليب.

قبلات. ماما.

صغيري « أتيين ». - ستجد غداءك على الطبّاخ. تذكّر وأنت تسخّن نصيبك من البطاطا أن تقلبها حتى لا تحترق. اكتب أيضاً وظائفك.

مامي

إذا فشلتِ مرةً أخرى، لن أوقّع جلاءك. ستقدمينه لأبيك الذي سيعاقبك. « ماربيت » (Marcette)، كلفتني ماما أن أخبرك بألاّ تخرجي هذا المساء، لأنّ السيد « بيلا » سوف يحضر. أنا آسف لأنّ عندي حصة تدريب. اعتذري لي لديها. وبعد، اذهبي إلى الحليب، كوني لطيفةً!

« أتيين »

أتيين». ـ حضرت، إلاّ أنّك كنت قد خرجت، رغم وعدك. إذا كنت تتوهّم أنني سأتوسّل إليك راكعة، فأنت تحشر إصبعك في عينك.

تلفن لي حتماً صباح غدٍ، وإلاّ، فتلك نهاية ما بيننا.

«سوزان»

مررت بدكّان الألبان، لكن لم يكن قد بقي حليب.

«ماري»

هيأت فواتيركم، تفضّلوا بدفع الأجرة لي. انقضى العاشر من الشهر! لا تنسوا قسط المصعد!

البوابة

«أتيين». اذا عدت قبل الساعة العاشرة، أيقظني، لأنّ لديّ ما أتحدث به معك. إنك تسخر منّا، فيما أظن! ولا تقيم وزناً لأيّ شيء. (وفوق هذا عاد أبوك متأخراً ساعة ونصفاً). أنت لا تشارك بشيء في حياة العائلة. لا أعرف ما تأخذه على السيد «بيلا»، مع أنه لم يرتكب قط معك أيّ إساءة.

كعاته، جلب معه ثانيةً هدايا لنا جميعاً. وضعت هديتك فوق منصة سريرك.

قبلات. ماما.

ماما ـ. عدت لتوّي، والساعة تجاوزت الحادية عشرة. أيقظيني الساعة السادسة والربع كحدٍّ أقصى، فما زال عليّ أن أدرس الفيزياء. شكراً للشوكولا، كانت رائعة.

«اتيين».

« ماري ». ـ عليك أن تشتري :

٢ كيلو بطاطا ،

١٠٠ غ. زبدة ،

٣ ليمونات ، لا تكون جد كبيرة.

قطعتي جبن صغيرتين ،

١ ليتر حليب. وأرجوك ألاّ تنسي شيئاً !

قابلت البارحة مدام « فرنياك » من الطابق الثالث ، فقالت لي إنه كان هناك حليب في دكان الألبان حتى الساعة الثامنة ، في حين زعمت أنه لم يكن قد بقي منه شيء. ستجدين الدراهم فوق البوفيه.

قبلات. ماما.

إضافة إلى ذلك. أنت لا تنظّفين أوعية الطعام ، هذا مزعج ! فيما يخص هذا المساء ، ازعجي نفسك ورتّبي المطبخ ، من فضلك !

أماه. ـ أخذت عشرة « فورنت » من حصالتك ، من أجل عمليّة تبرّع يقومون بها في المدرسة ، لكن جدّي لم يرض باعطائي أيّ شيء.

« اتيين »

« اتيين ». ـ خرج الجدّ والجدّة في نزهة. افعل مثلما فعلا من فضلك ، لأن أحد الأصحاب يأتي ليراني بعد ظهر اليوم. شكراً !

ماري

ماما. ـ من فضلك ، اتركي لي عشرة « فورنت » على البوفيه ، من أجل عمليّة تبرّع تجري في المدرسة. وهل لك أن توقّعي أيضاً جلائي ، والملاحظة التي سترينها فيه من أجل الفيزياء ، ليست بسبب خطيئة ارتكبتها أنا.

« اتيين »

« اتيين ». ـ ليس من الشرف في شيء ما فعلته، إذ تركت لي جلاءك لأوقعه ومضيت بصمت لتعود في وسط الليل! هذا عدا الكلام عن هاتين العلامتين الرديئتين الأخريين! إذا تابعت العمل بهذا المستوى من السوء في المدرسة، فلن تصلح لغير العتالة. أنا لا أطلب منك أن تعمل لأجلي، بل يجب أن تفهم أن الأمر يتعلّق بمستقبلك الشخصي! في المرة القادمة سأطلع أباك على جلائك، وسيتوجّب عليك أن تتدبّر أمرك معه! وقد كنت فعلت ذلك أصلاً، لو أنني عرفت فقط أين هو، إلاّ أنه لم يدع لي سوى كلمةٍ على البوفيه، يعلمني فيها أنه لن يعود وقت العشاء. إنني أعرف على الأقل عمّن ورثت ميولك التسكّعية! سوف تنتهي نهاية سيّئةً، سترى!

قبلات. ماما.

ذهبت لألعب الورق. لا تنتظريني على العشاء.

« شارل »

ماري ـ جدّي تشاجر مع جدّتي، لأنها لم ترض بخفض الراديو. عند ذلك أغمي عليها، وأخذوها إلى مستشفى القديس « روش » (Roche). قولي ذلك لماما. خذي هذه الصرّة إلى المستشفى، إلى الجدّة. فيها قميص نومها، وخفها، وصابونة، إلخ... عندي غيبة، لكن لا تقولي عنها شيئاً لماما، لأنني ذكرت لها أنني ذاهب إلى ندوة الطوابع. تحية.

« اتيين »

ماما. ـ أخذوا جدّتي إلى المستشفى. جدّي كسر إبريق الماء، وشرب قنينتي نبيذ، وهو مخمور تماماً. هذه صرّة يجب أن تحمليها إلى الجدة في المستشفى، لأنها تحتوي قميص نومها، ومشطها، وصابونتها، وخفّها. يجب أن أذهب إلى درس الرسم.

« ماري »

سأعود متأخرةً بعض الشيء، لا تنتظروني.

« شارل ». ـ لا يمكن أن تستمرّ الأمور على هذا النحو، إنك تتصرّف كما لو كنت غريباً عن العائلة بكلّ معنى الكلمة، في حين أنك زوجي وأب أولادي. أيقظني من فضلك، مهما كانت الساعة التي تعود فيها. ويشهد الله أنني تحمّلت أكثر مما يجب، لكنني هذه المرة مللت.

« ايرما »

ماما. ـ ضعي لي من فضلك عشرين « فورنت » على البوفيه. فأنا بحاجة ماسة إليها.

« اتيين »

« شارل. ـ منذ ثمانية أيام وأنا أطلب محادثتك، لكن بلا جدوى. أمي في المستشفى، و « اتيين » على شفا الطرد من المدرسة، و « ماري » شاهدها عدّة مستأجرين فيما كانت تدع شاباً ـ تفضل ـ يقبّلها على الفم تحت مدخل العمارة، وأنت لا تهتم بشيء! لا تندهش إذا ما حطّمت أنفك ذات مساء على الباب!

« ايرما »

من بعد، يمكنك معاشرة عاهراتك على هواك.

« اتيين ». ـ تقول لي أمك إنك لا تعمل في الصفّ، وإنك تعود في ساعات غير معقولة. اعمل على أن تتصرّف كما يجب، إذا لم تكن ترغب برؤية قدمي على قفاك! وكذا الأمر بالنسبة « لماري »!

أبوك

« ماري ». ـ اذهبي وائتِ بالغسيل من المصبغة.

قبلات. ماما.

ماما . ـ مرّ الطبيب . يجب على جدّي أن يلزم السرير ، راحة كليّة ، لأن معه جلطةً . الوصفات فوق الطاولة ، اذهبي إلى الصيدلية من فضلك .

اتيين »

ماما . ـ من فضلك ، عاد بابا فأحضر امرأة إلى منزلنا هذا الصباح ، ولم يقبل بعودتي . أما عدنا في بيتنا إذن؟ أم ماذا ؟ هذه النقود لك .

« ماري »

« شارل » . ـ طفح الكيل . عـزمـت على طلـب الطلاق . اذهـب إلى الشيطان !

« ايرما »

ستجد حوائجك في غرفة الخادمة . ستنام « ماري » مكانك . لم أعد أرغب في رؤيتك ، يا وغد !

« ايرما » . ـ كنت دوماً غبيةً ، كقدميك . لكنني لا أهتم ، افعلي ما شئت . تصبحين على خير !

« شارل »

ماما . ـ ما عدت أطيق . إنني أستغني عن المدرّسة . سأذكر لك كل شيء مساء اليوم .

« اتيين »

شارل » . ـ هذه المرة يتعلّق الأمر « باتيين » . يريد ترك المدرسة ، ويقول إنها لا معنى لها . يجب أن تحدّثه قطعاً لا يهمّ ما جرى بيننا ، فأنت تظل أباه . أحد رفاقه ، شابّ حقير ، عبّأ رأسه ويريد الآن بأيّ ثمن الذّهاب إلى مصنع بصفة متدرّب . يقول إنه شبع من الاستجداء راكعاً

كلها كان بحاجة إلى بعض النقود لكن ما الذي سيصير اليه؟

« ايرما »

لا أحد يهتمّ بي، إنها ليست عيشةً، هذه. كفاني المكوث مستلقياً، متجمداً بلا حراكٍ طوال النهار. وداعاً يا صحبي جميعاً.

جدكم

ماما. ـ إنّ ما جرى لأمر مرعب! تناول جدي انبوبة منوّمٍ بكاملها. استدعت مدام « فرنياك » على الفور دكتور « فارغا » من الطابق الثاني، لكن بعد فوات الأوان. عندما عدت، الساعة الثالثة والنصف، كانوا قد ذهبوا بالجثمان. تلفنت إلى بابا، في المشغل، غير أنهم قالوا لي إنه كان قد انصرف. انتظرته حتى الآن، لكن الساعة بلغت السابعة وأنا خائفة وحدي. أنا ذاهبة إلى بيت صديقة. قد يسعك أن تعودي أنت أيضاً أحياناً. ما الذي يجعلك تمضين سهراتك كلها مع هذا البغيض السيد « بيلا »؟ كل ما أراه منك بضع رسائلٍ متروكةٍ على البوفيه.

ماري

« اتيين ». ـ يا صغيري، عليك أن تأخذ شهادة الوفاة إلى البوابة، ثم تذهب وتحضّر:

١ كيلو خبزٍ،
٢٠٠ غ مرتديللا، شطائر رقيقةٍ،
١ ليتر حليبٍ.

قبلات. ماما.

« ماري ». ـ شخص اسمه « كالمان » تلفن إنه سيعود فيطلبك مساء اليوم.

« اتيين »

« شارل ». ـ إنه لمن المحنق حقاً أنك لم تأتِ حتى إلى دفن أبي. طلبت الطلاق، لا بأس، لكن لا تتصوّر أن ذلك يعطيك الحق في أن تدوس بالأقدام حرمة العائلة وقدسيتها. وما يقوله الناس، أتراك لا تبالي به؟ من ناحية أخرى يجب ألاّ يحول هذا كلّه دون بقائنا صديقين. أحسّ أنني جد وحيدة!

« ايرما »

ماما. ـ يكلّفني بابا بإبلاغك أنه يغادر المنزل. وأنا، حسبما يجب، لا تقال لي الأشياء إلاّ عندما يتعلق الأمر بنقل رسائلٍ! نقل كل أمتعته في المحفظة الكبيرة، ذهبت أنا إلى السينما. تحية إلى « بيلا » رأس الخنزير!

أنا عامل طباعة متدرّب منذ ثلاثة أيامٍ، إذا كان هذا يهمك!

« اتيين »

ماما. ـ انتظرتك لأنّ « أتيلا » Atella حضر، تعرفين أنه هو الذي حدّثتك عنه فيما مضى. نحن في أحسن حالٍ معاً، لذا تمنيت أن أقدمه لك.

أمّا أنتِ، فيمكننا دوماً أن ننتظرك...

« أتيلا » يأخذني إلى المسرح، وهذا يعني أنني سأعود متأخرةً.

« ماري »

اتيين. ـ إنكِ تبالغ بعض الشيء، هذا مؤكد! أولاً بالنسبة لك،

هو ليس « بيلا » بل السيد « بيلا »، أو على الأقل العم « بيلا ». وبعد ذلك، فهو أبعد ما يكون عن وصف رأس خنزير. أخيراً، فأنت تعرف الموقف جيداً. تلك لهجة لا أقبلها أبداً!

قبلات. ماما.

ماما. ـ من فضلك أيقظيني الساعة السادسة والنصف!

« ماري »

« اتيين. ـ أرجوك أن تذهب قطعاً لترى جدّتك في المستشفى. منذ ثمانية أيام لم يذهب أحد لرؤيتها. احمل لها علبة خشاف، وسأرد لك النقود فيما بعد.

قبلات. ماما.

« ماري ». ـ كوني لطيفةً واذهبي زوري جدتك في المستشفى. ليست لدي لحظة فراغ هذه الأيام. خذي لها علبة خشاف.

« اتيين »

ماما. ـ اليوم دورك في زيارة جدّتي، أنا ذاهبة للرّقص مع « أتيلا ». إنها أمك، أليس كذلك؟

« ماري »

« اتيين »، « ماري ». ـ إنني أصرّ على رؤيتكما هذا المساء في البيت، لأحدثكما في قضية شديدة الأهمية. إنكما لم تعودا طفلين وسوف تفهمانني. قد يأتي السيد « بيلا » فيقطن معنا.

قبلات. ماما.

« اتيين » . ـ واحدة إسمها « سوزان » تلفنت لك .

« ماري »

اما . ـ جاؤوا للمرة الثالثة لتقديم فاتورة الكهرباء . اتركي النقود في المنزل ، من فضلك .

« اتيين »

« بيلا » . ـ أنا عند خياطتي ، إلا أنّني عائدة بعد قليلٍ . العشاء على الغاز ، اذا كنت جائعاً ، وبالانتظار سخّنه ، لكنني أفضّل أن تنتظرني لكي نأكل معاً .

« إيرماك »

سيقطع الماء ابتداءً من الساعة ١٥ ، بسبب قطع مجرى . خذوا احتياطاً .

البوابة

ماما . ـ سوف اتزوّج من « أتيلا » . سيجري الأمر في غضون ثلاثة أسابيعٍ من الآن . أرجو أن تكوني موافقة ، وأن يسرّك ذلك . وإلا فالأمر سواء .

ماري

ماما . ـ من فضلك ، تلطّفي واسألي « بيلا » بألاّ ينبش حوائجي . عاد فأخذ منّي علبة سكائر ، هذا الأبله ، ولم تكن تلك الأولى . من جهةٍ ثانيةٍ ، يحسن عملاً اذا هو نظّف حوض الاستحمام عندما يخرج منه .

« اتيين »

« ماري ». ـ لا تخرجي هذا المساء يا صغيرتي، فلديّ ما أتحدّث به معك بخصوص هذا الزواج. أنت الآن بنت كبيرة ذكية، وتعلمين أنّ الزواج لا يؤخذ مأخذ خفّةٍ. هو رابطة تلزم المرء الحياة بطولها، آخر الأمر! « أتيلا » فتى لطيف، أوافقك بطيبة خاطر، إلاّ أنه مجرّد تقني بسيط، ويمكنك أن تجدي من هو أفضل. هذا رأيي، لكننا سنتحدث في ذلك مساء اليوم. من جهةٍ أخرى رأي « بيلا ».

قبلات أمك

لا أقيم لرأيك وزناً كبيراً، كما أنّ رأي بيلا يهمني دون ذلك. أريد أن أحيا حياتي.

« ماري »

« اتيين ». ـ يا صغيـري، كن أكثر لطفاً بقليلٍ مع « بيلا »! لقد تشكّى منك. لا تنسَ أنني أمك، وأنه مهما كان رأيك في « بيلا » فهو صديقي.

قبلات. ماما

سأعود هذا المساء متأخّراً بعض الشيء.

« بيلا »

« ماري ». ـ تلفن « أتيلا ». عاودي الاتّصال به.

« أتيين »

« أتيين ». ـ تلطّف واذهب فاشترِ:
١ كيلو خبزٍ،
٣٠٠ غ مرتديلا،

نصف كيلو طحينٍ ،
ربع كيلو شوكولا ،
قنينة نبيذٍ أبيض.
اليوم عيد « بيلا ». لا تخرج اليوم ، سأهيّء عشاءً طيّباً!

قبلات ماما.

خرجت لأشرب قدحاً مع الأصحاب.

« بيلا »

جرى اليوم توزيع المكافآت في المشغل.

« بيلا ». ـ كان اليوم يوم عيدك إنْ كنت قد نسيت. إنتظرناك مع عشاءٍ عظيمٍ ولم تتنازل بالعودة ، ألا تخجل؟ دائماً محشور مع الأصحاب! على الاقل كُل الكاتو عندما تعود. ستجده على منصّة الليل.

« ايرما »

« اتيين ». ـ هل لك أن تقول « لبيلا » إنّ لديّ ساعاتٍ إضافيةً أقوم بها هذا المساء ، وإنني لن أعود قبل الساعة السادسة والنصف.

قبلات. ماما.

يكلفني « بيلا » أن أخبرك أنه في المقهى الصغير في الزاوية ، لكنه لا يشير عليك أن تذهبي إلى هناك لجلبه ، لأنه سيجعلك تتأسّفين لذلك. يقول أيضاً إنّ عليك أن تتركيه بسلام.

« اتيين »

« اتيين ». ـ واحدة تدعى « فيرا » Vira جاءت وتركت لك هذه الكلمة : « هل نسيت ، يا « اتيين »؟ كنّا اتفقنا على هذا المساء! لا أحبّ

من يخلف الموعد ! « فيرا » » .

« ماري »

اتيين » . ـ تكون لطيفاً إذا لم تعد إلى البيت هذا المساء . لأنّ السيد « دزيريه » Desiré سيحضر . وهو كما تعلم ، الشخص الذي كنت كلّمتك عنه . أخبر ماري أيضاً !

قبلات . ماما .

مرثاة

عثمان لينس (البرازيل)

Osman Lins (Brésil)

★ عثمان لينس: ولد عام ١٩٢٤ (البرازيل) ، مؤلف روايات وقصص .

حقاً إنني الآن وحيد، وما هي سوى برهةٍ وجيزةٍ حتى يحل الفجر. لسوف تشحب القناديل، ولسوف تقرع نواقيس الموت على شرفك. وعندما تشرق الشمس فلن تضيء من بعدُ عينيك.

بعد ساعاتٍ قليلةٍ أخرى يقودك أقرباؤنا إلى المقبرة. سيكونون حزانى بعض الشيء، لكن لا يسعهم أن يتصوّروا أيّ خسرانٍ مبينٍ حلّ بي. سيقولون فيما بينهم: «كان ذاك محتوماً، كان على أحدهما أن يمضي أولاً... وسيفكرون أنني بتّ طاعناً في السن، وأن مقدرتي على الألم وهنت، ولن يطول بي الأمد حتى ألحق بك. لعلّهم لا يتصوّرون بسببٍ من شيخوختي بالذات، فإن ذهابك سيزيد من حزني. فلو كنت فتيا لاستبعدت صحتي الألم. لكنني عجوز. جدّ وحيد، مهجور ـ أنا طفل مُبتلٍ، يا عزيزتي. يعتبر أولادنا الآن أنهم السادة، أنّ عليهم أن يتدبروا أموري، فيبعثون بي لأرقد مبكّراً، ولا يأذنون لي أن أطعم مما أرغب، ويبلغ بهم الأمر أن يؤنّبوني. تلك وسيلتهم لإظهار محبتهم لي، غير أنني لا أستشعر كبير عمقٍ في تلك المحبة. ثمة قسط من شدةٍ في تدبّرهم جانب الحفاظ عليّ، كما لو كنت منذ الآن شبه خرف.

يبدو لي أن أحفادي أيضاً لا يحبونني كما كنت أتمنى. تخيلتهم أبداً أطفالاً بسيطين، يتيسّر لي أن أقودهم باليد إلى اسفارٍ رائعةٍ، وأنني مبدع، لهم حكايات يصغون إليها باستمتاعٍ، لكنني لا أكاد أرافقهم قط في نزهةٍ، فإذا فعلت لم أبلغ أن التحم معهم، فيتبادلون أسراراً، ويتحادثون بلغةٍ، يبتسمون. بل إنني لأفترض أنهم غالباً ما يهزأون منّي. فإذا جرّبت رواية حكايةٍ لهم، لا يأخذونني مأخذ جدٍّ. على أنهم يستقبلونني فرحين إذ أتوجّه لزيارتهم، فيطلبون بركة جدهم ويتناولون قبعتي لوضعها في مكانها. ألاحظ عند ذاك أنهم لا يستشعرون الراحة إذ يقبّلون يدي، وأنّ فرحتهم الكبرى تعلق أكثر ما تعلق بالألعاب التي آتيهم بها. فأنظر إليهم باسماً، بمرارةٍ، وأتصوّر السنين التي تفصل ما بيننا والمحبة التي يفترضون افتراضاً أنها موجودة.

أمّا عن الأصحاب، فتعلمين أنني لم يعد لي منهم أحد، فبعضهم قضى. ووجد آخرون في الشيخوخة حجّةً لذيذةً ليضحوا مشاكسين أو غير متزنين. ويضجرني الباقون بإلحاحهم عليّ أن يوقعوا في ظنّي أنني متقدّم جداً عليهم في السنّ.

كنت وحدك قد بقيت لي. قربك كان يسعني أن أحقق نفسي، بغير خشيةٍ من أن أبدو سخيفاً. أنتِ التي كنتِ تملكين مفتاح مزاجي وإعطائي البهجة، (حتى سخريتك كانت صورة حنانٍ). والآن، يحفّ بكِ صمت قاسٍ ويجمدك. أنظر إلى يديك المكتوفتين إلى الكفن الذي يغلّفك، وإلى وجهك المستكين. أعلم أنهم سيذهبون بك بعد قليلٍ، لعلّي إذ ذاك أقبّل جبهتك. مع أني لا أجهل أن صقيعك من جراء الموت يؤذيني، ومن المحتمل أكثر من ذلك أنني واضع شفتي على شعرك. أجل، سأقبّل

شعركِ ـ ذاك الذي كان في البداية كثيفاً أسود ، فشهدته يتناقص ويضحي أبيض . سأقبّل يا عزيزتي شعرك ، فالموت لم يغيّره . باتت جبهتك أشدّ صفاءً ، وأنفك أكثر دقةً ، وخدّاك غائصين ، ولحمك تصلب ولم تخفضي جفنيك بمعتاد نعومتك . يبقى شعرك مع ذلك ، هو هو ، فهبّة الريح ما انفكت تحرّكه ، إنه حيّ ، إنه الشعر ذاته الذي كنت في الصباح تصففينه ، وترسلينه في المساء قبيل النوم . ورغم أنه الآن مربوطاً ، تنامين .

وأحس أنني مغموم ، والموت يعشش في روحي ، كما سبق لي كثيراً أن أحسست وأنا إلى جانب أولادنا ، إذ كانْ يلمّ بهم مرض ، أو يمتنع عليهم النوم حتى مطلع الفجر ، من بعد ليلةٍ مسهدةٍ ، حين كنت أمكث قربهم جالساً أراقبهم جتى لحظة وصولك . إذ ذاك كنت تضعين يدك على كتفي ، وتحملينني على أن أمضي فأرتاح . لن أعرف بعد اليوم قط رقّة تلك البادرة . ولقد يأتي بعد هنيهةٍ شخص ما ـ طفل أو جار ـ فيقسرني على الابتعاد عنكِ والتزام السرير . لكن كائناً من كان ذاك ، فسيأتي ومعه أقوال . أمّا أنت فلا : كنت تأتين بصمتك ، برقّتك الهادئة ، فتفعلين ما تفعلين بحيث أنام ، لكنني عندما أستيقظ ، كنتِ أنتِ التي تسهرين على المريض ، ذاك ما لن يعرفوه ، إنه جد صميمي ، إنه يستدعي قدراً من الفهم المتبادل ، جد رفيع بحيث لا يكشف عنه . وأنا لن أحدّثهم عنه .

كما أنني لن أتكلم عن أمورٍ أحفظها مكتومةً ، بحنانٍ عظيمٍ . فلو قصصتها عليهم لاعتبروني مجنوناً ، لن أذكر لهم ما كان يعتريني من اضطرابٍ وأنا أنظر إليك مراتٍ ومراتٍ ، وأنتِ تنفذين أكثر المهام تواضعاً . فعلى مدى سنوات ، بل في كل يوم تقريباً ، كنت تنهضين بأعباء البيت . كنت أراك ، دون أيّ شيءٍ خاصٍ . غير أن يوماً حلّ اكتشفت

فيه صميميتك في هذا العمل، لاحظت اعتناءك في رفع الغبار، دقّتك في نصب الآنية في مواضعها، وأنتِ تغيّرين الأغطية والفوط. كنت أصغي إلى خطاك، فأتأثر وأنا أرى كيف كنت تنهمكين بتلك المشاغل. وكنت أكتشف في ذلك كله محبّةً بالغةً، ممّا كان يحملني على أن أفهم كم كنتِ طبيعيةٍ. بل إنني لأذكر يوماً اشتغلت فيه كثيراً ثم رقدت مبكّرةً. كنت قد مكثت أقرأ، فلما واتاني النعاس، أغلقت الأبواب. خيّم عند ذاك صمت عظيم! كانت قطع الأثاث تلمع، وما من غبار على الأرض، فكلّ شيءٍ في موضعه، نظيف، مرتب. بقيت برهةً في غرفة الطعام، كما لو كنت أحسّ إحساساً مسبقاً أنني أقارب لغزاً. جعلت أتأمل إناء الزّهر على المائدة، كنتِ أنتِ قد جنيته بنفسك في الصباح، شعرت بحضورك الجاد في النظافة، في الزهور، في الحنان الذي كنت تنثرينه على كلّ شيء. ففهمت أن شيئاً ما يحفّ بي: بداية غمٍ تطوّقني. نظرت إلى النار في المطبخ، كانت مطفأةً. طوال النهار، كانت حثيثةً، حارّةً. وهي الآن ميتة. لم يبقَ منها سوى الرماد، وما حدث بعد ذلك كان سخيفاً ودقيقاً، جدّ عسير تفسيره، حتى إنني لم أذكره لك قط. جعلت أبكي، يا عزيزتي. يلوح لي أنني أصبت آنذاك بخيبةٍ غامضةٍ ومفاجئةٍ، ضَرْب من الألم في مواجهة قصر أمد الحياة، حياتنا ـ أجهل ذلك. ولعلّي أحسست أيضاً، أمام البساطةِ التي كنت تحيّيْن فيها حياتك، ما يشبه العناء الذي ينتابنا أحياناً أمام لعبةٍ من لعب الأطفال. غير أنّ من الصعب تفسير ذلك. فلعل ذاك الشعور الدقيق الذي انتابني كان منبئاً عن هذا الأمر: إنك تموتين، وإن نارنا لن تشتعل من بعد بيديك، وإنك لن تعاودي قطف الزهور لإنائنا. أفكان الأمر كذلك؟ ما رأيك فيه؟.

اوّاه! إنما أنا أهذي. كنت أحدّق فيك بقوّةٍ هائلةٍ، وقدرٍ كبير من

الأسف، حتى كنت أحسبك حيّةً. فلو أنهم وقفوا على ذلك، لسخروا منّي. إذ لا يجوز لمن كان في سني أن تكون له أفكار غريبة، ولا أن يقدّم اعترافاتٍ، فذلك يضحي مبعث هزءٍ، يا عزيزتي. ويتوّجب عليّ اغتنام هذه اللحظات الأخيرة التي ما انفك شملنا فيها مجتمعاً. لهي آخر فرصة أحدّثك فيها، حتى بغير أن أحرّك شفتيّ، فأروي لك الحماقات التي لا أأتمن عليها أيّ إنسانٍ. أودّ أن أذكر لك مثلاً أمراً عجباً، أمراً لا أفهمه: إن الوقائع البارزة في حياتنا، تلك التي لا سبيل إلى نسيانها، قد فقدت اليوم هذه الميزة. فليس زواجنا أكثر أهمية بقدر ما أحتفظ من ذكرى عنك، حين رأيتك بأعجوبةٍ، قبيل حفلة الزفاف بفستان عرسك. أذكر كذلك كم كانت عيونك تبرق، وكم كانت ضحكتك جذلى! ثم ساعة أطبقوا الباب لولادة طفلنا الأول، التي لم تواتني الجرأة على حضورها. كانت تلك مع هذا واقعة خطيرة! ما عادت الآن كذلك: إنها في مستوى أيّ بادرةٍ منك، أو بسمتك. وهي اليوم في مثل أهمية فرحك تلك البقية من الطفولة التي لم تفقديها أبداً حين كنت أقدّم لك علبة سكاكر أو قطعة فاكهةٍ. كنت في أحيانٍ آتيك ببسكويتٍ، فترفعينه جانباً، وأنا أوبخك لأنك كنت تبدين لي بخيلةً، إذ لا تطعمينه من فورك، ولا تقاسمينه الآخرين. على أني كنت أزجرك بغير ضغينةٍ، لعلمي أنّ بخلك كان وسيلةً تطيلين بها بحسن نيةٍ ذكرى منّي. ذاك أيضاً مما لا يسعني أن أرويه لإنسانٍ. وإلا لقالوا إنني مشغول بالتفاهات، أو إنني أبتدع صفاتٍ لا تتحلّين بها.

والآن، يا عزيزتي، مع من سوف أتقاسم تلك الذكريات؟ تمضين أنتِ ويظل عبء الماضي أثقل من أن أنهض به وحدي. فالكلمات ـ وكلّنا يعرف ذلك ـ تظل فارغةً بنحوٍ مميتٍ وأعجز من أن تعبّر عن أمورٍ

بعينها. وأيام كنا نجلس سويةً نحن الإثنين، مستذكرين حياتنا، لم تكن الكلمات هي التي تعيد تشكيل الوقائع: بل نحن اللذين كنا نفعل.

أما وإنك فارقت العالم فهل سأجد من أحدّثه عن شؤون عزيزةٍ انقضت، كأسفك إذ كسرت عفواً هديةً قدمتها إليك، وكفرحتنا بأول رحلةٍ لنا بالقطار؟ مع من أتبادل الحديث حول ذلك؟ مع من أعقّب على عادتك، حين كنت أنسى نظّاراتي، فتدعينني أسير حتى زاوية الطريق ولا تنادينني إلا في تلك اللحظة؟ فكنت أرجع، فأؤنبك، وأسألك متى تكفّين عن أن تكوني طفلةً. وفيما بعد، كنت أتذكر الحادثة فأضحك خلسةً، خشية أن يراني الناس فيقولون: «انظروا إلى العجوز يضحك بغير سببٍ...».

على أنّ من واجبي ألاّ أستذكر تلك الأمور. فلعلّ أحداً رآني ابتسم، فيخطر بباله أنني لا أتحسّر عليك، لسوف يفكر: «إنه لم يبكِ. وهو ذا الآن يتبسم. إنه مخبول... أو فاقد الحسّ». والحق ليس ألمي عنيفاً. إنه تعب. لكنه جدّ وسيع، جد قانط وعميق... ولسوف أبقى طويل الوحدة، يا عزيزتي...

زائر

ماريو فارغاس لوزا (بيرو)

Mario Fargas Loza (Pérou)

★ ماريو فارغاس لوزا: ولد عام ١٩٣٦ في بيرو، ترجمت أعماله إلى عدة لغات، يعتبر من كبار الكتّاب في أميركا اللاتينية.

تلامس الرّمال واجهة المطعم الحقير وتنتهي عنده: فمن الفجوة التي تقوم مقام الباب أو ممّا بين القصب، ينزلق النظر فوق سطحٍ أبيض، كئيبٍ، إلى النقطة التي يلتقي فيها بالسّماء. والأرض خلف المطعم قاسية ووعرة، وعلى مسافة تقلّ عن كيلو مترٍ تبدأ التلال السمراء، وكلّ منها أعلى من سابقتها وشديدة الالتحام بها. وتنغرس القمم في الغيوم كأنها السّهام أو الفؤوس. وعن يسارٍ، تقع الغيضة حيث تتزاحم أشواك العلّيق، والنباتات البرية، وعشبة جافّة زاحفة تغطّي كلّ شيء: الأرض المخدّدة، والثعابين، والمستنقعات الصغيرة، متعرّجةً وممتدّةً على حافّة الرمال بنحوٍ متعاظمٍ على الدّوام، إلى حين تختفي فيما بين أكمتين بعيداً جداً الآن عن الكوخ. غير أنّ الغيضة ما هي سوى مدخلٍ إلى الغابة، أو صورةٍ مشبّهةٍ عنها: فهي تنتهي في أسفل سيلٍ للماء، عند أقدام جبلٍ عظيمٍ، تمتدّ من خلفه الغابة الحقيقية. وتعرف « دونا مرسيديتاس » ذلك: إذ تسلّقت ذات يومٍ، قبل سنواتٍ، قمّة ذاك الجبل. من هناك تأمّلت بنظرةٍ مذهلةٍ ـ عبر أكداس الغيوم العائمة تحت قدميها ـ السطحَ الأخضر المنبسط طولاً وعرضاً دونما أيّ فرجةٍ.

والآن، تغالب « دونا مرسيديتاس » النّعاس وقد تمدّدت على كيسين.

وعلى بُعدٍ منها تحكّ العنزة الرمل بخطمها، وتعلك بعنادٍ قطعة خشبٍ، وتثغو في نسيم الأمسية الدافىء. وهي ذي على حين غرّةٍ تنصب أذنيها، وتقف مترصّدة، فتشقّ المرأة عينيها:

« ماذا هناك »، « ياكويرا »؟ ».

تشدّ الدابّة الحبل الذي يربطها إلى وتدها. فتنهض المرأة مجهدةً. على بعد خمسين متراً يلوح الرجل بوضوحٍ عند الأفق، يسبقه ظله على الرّمل. ترفع المرأة يداً إلى جبينها على نحو حاجبٍ، وتنظر بسرعةٍ فيما حولها، ومن ثم تظل متجمّدة. أصبح الرجل قريباً جداً. إنه طويل، ناحل، شديدة السمرة شعره مجعّد ونظرته ماكرة. يتموّج قميصه الحائل اللّون فوق بنطاله الكتاني المرفوع حتى الركبتين. تشبه ساقاه أنبوبين أسودين.

« مساء الخير، يا سيدة « مرسيديتاس ». « صوته منغّم وساخر، شحبت المرأة، وهمست:

« ماذا تبغي؟ ».

ـ عرفتني، أليس كذلك؟ حسن، أنا جد مسرور. إذا لم يكن في طلبي ما يتجاوز الحدّ، فإني أشتهي أكل شيء ما، وشرب رشفةٍ. فأنا عطش جداً.

ـ هناك توجد جعّة وبعض الفواكه.

ـ أشكرك يا سيدة « مرسيديتاس ». إنك جد طيّبة، شأنك دائماً. ألا يسعك مرافقتي؟

ـ ولِم ذلك؟ تنظر المرأة حذرةً. إنها سمينة وقد بلغت سنّاً معينةً، لكنّ بشرتها ملساء. قدماها عاريتان.

ـ أنت تعرف البيت.

ـ أوه! يقول الرجل بلهجة وديّة. لا أحبّ تناول الطعام بمفردي. ذاك يشعرني بالحزن ».

تتحيّر المرأة برهةً. ثم تتّجه نحو المطعم جارّة قدميها على الرمال. تدخل، وتفتح زجاجة جعّةٍ.

« شكراً. شكراً جزيلاً، يا سيدة « مرسيديتاس ». لكنّني أفضّل الحليب. أما وقد فتحت الزجاجة، فلِم لا تشربينها ؟.

ـ إنها لا تروق لي.

ـ هيّا يا سيدة « مرسيديتاس »، لا تكوني كذلك. اجرعيها على صحّتي.

ـ لا أرغب في ذلك ».

يكفهرّ وجه الرّجل.

ـ « أأنت صمّاء ؟ أقول لك أن تجرعي الزجاجة. في صحّتك »!

ترفع المرأة الزجاجة بين يديها وتشرب، بطيئاً، جرعاتٍ صغيرةً. فوق الدكّ الوسخ المملؤ ثقوباً، تلتمع جرّة حليبٍ. يطرد الرجل بحركةٍ من يده الذباب الذي يحوّم في الأرجاء، ويرفع الجرّة ويشرب جرعةً طويلةً. تتغشّى شفتاه بهالةٍ من القشدة، ما يلبث لسانه، بعد ثوانٍ قليلةٍ، أن ينظّفها بضجيجٍ.

« هيه! قال متلمّظاً. حليبك رائع، يا سيدة « مرسيديتاس ». هذا بالتأكيد حليب ماعزٍ، أليس كذلك؟ إنه طيّب جداً. هل أتيت على الزجاجة؟ لِم لا تفتحين واحدةً أخرى؟ في صحّتك »!

تمتثل المرأة دونما اعتراضٍ. يلتهم الرجل موزتين وبرتقالة.

« ألا قولي، يا سيدة « مرسيديتاس »، ولا تكوني جدّ عصبيةً. الجعّة

تسيل على عنقك، لسوف تلوّث ثوبك، يجب ألاّ تفرّطي بالأشياء على هذا النحو. افتحي زجاجةً أخرى، واجرعيها على شرف «نوما» (Noma) في صحّتك!».

يتابع الرجل ترديد: «في صحّتك»، إلى أن يصير على الدكّ أربع زجاجاتٍ فارغةٍ. باتت عينا المرأة كابيتين. إنها تتجشأ، تبصق، تجلس فوق كيس فواكهٍ.

«يا ربّ! يقول الرجل. يا لك من امرأةٍ! أنت سكّيرة حقيقيّة، يا سيدة «مرسيديتاس» اعذريني إذا قلت لك ذلك.

ـ ما تفعله بحقّ عجوزٍ مسكينةٍ سوف تندم عليه، أيها الجامايكي. سترى». بات لسانها ثقيلاً.

«حقّاً؟ قال الرّجل بلهجة ملولٍ. وبالمناسبة، متى يعود «نوما»؟

ـ «نوما»؟

ـ هيه، أنتِ فظيعة يا سيدة «مرسيديتاس»، حين لا ترغبين في فهم الأمور! في أيّ ساعةٍ سيأتي؟.

ـ لست سوى زنجيّ وسخٍ، أيّها الجامايكي. سوف يقتلك «نوما».

ـ لا تتفوّهي بهذه الكلمات، يا سيدة «مرسيديتاس»! ـ يتثاءب.

ـ حسن، أظن أنه ما انفكّ أمامنا بعض الوقت. بالتأكيد حتى حلول الليل. سننام قليلاً، ما قولك في هذا؟».

ينهض ويخرج. يتّجه نحو العنزة، فترمقه الدابّة بحذرٍ، يفكّ رباطها. يعود إلى الكوخ صافراً وهو يهزّ الحبل مثل مروحةٍ: ليست المرأة هناك. للحال، يتلاشى بروده الخليع واللامبالي. يذرج القاعة بخطىً واسعةٍ، شاتماً مثل سائق عربةٍ. ثم يتّجه نحو الدّغل الصغير، تتبعه العنزة. تكتشف هذه

المرأة خلف شجيرةٍ ، فتجعل تلحسها . يضحك الجامايكي إذ يرى النظرات المغيظة التي توجّهها المرأة إلى العنزة. يصدر إشارةً بسيطةً ، فتتوجّه « دونا مرسيديتاس » نحو المطعم.

« أنت حقاً امرأة فظيعة ، أجل هذا صحيح ، يا سيدة. لديك أفكار غريبة ! » يربط قدميها ويديها ، ثم يرفعها بسهولةٍ ويضعها فوق الدكّ ؛ يقف قبالتها ناظراً بخبثٍ ، وفجأة يأخذ بدغدغة أسفل قدميها الخشنتين العريضتين. فتتلوّى المرأة ضحكاً ، وينمّ وجهها عن اليأس. الدكّ ضيّق ، وفيما « دونا مرسيديتاس » تتململ ، تقترب من الحافة وتسقط آخر الأمر بثقلها على الأرض.

« يا لك من امرأة فظيعة ، أجل ، هذا صحيح ! يكرّر . تمثّل أنها مغمى عليها وتتجسّس عليّ من ركن العين. لا فائدة من إصلاحك ، يا سيدة « مرسيديتاس » ! ».

والعنزة التي مدّت رأسها في الغرفة ، تلاحظ المرأة بثباتٍ.

يسمع فجأةً صهيل الجياد بعد العصر ، وقد حلّ الظلام. ترفع السيدة « مرسيديتاس » رأسها وتصغي ، وقد تفتّحت عيناها عن آخرهما.

« أولاءهم »، قال الجامايكي وهو يشبّ واقفاً. وتتابع الجياد صهيلها وتحرّكها العصبيّ. ومن باب الكوخ ، يصرخ الرجل غاضباً :

« ألم تفقد عقلك ، أيّها الملازم ؟ ألست مجنوناً ؟ ».

من ثنيّة في الهضبة ، ومن الصخور ، برز الملازم الأول. هو قصير وثخين : ينتعل جزمة الجياد ، ووجهه مغشّى بالعرق. ينظر بحذرٍ.

« ألست مجنوناً ؟ يكرّر الجامايكي. ما الذي ينتابك ؟

قال الملازم :

ـ لا تكلّمني بهذه اللهجة يا زنجيّ. وصلنا للتوّ. ما الذي يحدث؟.
ـ كيف ما الذي يحدث؟ أصدر أمراً إلى رجالك بإبعاد الجياد. ألا تعرف مهنتك؟ ».

يصطبغ الملازم الأول باللّون الأرجواني. يقول:
ـ لست، بعد، حرّاً يا زنجيّ. مزيداً من الاحترام.
ـ أخفِ الجياد واقطع ألسنتها إنْ شئت. لكن لا تجعل أحداً يسمعها. وانتظر هناك، سوف أعطيك الإشارة. ـ يفرد الجامايكي شفتيه فتظهر البسمة المرتسمة على وجهه وقحةً. ألا ترى أنّ عليك أن تطيعني الساعة؟ ».

يتحيّر الملازم بضع ثوانٍ. يقول:
« تعساً لك إذا هو لم يحضر. ـ ثم يدير رأسه، ويأمر: ـ أيّها الرقيب « ليتوما » Litoma اذهب واخفِ الجياد!
ـ أمرك، سيدي الملازم » قال أحدهم، خلف التل، يسمع ضجيج حوافرٍ، ومن بعد الصمت.
ـ هذا الذي يسرّني، قال الجامايكي. يجب أن يكون المرء مطيعاً. حسناً جدّاً، يا عقيد. برافو، يا مقدّم. أهنّئك، يا نقيب. لا تتحرّك من هذا الموضع، سوف أنبئك.
يشرع الملازم الأول قبضته في وجهه، ويختفي بين الصخور. يدخل الجامايكي المطعم الفقير. يعتكر الحقد في عينيّ المرأة، فتتمتم:
خائن. جئت مع الشرطةِ، يا قذر!
ـ تبّاً لها من تربيةٍ، يا ربّ، يالتربيتك، يا سيدة « مرسيديتاس »! لم أحضر مع الشرطة. حضرت وحدي فقط. وقد قابلت الملازم الأول هنا. أنت تعرفين ذلك خير معرفة.

ـ لن يحضر « نوما ، قالت المرأة ، وستسوقك الشرطة مجدّداً إلى السجن. وحين تخرج سيسلخ « نوما » جلدك.

ـ تعتمل فيك عواطف سيّئة، يا سيدة « مرسيديتاس »، بلا أدنى شكّ إنك تتنبئين لي بعواقب وخيمة!.

ـ خائن! كرّرت المرأة. تمكّنتْ من الجلوس، وقد نصبت جسمها بقوّة. هل تعتقد أنّ « نوما » غبيّ؟

ـ غبيّ؟ معاذ الله. إنه في خبث سعدانٍ، ولكن لا تيأسي، يا سيدة « مرسيديتاس » سوف يأتي حتماً.

ـ لن يأتي. ليس هو مثلك. لديه أصحاب، وسوف ينبئونه أنّ الشرطة هنا.

ـ أو تظنين ذلك؟ أنا لا أظن، لن يكون لديهم متّسع من الوقت. جاءت الشرطة من وجهةٍ أخرى، من خلف التلال. اجتزت أنا الصحراء وحدي. وكنت في كلّ القرى أسأل: « أما تزال السيدة « مرسيديتاس » في مطعمها؟ لقد أطلق سراحي للتوّ وأنا ذاهب لأقصف رقبتها. وهناك أكثر من عشرين شخصاً هرعوا، دونما ريبٍ، إلى « نوما » ليرووا له ذلك. أما زلت تعتقدين، بعد هذا، إنه لن يأتي؟ يا الله، كم انقلبت سحنتك يا سيدة « مرسيديتاس ».

ـ إذا حدث شيء « لنوما »، تمتمت المرأة بصوتٍ خشنٍ، سوف تندم على ذلك حياتك بطولها، يا جامايكي ».

يرفع هذا كتفيه. يشعل لفافةً ويأخذ بالصّفير، ومن بعد، يذهب إلى الدّك، فيتناول مصباح الزيت ويشعله. يعلّقه على عمودِ أمام الباب. ويقول:

« بدأ الليل يحلّ. تعالي هنا، يا سيدة « مرسيديتاس ». أريد « لنوما » أن يراك جالسةً أمام الباب تتوقعين قدومه. ايه، صحيح! لا تقدرين على الحركة. اعذريني، فأنا حقاً غافل ».

يميل ويرفعها بذراعيه. يضعها على الرمل، أمام الكوخ. يسقط نور المصباح على المرأة ويلطف من بشرة وجهها، فتبدو أكثر شباباً.

« لمَ تفعل ذلك، يا جامايكي؟ صوت « دونا مرسيديتاس » الآن ضعيف.

لماذا؟ قال الجامايكي. أنت، لم تكوني قط في السجن، أليس كذلك يا سيدة « مرسيديتاس »؟ تنقضي الأيام ولا يجد المرء ما يفعله. يضجر بشدّةٍ هناك، أؤكّد لك ذلك. ويموت جوعاً. اسمعي، كدت أنسى ناحيةً. لن تمكثي مفتوحة الفم، فلا ينقص إلاّ أن تنخرطي في الصيّاح حين يقبل « نوما ». بل، من ناحيةٍ أخرى، قد تبتلعين ذبابةً ».

يضحك، يفتّش الغرفة ويجد خرقةً، يلفّ بها نصف وجه « دونا مرسيدتياس »، يتفحّصها أبداً، وقد بدا عليه أنه يستمتع لاهياً.

« اسمحي لي أن أخبرك أنّك مضحكة بالفعل، وأنت على هذه الصورة، يا سيدة « مرسيديتاس ». لا أعرف بماذا أشبّهك ».

ينتصب الجامايكي، في ظلمة صدر المطعم، مثل ثعبانٍ: بمرونةٍ وبلا ضجيجٍ. يبقى منحنياً على نفسه، متّكئاً على الدّك بيديه. وعلى بعد مترين أمامه، داخل الحزمة الضوئية، تجلس المرأة متصلّبة، ممتدّة الوجه، كما لو كانت تتقرّى الريح: هي أيضاً سمعت. كانت تلك ضجّة خفيفة، لكنّها جد واضحة، آتية من اليسار، غلبت على غناء صراصير الليل. برزت ثانيةً فترة أطول: تطقطق أغصان الدّغل الصغير وتتقصّف، ثمّة

شيء ما يقترب من الكوخ. فيهمس الجامايكي: «إنه ليس وحيداً. إنهم كثر». يغوص بيده في جيبه، ويسحب منها صافرةً يدسّها بين شفتيه. ينتظر بلا حراكٍ. تتململ المرأة فيسبّ الجامايكي فيما بين أسنانه. يراها وهي تتلوّى في موضعها هازّةً رأسها مثل ساعة جداريةٍ، محاولةً التحرّر من كمامتها. توقّف الضجيج: هل بلغ الرمل الذي يكتم وقع الأقدام؟ التفتت المرأة جهة اليسار وعيناها جاحظتان، مثل عينيّ دابّة الأغوانة المفلطحة. «رأتهم» تمتم الجامايكي. وضع رأس لسانه على الصافرة: المعدن قاطع. تتابع السيدة «مرسيديتاس» تحريك رأسها وتغمغم بقلقٍ. ترسل العنزة ثغاءً فيقرفص الجامايكي. وبعد ثوانٍ يرى ظلّاً يهبط فوق المرأة، وذراعا عاريةً تمتدّ إلى الكمامة. ينفخ بكل ما أعطي من قوّةٍ، في ذات الوقت الذي يلقي بنفسه فيه بقفزةٍ واحدةٍ على القادم الجديد. يملأ الصفير الليل، كما لو كان حريقاً ويضيع وسط الشتائم التي تنطلق يميناً ويساراً، تتبعها خطىً متعجّلةٌ. سقط الرجلان فوق المرأة. الملازم الأول سريع: حين ينتصب الجامايكي، تشدّ إحدى يديه على شعر «نوما» وتشرع الأخرى المسدس قرب صدغه. وأربعة جنود مسلّحين بالبنادق، يحيطون بهما.

«عجّلوا! يصرخ الجامايكي بالجنود. الآخرون في الدغل. أسرعوا! سوف يهربون. عجّلوا!

ـ هدوءاً! يقول الملازم الأول. لا يحرف بصره عن «نوما». يحاول هذا، بركن العين، رؤية المسدس. يبدو عليه الهدوء. تنسدل يداه على جنبيه.

«يا رقيب «ليتوما»، قيّده».

يضع «ليتوما» بندقيته على الأرض ويفكّ الحبل الذي يحيط بحزامه.

يقيّد « نوما » من رجليه ثم يضع الأصفاد في يديه. اقتربت العنزة، وبعد أن تشمّمت ساقي « نوما »، أخذت تلحسهما بهدوء.

« الجياد، يا رقيب « ليتوما ».

يعيد الملازم الأول المسدّس إلى غمده، ويميل نحو المرأة. يفكّ كمامتها وأربطتها، فتنهض « دونا مرسيديتاس »، وتبعد العنزة بضربةٍ على قـذالها وتقترب من « نوما ». تمرّر يدها على جبهته، دون أن تتفوّه بشيء..

ـ ماذا فعل بكِ؟ قال « نوما ».

ـ لا شيء، قالت المرأة. أبِكَ رغبة في التدخين؟

ـ أيها الملازم، يلحّ الجامايكي. هل تدري أن الآخـرين يقفون على بعد أمتارٍ من هنا، داخل الدّغل؟ أما سمعتهم؟ يجب أن يكونوا ثلاثة، أو أربعة، على الأقل. ماذا تنتظر لتأمر بجلبهم؟

ـ اسكت، يا زنجيّ، قال الملازم، دون أن ينظر إليه. ـ يحكّ عود ثقابٍ، ويشعل لفافةً وضعتها المرأة في فم « نوما ». أخذ هذا يسحب غبّاتٍ طويلةٍ. يمسك بلفافته فيما بين أسنانه، ويطرد الدّخان من أنفه،

ـ عن هذا جئت أبحث، لا عن أيّ شخصٍ آخر.

ـ حسناً، قال الجامايكي. الشأن شأنك إذا لم تكن تعرف مهنتك. فعلت أنا ما كان عليّ أن أفعل، أنا حرّ.

ـ أجل، قال الملازم الأول. أنت حرّ.

ـ الجياد، سيدي الملازم، قال « ليتوما » ممسكاً بأعنّة خمس دوابٍ.

ـ ارفعه على جوادك، يا « ليتوما »، قـال الملازم الأول. سيـذهـب معك.

يرفع الرقيب وجنديّ آخر « نوما »، وبعد أن يفكّا قدميه، يجلسانه على الجواد يصعد « ليتوما » خلفه. يقترب الملازم من الجياد ويمسك بعنان

جواده.

« قل لي إذن، يا ملازم، وأنا، مع من أذهب؟.

ـ أنت؟ قال الملازم واضعاً إحدى قدميه على الرّكاب. أنت؟

ـ نعم، قال الجامايكي. من تريد أن يكون؟.

ـ أنت حرّ، قال الملازم الأول، ليس لك أن تأتي معنا. يمكنك أن تذهب حيث تشاء ». يقهقه « ليتوما » والجنود الآخرون، وهم على ظهور جيادهم.

ـ ما هذه المزحة؟ قال الجامايكي ـ يرتعش صوته ـ لن تتركوني هنا، أليس كذلك، يا سيدي الملازم؟ إنكم تسمعون تلك الأصوات في الدّغل. أنا سلكت سلوكاً حسناً. فعلت ما كان عليّ أن أفعل. لا يمكنكم أن تفعلوا هذا بي.

ـ إذا أسرعنا، يا رقيب « ليتوما »، قال الملازم الأول، فسنبلغ « بيورا » عند الفجر. يحسن في الصحراء أن يسافر المرء ليلاً. فالجياد تتعب أقل.

ـ سيدي الملازم، يصرخ الجامايكي، وقد أمسك بأعنّة جواد الضابط، وجعل يهزّها باهتياج، لن تتركوني هنا! لا يمكنكم أن ترتكبوا عملاً رهيباً كهذا!

يستخرج الملازم الأول إحدى قدميه من الرّكاب، ويدفع الجامايكي بعيداً. يقول:

ـ يتوّجب علينا أن نسير عدواً من حينٍ إلى حينٍ. هل تظن أنها ستمطر، يا رقيب « ليتوما »؟.

ـ لا أظن ذلك، سيدي الملازم. فالسماء صافية.

ـ لا يمكنكم أن تمضوا بدوني! زعق الجامايكي بأقصى صوته.

تنفجر السيدة « مرسيديتاس » ضاحكةً ، وهي تمسك معدتها .
« هيّا بنا ، قال الملازم .
ـ يا ملازم! صرخ الجامايكي. أتوسّل إليك. يا ملازم! » .

تبتعد الجياد ، ببطء . والجامايكي يحدجها ، مذهولاً . يضيء نور المصباح سحنته المقلوبة . تتابع السيدة « مرسيديتاس » الضحك بنحوٍ ضاجٍ ، وعلى حين غرّةٍ ، تسكت . ترفع يديها إلى فمها مثل مكّبر للصّوت ، وتصيح :

ـ « نوما »! سآتيك يوم الأحد بالفواكه.
ثم تعاود الضحك بقهقهاتٍ عظيمةٍ. وفي الدّغل الصغير ترتفع جلبة أغصانٍ وأوراقٍ ميتةٍ تتقصّف.

الثروة

پول مرسييه (فرنسا)

Paul Mercier (France)

★ پول مرسييه : كاتب فرنسي معاصر .

جلس « دافيد بور » (David bor)، وابتسم، وطرق موضوعه بنحوٍ مباشر:

ـ حضرة رئيس البلدية، تعرف أنت من أمثّل، فقد أوضحت لك ذلك على الهاتف.

فأجاب محادثه وبصوته بعض الاحترام:

ـ لهذا أجّلت اجتماع مجلسي البلدي، الذي كان يفترض عقده الآن، لأستقبلك فوراً.

وبحركةٍ من الرأس، عرف « دافيد بور » كيف يظهر شكره لرئيس البلدية عن لطفه، وفي الوقت ذاته أفهمه أنه لو اتخذ موقفاً مغايراً، لتبدّى له ذلك عسير التصديق. ثم إنه تابع بالابتسامة ذاتها:

ـ في سبيل تنظيم أسباب راحته الشخصية، يرغب السيد « ج.س. غولدتو » الثالث، منذ سنيّ الثلاثين ـ أي، لعَمري، منذ خمس سنواتٍ! ـ في أن يدع لي هذه الأمور كليةً. ويشرّفني أنني لم أخن ثقته قط.

وأرجو، هذه المرة أيضاً، ألاّ أخيّب أمله. والواقع...

كان على وشك أن يتابع إلاّ أنه فكّر أن هذا القاضي الأول في مدينة صغيرة من مدن «فلوريدا»، على الرغم من تأكيده أنه يعرف، (بل يعرف حتماً، شأن ٩٩٩ أمريكي من كل ١٠٠٠٠)، من يكون «ج. س. غولدتو» الثالث، فقد يجهل نقاطاً معينة ذات أهمية مؤكدة. فما كان من «دافيد بور»، الذي لا يزال شاباً، إلاّ أن غيّر بنعومة لا تدرك من لهجته، وانزلق بها وجهة التسار:

- يتوجّب على المرء أن يعيش يومياً قرب السيد «غولدتو»، ليفهم كيف يحيا رجل مثله. صدّقني إنها حياة لا نتمناها لأنفسنا، لا أنت ولا أنا. لا بدّ من القول إنه غنيّ، بل غنيّ جداً. ولا بدّ من القول إنه يتعامل مع معظم كبار رؤساء الدول، كقوةٍ تواجه قوةً. بل لقد كان الأمر يتعلّق بكلمةٍ منه، قبل سنتين، لو رغب في أن ينتخب لمنصب سيناتور، وقد ضغط عليه أصحابه لهذا! وكان انتخابه للرئاسة فيما بعد يأتي من نفسه. إلاّ أنه لا يهتم بالسياسة إلاّ كعنصرٍ من عناصر نجاحه المالي: فالسياسيون يخدمونه، ويقوم هو باستخدامهم. وهو لا يفكر قط بالانخراط في صفوفهم. بل يكتفي أن يكون فقط، وعلى وجه التخصيص، رجل مال. ولكن، رجل مال من الصنف الذي يدعى في الساعة الثانية، أو الثالثة، أو الخامسة صباحاً، من «جوهانسبرغ»، «طوكيو»، «لندن» أو «ساو باولو». من ذاك الصنف من الرجال الذي، إذا ما أُوقظ على حين غفلةٍ، عليه في الحال أن يتّخذ قرارات ترتقي إلى آلاف وآلاف الدولارات، في الحد الأدنى. إن حال هذا الرجل الأربعيني الذي لا يبدو عليه الآن أنه أكبر من سنّه، رغم هذه الدرجة من الإستهلاك العصبي، لتدل على قدرٍ رفيعٍ من التوازن الجسماني والعقلاني.

ـ يقال أيضاً إنه تزوّج عدة مراتٍ...

وافق « دافيد بور » على هذا التساؤل الذي ألقاه رئيس البلدية:

ـ خمس مراتٍ. لكنّ ذلك، في الحقيقة، لا يدخل أبداً في الحساب. فكل من تلك المغامرات الخائبة انتهت بمرتّباتٍ معاشية، قد تقلّ أو تكثر. وهي في الواقع نقطة ماءٍ في محيطٍ. محيط يخلص إلى أن يجرف كل تلك المخلوقات الشرهة للمال، والتي لم يكن مستر « غولدتو »، آخر الأمر، يعيرها سوى اهتمامٍ عابرٍ.

بدا على حين غرّةٍ كما لو كان سماع هذا النقاش حول شخصيةٍ بارزةٍ على المستوى القومي، كشخصية مستر « غولدتو »، قد ضايق رئيس البلدية. فما كان منه إلاّ أن أعاد إشعال السيغار الضخم الممضوغ، الذي كان يقلّبه بين أصابعه منذ دخول زائره. ثم أبدى وهو لا يدري ما يقول: هذه الملاحظة السطحية:

ـ إنه ليصعب عليّ أن أصدّق أن السيد « غولدتو »، الذي يسعه ألا يحرم نفسه من شيءٍ، لا يحب سوى المال...

ـ ليس المال، يا حضرة رئيس البلدية! (هكذا صاح « دافيد بور » مندهشاً). بل الأرقام! النجاح! أعني النجاح دونما تعلّق به... خذ مثلاً، إنني لا يدهشني أن أراه يوماً، وقد سحق خصماً له، وهدمه، أن يعيد له دينه كله، وأن يعينه على معاودة الصعود، ولكن...

وبالسبّابة، أشار إلى أنه بعد هذا الاسترسال السطحي، قد آن الأوان للدخول أخيراً في موضوع اللقاء الذي يجهله رئيس البلدية. وعلى ذلك،

عاد « دافيد بور » إلى القول :

ـ للسيد « غولدتو » ولع آخر ، ولع مضاعف آخر : ولع بالجمال ، وولع بالمناظر الطبيعية . فحياته المثقلة بالجهد يجب أن تتخللها فترات ـ قصيرة جداً مع الأسف ! ـ من الراحة ، يكون فيها وحيداً ، أو شبه وحيدٍ ، أمام الطبيعة . وهذا سبب وجودي هنا .

فما كان من رئيس البلدية إلاّ أن انتفض كالملسوع . فهو ليس بالأحمق ، وما كان يقال له لتوّه يوحي بتعقيداتٍ ، ومتاعب ما أنزل الله بها من سلطانٍ . بل هو يوحي بما قد يكون أخطر من هذا ، (فما من شيء يمنع آخر الأمر ، من قتل كبار الرّجال في هذا العالم ، خارج مقاطعة التكساس) . على أن « دافيد بور » ليس بالأبله أيضاً ، فقد قرأ ما يدور في ذهن محادثه كما يقرأ المرء في كتابٍ مفتوحٍ ، فرفع يده :

ـ أرى يا حضرة رئيس البلدية ، أنك قد فهمتني . أجل ، فبعد أن ضربت ذات اليمين وذات اليسار ، وجدت أنّ الشاطىء المشرف على خليج « المكسيك » والتابع لبلديتكم يمكن أن يكون الموضع المثالي لأيام العطلة الأربعة التي سيخص بها مستر « غولدتو » نفسه قبل نهاية الشهر ، برفقة بعض الخلّص من أصحابه .

فتساءل رئيس البلدية قلقاً :

ـ بعض الخلّص ؟ كم عددهم ؟

ـ ايه ، مئة وخمسون على أكثر حدٍّ ، أجاب « دافيد بور » بلهجةٍ هوائيةٍ .

فاعترض رئيس البلدية في بارقة فزعٍ :

ـ ولكننا لسنا مجهّزين لمثل هذا الـ...

قال « دافيد بور »، بشيءٍ من الضيق:

ـ دعني أتكلم. سأحاول الاختصار، وهذا في مصلحتنا نحن الإثنين. إنّ الشاطىء الشرقي من ولايتك لا يهمّ السيد « غولدتو »، فهو يعرفه جيّداً. لذلك نظرْت جهة الغرب. هنالك وقفت متحيّراً ما بين « أبلاشيكولا » ومنطقتكم في « كاربور ». وقد بدت لي البلاجات في كلتا المنطقتين جذّابةٍ بدرجةٍ متساويةٍ. ولكن، في المنبسط في « أبلاشيكولا »، ثمة جزر تقطع منظر الخليج. لهذا اخترت « كاربور »، أو على الأقل جوارها القريبة، لاستقبال مستر « غولدتو » ومدعوّيه، من الآن وحتى الخمسة عشر يوماً المقبلة. « وكاربور » ليست مجهولةً، هذا مؤكد. لكن حضور مستر « غولدتو » لا يمكن بالطبع إلاّ أن يخدم دعايتها.

اعترض رئيس البلدية قائلاً:

ـ صحيح، لكنّ البلاج ليس مهمّاً. أعرف « اوستراليّاً » مرّ من هنا، وقال لي إن رماله تشبه رمال جزيرة الصنوبر، في مكانٍ ما من « زيلندة » الجديدة أو من « كاليدونيا » الجديدة، فيما أعتقد. وفيما عدا ذلك، لا يوجد شيء، كيف تريد في خمسة عشر يوماً أن يسعنا بناء فندقٍ يليق بمستر « غولدتو » وأصدقائه؟

ـ لماذا؟ تساءل « دافيد بور » برقّةٍ بالغةٍ.

ـ لماذا، يا سيدي العزيز؟ لأنّ كل عمليةٍ تفترض توّفر حد أدنى من الوقت و (بزفرةٍ خارجةٍ من الأعماق) المال! الكثير، الكثير من المال!



عند هذه النقطة من المحادثة، انتزع دافيد بور نفسه عن المقعد، فتناول سيكارةً، واستدار على نفسه، وجعل ينظر عبر النافذة متأملاً السماء الرائعة التي تنجلي عنها «فلوريدا» في هذا الفصل. حتى إذا عاد إلى الأرض، استدار ثانيةً وجهاً لقفاً،، وقاس عرض الهوّة التي تفصل إلزاماً فيما بينه كرجل نيويوركي، وبين ساكنٍ محليٍّ من أهل كاربور، فألقى:

ـ أفهم كلامك عن المال، يا حضرة رئيس البلدية. وأنا، على عكسك، لا أستوعب حشرك موضوع الزمن، لأن التجربة تثبت أنّ المال يكيّف الزمن، ويبلغ أحياناً أن يلغيه. على أنّ القضية ليست هنا. فرغم المقالات، والكتب، (وتمثّل أطناناً ضخمةً!)، التي كتبت عن مستر «غولدتو»، ألاحظ، وأنكر، جهلك بوجهٍ بارز كوجهه. مستر «غولدتو» رجل ذو ميولٍ بسيطةٍ، يا حضرة رئيس البلدية! غير أنني عندما أقول: إيواء تردّ عليّ: قصر. إنّ الأمر لا يعني هذا قط! فكل ما هنالك، وما أفكّر به للأيام الأربعة التي تحدثّنا عنها، وللمئة وخمسين أو المئتي شخص الذين سيجرّهم مستر «غولدتو» في ركابه، هو بناء مئة وعشرين كوخاً من القش، لا أكثر. إذ سيكون هنالك رغم كلّ شيء عدد من الأزواج. والأكواخ التي أعنيها من نوع أكواخ معسكرات الاصطياف. وبالطبع مكيّفة الهواء ومجهزة بالدوش. بل إنه ليس من الضروري وجود غرف استحمامٍ. تماماً كما أقول لك: معسكر اصطياف!

يضاف إلى ذلك سقفان كبيران، يرتفعان على أعمدةٍ بسيطةٍ، بلا جوانب، يضم أولهما منهلاً، وموائد قمار، ويضم الثاني مطعماً. وبعد انصرافنا، تتصرّفون كما تشاؤون بهذه التجهيزات كلها. والبناءان المشيدان من قطعٍ مصنوعةٍ على نحوٍ مسبقٍ، لن يضيرا، إلاّ بصورةٍ

خارجيةٍ، مشهد أشجار النخيل والقصب، وسيبقيان صالحين سنتين أو ثلاثاً. ولعمري فوجودنا على شاطئكم سيكون دعايةً، وستدفع كثيرين من هواة عطل نهاية الأسبوع لاستئجار المبنيين والأكواخ، الأمر الذي يوفر لبلديتكم على الأقل ما تصلح به أرصفتها، وهو أمر - بيني وبينك - لن يكون من باب البذخ، ولكن، ما بالك، ما بك يا حضرة رئيس البلدية؟

كان القاضي الأول في «كاربور» رجلاً كثيفاً، بالغ التغذية، ويبدو أميل إلى سرعة الاستثارة، ولكن الصرعة لم تكن قط متربصةً به شأنها في تلك الدقيقة. ولما كان «دافيـد بـور» (الذي تنبّـه إلى ذلـك)، يعيـد ويكرّر: «ولكن، ما بالك، ما بك يا حضرة رئيس البلدية»؟، فقد أمكن أن ترشح منه الكلمات التالية:

- تهانيّ... لمستر «غولدتو»... لحسن اختياره مساعديه.. هذه هي.. المرة الأولى.. التي يظن بعض الناس أنهم يفرضون عليّ فيها إنفاق...

وأعاد إليه الغضب أنفاسه:

-... إنفاق أموالٍ في مقابل ماذا؟ مقابل احتمال ارباحٍ رجراجةٍ، إذ إن شاطئنا هذا لم يتردّد عليه انسان قط، فيما عدا البنات الساقطات، والشبّان الرديئين ممّن تحاول شرطتي وتجهد لمنع التقائهم!

ترجمت تكشيرة صغيرة عن الأحاسيس التي استثارها عدم الفهم المطبق هذا في نفس «دافيد بور». ودون مداراةٍ منه أو تقنيعٍ لاحتقاره:

- بم تزقزق هنا؟ من ذا يطلب منك دفع نفقات تسلياتنا؟ أنا أدفـع.

وليس عليك أن تنفق فجلةً. بل لن يقع عليك حتى أن تجيّش شرطتك. ففرقنا الخاصة بالأمن ستسهر على إبقاء أرذالك المحليّين على بعدٍ كافٍ.

ـ ضمن هذه الشروط، أجاب رئيس البلدية...

ـ تلك هي شروطنا العادية.. بهذا حسم «دافيد بور» الكلام، ثم عبّ من لفافته، واستدار وابتسم، وأخيراً اقترح تطريةً للجوّ:

ـ ما إن نخرج، حتى نشرب نخب اتفاقنا.

فحدجه رئيس البلدية بنظرةٍ، وأخذ وقتاً، ثم قال:

ـ هذا، يمكن أن نفعله هنا.

وفتح أحد أدراج مكتبه الأخيرة، فأخرج كأسين وزجاجة نبيذ بوربون، فتحها بأسنانه. ثم ملأ الكأسين كما لو كان يصبّ ماءً معدنياً، وقدّم أحدهما «لدافيد بور»، وأمسك بالآخر براحة يده كلّها، ورفعه إلى ارتفاع عينه، وهدر: «Here'sto you!» ثم خلص إلى القول:

ـ حسناً، يا سيد، اعتقد أن قضيتنا قد حلّت بشكلٍ مرضٍ ومنسجمٍ.

ـ وبالتأكيد، وافق «دافيد بور» الذي عاد إلى حسه المدني المعتاد. ولكن، مع ذلك، ضمن تحفظٍ يخصّ بعض التعديلات في التفاصيل... منذ أن أحصل على موافقتك.

قال رئيس البلدية:

ـ لنر ما تكون..

بدأ منظم العطلات الخاصة بالسيد «غولدتو»:

ـ بالدّرجة الأولى: الرمل.

فصرّ رئيس البلدية على فكيّه، ثم:

ـ ما به، رملي؟ إنه، كما ذكرت لك، من أنعم رمال الدنيا.. بودره حقيقية!

وافق المبتسم أبداً، دافيد بور »:

ـ لقد خبرت جودته، ومرونته، ونعومته. لكن مستر «غولدتو» لا يطبّق سوى صنف من الرمل وردي ـ أحمر لا يوجد إلاّ في المملكة العربية السعودية، عند أطراف «جدّة». فإذا لم يكن لديك اعتراض ما، فبمقدورنا أن نجلّل الشاطىء به. ايه! طبقة من ثلاثة أو أربعة سنتيمتراتٍ، من أجل العين، وتحتها تكتشف القدم نعومة البودرة كما تقول، أي الرمل الأصلي.

فغمغم رئيس البلدية:

ـ إذا لم يكلّفنا ذلك شيئاً... قل، لا شيء إطلاقاً، أليس كذلك؟ إذن، فليكن... ولكن كيف عسى تتمكن البواخر من نقل...

ـ طائرات، يا حضرة رئيس البلدية! لا بواخر. نحن نطير، نحن لم نعد نزحف. لكنّك حتماً على عجلةٍ من أمرك. لننته إذن بسرعةٍ من الزهور، والبحر، والسماء.

هنا، جمدت الدهشة رئيس البلدية.

ـ ها؟ أتراك ستغيّر أيضاً ذاك كله؟

فصحّح «دافيد بور» بحركةٍ مباركةٍ:

ـ ايه، إلى حدٍّ ما. اسمع! إنّ مستر « غولدتو » يفضّل صنفاً من الورود لا ينمو إلاّ في أطراف « مانيلا ». سنوعز بإحضار بضع مئاتٍ من حزم هذا الورد من « الفيليبين »، وننتهي من هذا الأمر. وذلك دون أن تدفع من جانبك، يا سيدي رئيس البلدية، درهماً واحداً، ما دامت هموم الفوائد البلدية، تشغل فؤادك بهذه الدرجة من القوة. كما إنك لا تدفع شيئاً من أجل البحر.

تحت تأثير الدهشة، باتت هامة رئيس البلدية تذكر المرء برأس ضفدعٍ:

ـ البحر؟ البحر؟ هل تراه لا يعجبك؟

ـ إنه يسخر منّي، (قال « دافيد بور »). بنقطةٍ تفصيليةٍ، أو مسحةٍ إضافيةٍ. فمستر « غولدتو » يجب أن يجد في بحره انعكاساً بلون زنجاريّ خاص بعض الشيء. مرةً أخرى، لا تشغل بالك. فلدينا عقد مع (سلاح البحرية في الولايات المتحدة) بهذا الخصوص. ففي اليوم المطلوب، ومهما كانت المدة، ترسل البحرية نفراً من رجال خفر السواحل فيصبّون كلّ صباح النّسب اللازمة من اللون المطلوب.

ـ أما عن السماء، (تابع رئيس البلدية بسخريةٍ مقصودةٍ)، فافترض أن (سلاح الجو الأمريكي) سوف يتولى أمرها؟

ـ هيه، لا تهتم: سحابة اصطناعية تنتشر بصورةٍ عامودية فوق الشاطىء، وتصبح سماؤكم مثاليةً، لو لم تكن، في هذا الفصل، متماثلة الزرقة إلى هذه الدرجة. ومستر « غولدتو » لا يطيق رؤية جوٍ لازورديٍّ... بلا دنسٍ، إن كنت أستطيع قول ذلك. لكي نكسر هذا اللون إلى حدٍّ،

يلزمه تدخّل سحابة. من هنا، جاءت فكرة إرسال طائرةٍ، مرتين أو ثلاث مرّات في اليوم، على علوٍ مرتفعٍ جداً فلا تسمع، تقوم بنثر ذرات سحابتها، وتجميدها، (ولا أعرف تماماً في الحقيقة ما الذي تصنعه، لكنّ السحابة تظهر هناك، على شكل بيضاويّ كالمطلوب، وبيضاء كما يجب أن تكون)، ومن ثم، تغيب.

وأخذ يفرك يديه، منهياً كلامه:

ـ هو ذا. لا شيء أكثر من ذلك. هل ترانا لا نزال متّفقين؟

ـ من حيث المبدأ، نعم، (قال رئيس البلدية، وعيناه إلى السقف، وأضاف:) لكنني أخشى ألاّ يكون من السهل عليّ اقناع أعضاء مجلسي.

فما كان من «دافيد بور» إلا أن عرض على الفور:

ـ لعلّ منحةً تقدمها إلى الأعمال الخيرية في المدينة قد تزيّـت بعض الدواليب؟.. ولكن ما هو المبلغ؟ إنني أسألك كصديقٍ.

تمهّل رئيس البلدية بعض الوقت، ثم قدّم رقماً.

ـ إن أعمالكم الخيرية شرهة، (لاحظ دافيد بور). هيه، لكنّ راحة مستر «غولدتو» تستحق تضحيةً طفيفةً.

وسحب دفتر شيكاتٍ من جيب بنطاله الخلفي، وقلم حبر، وسجّل الرقم الذي (أوحى له به) ثم سأل:

ـ أحرّر الشيك باسم من؟

ـ باسمي أنا، (أجاب رئيس البلدية، ثم تابع:) حسناً، والآن نحرّر رسائل ونتبادلها. على أقل تقديرٍ، لكي نثبت أنه لن يقع عليّ، أعني، لن يقع على «كاربور»، إطلاقاً، إنفاق «سنتٍ» واحدٍ.

أجاب « دافيد بور » ببساطةٍ:

ـ يا لك من رجلٍ منعدم الثقة.

★ ★ ★

بعد خمسة عشر يوماً، برز حوالي مئة كوخ إصطياف محبّبٍ على النمط « البولينيزي » من رملٍ يذكّر بجلود ثعالب باذخةٍ، وازدهرت في كل مكانٍ ورود أرجوانية. ومع زرقة البحر المحوّرة بنحوٍ طفيفٍ، جعل يتجاوب عالم من الزرقة الإضافية، زيّنت في قمتها بسحابةٍ متكاملةٍ هندسياً.

كان معظم مدعوّي « ج.س. غولدتو » الثالث ما انفكّوا يفكّون حقائبهم، عندما كان هو بجسمه البطولي، الملوّح بالشمس مرتدياً مايوه سباحةٍ بسيطاً، يرافقه صديق غطس معه لتوّه غطسةً سريعةً بين الأمواج ـ كان يتجه نحو المنهل.

والتفت، قبل أن يدخله، فتأمّل المشهد أمامه، ومكث صامتاً، ثم أسرّ لرفيقه، مع حركةٍ بيده تدلّ على الإعجاب.

ـ عندما يرى المرء طبيعةً بهذه الروعة، وتوازناً في الأشكال والألوان بهذا الكمال، وحين يستنشق عطوراً كهذه على درجةٍ رفيعةٍ من طلاوة المزج، تضاهي عطور البحر والورود، لا يملك إلاّ أن يقول لنفسه...

فما سكت الملياردير، حتى ردّ له الآخر الكرة:

ـ يقول ماذا؟

- إيه، (ردّ ج.س.غولدتو الثالث) ببساطة هذا: آخر الأمـر، مـا فائدة الثروة؟

الجسور السبعة

يوكيو ميشيما (اليابان)

Yukio Mishima (Japon)

★ يوكيو ميشيما : ولد في طوكيو عام ١٩٢٥ ، وانتحر عام ١٩٧٠ ، أحد أشهر الروائيين الذين أنجبتهم اليابان المعاصرة. أعماله الأدبية منوعة وغزيرة : دراسات ، مسرح روايات قصص .

في الساعة الحادية عشرة والنصف، ليلة اكتمال القمر من شهر أيلول، ومذ تفرّق ضيوف السهرة التي قامت فيها « كـويـومـي » (Koyumi) و « كانـاكـو » (Kanako) بـدورهما كمضيفتين، رجعـت الاثنتـان إلى « منزل الغار » وارتدتا الكيمونو القطني. كانتا تـؤثـران الاستحمام قبـل معاودة الذهاب، إلا أنهما لم تكونا تملكان الوقت لذلك.

كانت « كويومي » في الثانية والأربعين من العمر، ممتلئة وقصيرة، لا تكاد تبلغ متراً وستين سنتيمتراً، وتحزم نفسها في كيمونو أبيض ذي تزويقة سوداء (« وكاناكو »)، الجيشا الأخرى، رغم أنها لم تتعدّ الثانية والعشرين، وأنها راقصة جيدة، لم يكن لها حامٍ، فكأنما كتب عليها ألاّ تقع على دورٍ مناسب في حفلات الرقص السنوية، التي تقيمها الجيشات في الربيع وفي الخريف. كان كيمونها من الكريب التخين الأبيض مطبّعاً بحلزونيات بلونٍ أزرقٍ بحريّ.

قالت « كاناكو »:

ـ « أتساءل هذا المساء عمّا رسمه (دي كيمونو دو ماساكو ؟.

ـ ورق النفَل ، بالتأكيد . فهي تريد لنفسها ولداً .

ـ هل مضت إلى النهاية ، إذن ؟ .

ـ لكن ههنا المشكلة . بالضبط لا ، أجابت كويومي . ما انفكّت بعد ، بعيدة عن بلوغ ذلك . يليق بها تماماً دور العذراء مريم ـ فيكون لها ولد من رجل لمجرد أنها راغبة » ! .

تؤمن نساء الجيشا جميعاً بالخرافة القائلة إنّ المرأة التي ترتدي كيمونو صيفياً يحمل رسم نفَلٍ ، أو منظرٍ طبيعيٍّ لا تلبث أن تحمل .

حين باتتا متهيّئتين للخروج ، شعرت « كويومي » فجأة أنـها جائعة . كان ذاك أمراً يصيبها كلّما خرجت في دورتها للحفلات ، غير أنّ حاجة الأكل تلك كانت تتمثّل لها دوماً ككارثة غير متوقّعةٍ ، تهبط عليها من السماء . لم تكن تأبه للجوع قط حين تكون في مواجهة الزبائن ، مهما تكن السهرة مملّة . ولكن قبل أن تلعب الدّور ، أو بعده ، يمسك الجوع الذي نسيته بتلابيبها فجأةً ، شأن الأزمة العصبية . لم تكن « كويومي » تحتاط أبداً ، فتأكل كما يجب أن تفعل في الوقت الملائم . ففي أحيانٍ مثلاً ، حين تذهب مساء إلى الحلاق ، كانت ترى الجيشات الأخريات يطلبن وجبةً ، ويتلذذن بها في انتظار دورهن ، إلاّ أن « كويومي » لم تك تأبه لذلك . بل لم تك تتساءل ما إذا كان طبق الأرز باللّحم ، أو أي طبقٍ آخر ، طيّب المذاق . ومع ذلك فما تنقضي ساعة ، حتى كان الجوع يداهمها على حين غرّةٍ ، فتحسّ باللّعاب يفرق أسنانها القصيرة المتينة ، مثل نبعٍ ساخنٍ .

كانت « كويومي » و « كاناكو » تدفعان شهرياً لـ « منزل الغار » عن وجبات طعامهما ودعايتهما . كانت فاتورة طعام « كويومي » على الدوّام مرتفعة بنحوٍ شاذٍّ . إذ لم تكن مفرطة في الطعّام فحسب ، بل كانت

كذلك متشدده. إلاّ أنها في الحقيقة، مذ تعودّت عادتها الغريبة بألا تجوع إلاّ قبل الحفلات وبعدها، تناقصت فواتيرها شيئاً فشيئاً، وتعرّضت للهبوط إلى ما دون فواتير « كاناكو ». ولا تتذكر « كويومي » متى بدأت تلك العادة الغريبة، ولا متى انزلقت للمرة الأولى إلى المطبخ قبيل الحفلة المسائية الأولى لتسأل، وهي تكاد تتحرّق تلهفاً: « أليس لديكم ما آكله »؟. وقد اعتادت الآن تناول وجبة مسائية في مطبخ البيت الذي تقام فيه الحفلة الأولى، ووجبة عشاء حيث تقام الأخيرة. وتلاءمت معدتها مع هذا النظام، وتناقصت نتيجة ذلك قوائم حساب طعامها في « منزل الغار ».

كانت جادة « جينزا » (Ginza) قد فرغت حين اتّخذت سيدتا الجيشا طريقهما باتّجاه « منزل يوني » (Yonei) في « شمباشي ». أشارت « كاناكو » إلى السماء فوق مصرف تحمي نوافذه سجف معدنية. « نحن محظوظتان، أليس كذلك؟ إن المرء ليرى ـ هذا المساء ـ الإنسان في في انتظارهما. وكانت ترتدي، حسبما قدرت كيمونو ذا رسوم من أوراق الـ « يوني » والأخيرة في « فومينويا » وقد أحسّت الآن أنه كان عليها أن تتناول عشاءها في « فومينويا » قبل مغادرته، إلاّ أنّ الوقت لم يسعفها من أجل ذلك. كانت قد هرعت إلى « منزل الغار » لتغيير ملابسها. سوف تضطّر لطلب العشاء لدى وصولها إلى الـ « يوني » في المطبخ ذاته الذي سبق لها أن تناولت فيه وجبتها المسائية. كانت تلك الفكرة تثقل عليها.

غير أن قلق « كويومي » تبدّد منذ تجاوزت عتبة مطبخ الـ « يوني ». كانت « ماساكو » (Masako)، ابنة المالك المدلّلة جداً، واقفةً في المدخل في انتظارهما. وكانت ترتدي، حسبما قدرت كيمونو ذا رسوم من أوراق النّفل. فما رأت « كويومي » حتى وسعها الوقت لتصيح: « لم أكن أتوقع

قدومكما في مثل هذا الوقت المبكّر. لسنا على عجلةٍ ـ تعالي كُلي قطعةً قبل المسير ».

كان المطبخ مبقّعاً ببقايا حفلات المساء. وأكداس هائلة من الأطباق والزبادي تلمع تحت الضوء القاسي للمصابيح العارية. كانت « ماساكو » واقفةً في فتحة الباب، وإحدى يديها مستندةٌ على إطاره، وقامتها تحجب الضوء، ووجهها في الظلّ. لم يكن وجه « كويومي » مضاءً بدوره، فسرّها أن ترى تعبير الانفراج عليه، حين دعتها « ماساكو »، مرّ دون أن يفطن إليه أحد.

أثناء تناول « كويومي » العشاء، قادت « ماساكو » « كاناكو » إلى غرفتها. إذ من بين جميع الجيشات اللواتي كنّ يحضرن إلى منزل « يوني »، كانت كاناكو تلك التي تتفاهم معها أكثر من الأخريات. كانت هي « وماساكو » في السنّ ذاتها، وكانتا قد ارتادتا المدرسة الابتدائية معاً، وهما على قدرٍ متساوٍ من الجمال تقريباً. غير أنّ ما يدخل في الحسبان أكثر من تلك الأسباب جميعها، انّ « كاناكو » كانت تروق لها بما فيه الكفاية.

كانت « لكاناكو » هيئة هي من الهدوء بحيث يخال المرء أن أقلّ نفخةٍ تذهب بها، إلاّ أنّها اختزنت وجوه التجربة اللاّزمة لها، وكلمةً واحدةً منها، تلفظها باستخفاف، كانت تعود على « ماساكو » أحياناً بقدرٍ عظيمٍ من النفع. ومن جهة أخرى، كانت الحماسية « ماساكو » طفوليةً وخجولةً، عندما يجري الحديث عن الحبّ. كان الجانب الطفولي فيها معروفاً لدى الجميع وكانت أمها تثق ثقةً عمياء ببراءة ابنتها، بحيث لم يساورها الشكّ حين أوصت « ماساكو » لنفسها على كيمونو موشّى

بالنّفل. كانت « ماساكو » طالبةً في معهد الفن بجامعة « واسيدا ». وقد أعجبت على الدوام بـ « ر. » (R.)، ممثّل السينما، إلاّ أنه منذ حضر إلى الـ « يوني »، ازدادت شغفاً به. وقد باتت غرفتها الآن مزدحمةً بصوره. كانت قد كلّفت من قام بطبع صورةٍ له على إناء من الخزف تمثُل فيها إلى جانبه، أُخذت يوم مجيئه الذي لا ينسى. كان مليئاً بالأزهار، ويتيه فوق مكتبها.

قالت « كاناكو » حين جلست: « وزّعوا اليوم قائمة الأدوار ». كان فهمها الصغير الدقيق متغضّناً. « حقاً؟ قالت « ماساكو » محزونةً، مبديةً عدم المعرفة.

ـ ليس لي إلى الآن سوى دورٍ صغيرٍ جداً. ولن يكون لي قط أفضل من ذلك. إنّ ذلك كفيل بأن يحطّ من عزيمتي نهائياً. أبدو في نظر نفسي كفتاة مرقصٍ، ترى السنين تنقضي، فيما تبقى هي في الجوقة.

ـ أنا واثقة من أنّك ستحظين في السنة المقبلة بدورٍ جيدٍ جداً.

هزت « كاناكو » رأسها. « في غضون ذلك أهرم. وفي غفلةٍ منّي أصبح فجأةً « كويومي ».
ـ لا تتفوّهي بترّهاتٍ. أمامك عشرون سنةً أخرى ».

لم يكن من اللآئق أثناء تلك المحادثة أن تأتي أي من الفتاتين على ذكر فحوى الصلاة التي ستؤديّها ذاك المساء، إلاّ أن كلا منها كانت تعرف دون أن تسأل ما سوف تكون صلاة الأخرى. كانت « ماساكو » تطلب حبّ « ر »، و « كاناكو » حامياً طيّباً وتعرف الاثنتان أنّ « كويومي » تطلب المال.

كانت لصلواتهنّ أغراض متباينة، هذا واضح، لكنّها معقولة في الأساس. فإذا لم يستجب لها القمر، فهو المخطىء، لا هنّ. كانت أمنياتهنّ تقرأ بنحوٍ جليٍّ وشريفٍ على وجوههنّ، وتمثّل رغباتٍ جدّ إنسانيةٍ بحيث إنّ أيّ امرىء يلتقي النسوة الثلاث سائراتٍ في ضوء القمر، يقتنع حتماً أنه لن يكون من خيارٍ أمام القمر: لسوف يعترف بسلامة طويتهنّ، ويمنحهنّ ما تمنّيْن.

« معنا شخص آخر يرافقنا هذا المساء، قالت « ماساكو ».

ـ حقاً؟ من؟.

ـ خادمة. تدعى « مينا » (Mina)، وصلت منذ شهر من الرّيف. قلت للوالدة إنّني لست راغبةً في مجيئها معي، لكنّ الوالدة أجابت أنّها ستقلق إذا لم يرافقني أحد.

ـ كيف هي؟ سألت « كاناكو ».

في اللحظة ذاتها، فتحت « مينا » خلف الفتاتين مصراعي الباب المنزلقين ومدّت رأسها، وهي واقفة. فقالت « ماساكو » بلهجة جافّة:

« أظن أنه قيل لك إنك لدى فتح المصراعين المنزلقين، يفترض أولاً أن تركعي أرضاً، وأن تفتحيهما من بعد.

ـ نعم، يا آنسة » لم يكن يبدو في صوت « مينا » القاسي، والغليظ ما يحاكي حنق « ماساكو ». أمسكت « كاناكو » نفسها عن الضحك من هيئة « مينا ».

كانت تلبس فستاناً صنع من قطعٍ مجزّأة من قماش كيمونو. وقد أجرت على شعرها عملية كيٍّ شعّثته، وكان الساعدان الضخمان بنحوٍ

عجيب، والظاهران عبر الكمين، يماثلان بلونها الداكـن لـون الوجـه. وكانت ملامحها السميكة تختفي تحت خدّيها الضخمين، ولم تكن عيناها سوى شقّين. ومهما تغيّرت طريقة إغلاق فمها، فقد كانت تبرز منه سن، أو إثنتان من أسنانها غير المتحاذية! كان من العسير على المرء أن يميّز على وجهها أدنى تعبير.

« يا له من حارسٍ خاصٍ »! همست « كاناكو » في أذن « ماساكو ».

اتخذت « ماساكو » مظهراً صارماً. « هل أنت واثقة من أنك فهمت؟ قلت لك في الماضي، ألا إنني أكرّر الآن. منذ أن نضع القدم خارج المنزل لا تفتحي فمك، مهما حدث، قبل تجاوزنا كلاًّ من الجسور السبعة. كلمة واحدة وتحرمين من الحصول على ما ترومه صلاتك. فـإذا كلّمـك شخص من معارفك، فمن سوء طالعك، غير أنني لا أظن أنك تتعرّضين لمخاطر كبيرةٍ. ثم إنّ « كويومي » سوف تتقـدمنـا. ومـا عليـك إلاّ أن تتبعيها ».

كانت « ماساكو » قد قدّمت، في الجامعة، عروضاً تحليليةً لروايات « مارسيل بروست » (Marcel Proust)، ولكن لدى بلوغ ما يدور حوله الحديث، كانت التربية الحديثة التي تلقّتها في الصف تبارحها كلياً.

« نعم، آنسة »، أجابت « مينا ». لم يكن من الجليّ أبداً ما إذا كانت قد فهمت أم لم تفهم. « يجب أن تأتي في كلّ الأحوال. يمكنك أنت أيضاً أن تنوي. هل فكرّت بشيءٍ ما؟.

ـ نعم آنسة »، قالت « مينا »، مع بسمةٍ متمهّلةٍ.

إذ ذاك ظهرت « كويوسي »، مداعبةً معدتها بابتهاجٍ: « أنا جاهزة الآن ».

ـ هل أحسنت انتقاء الجسور لنا؟ سألت «ماساكو».

ـ نبدأ بجسر «ميوشي». فهو يجتاز ذراعين من النهر، لذا يحسب جسرين. أليس هذا مما يلائمنا؟ أنا خبيثة، يسعني قول ذلك.

أخذت النسوة الثلاث، اللّواتي يعرفن أنهن ما إن يضحين في الخارج، حتى يتوجّب عليهن الإقلاع عن التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ، بالتكلّم بصوتٍ مرتفعٍ وكلهّن معاً، كما لو كنّ مزمعات على التخلّص من تراكم قدر عظيمٍ من الثرثرة. وتابعن حتى باب المطبخ. كان قبقاب «ماساكو» ذو الطلاء الأسود ينتظرها على الأرض المطرقة قرب الباب. وحين دسّت قدميها العاريين في القبقاب، ألقت أظافرها المقصوصة والمنعّمة بعنايةٍ وهجاً خفيفاً في الظلمة.

هتفت «كويومي»: «يا للحسن! أحمر أظافر وقبقاب أسود ـ حتى القمر لن يقدر على مقاومة إغرائك!.

ـ أحمر أظافر! أفكارك عتيقة، يا «كويومي»!.

ـ أعرف الاسم. إنه «مانكان» أليس كذلك»؟.

تبادلت «ماساكو» و«كاناكو» النظر وانفجرتا ضاحكتين.

بلغت النسوة الأربع جادة شووا، تتقدمهنّ «كويومي». اجتزن باحة وقوفٍ أودعت فيها سيارات أجرةٍ كثيرةٍ، بعد نهاية يومها. كان ضوء القمر ينعكس على الهيكل الأسود للمركبة. وأصوات الحشرات الصارخة تسمع. كانت ما تنفك هنالك حركة سيرٍ كبيرةٍ في جادة شووا، إلاّ أن الشارع ذاته كان هاجعاً، فتبدو فرقعة الدّراجات النارية منعزلةً متوحّدة في غياب الضجيج المعتاد عن الشارع.

كانت بعض قزعات السحاب تنزلق في السماء تحت القمر، ومن فترة إلى أخرى كانت تلتحم بكتلة الغيوم الثقيلة المجاورة للأفق. كان القمر يتألق فما من شيء يحجب نوره. وحين يهن ضجيج حركة السير، كان طرق القباقيب يبدو كما لو أنه يتطاول من الرصيف حتى سطح السماء الصلب الأزرق.

كانت « كويومي »، السائرة في مقدّمة الأخريات، فرحةً إذ لم يكن أمامها سوى شارع عريض خالٍ. كانت « كويومي » تزهو أنها تدبّرت أمورها وحدها على الدّوام، وكانت مبتهجةً لأن معدتها ممتلئة. لم تكن تفقه، على فرحتها بالمسير، لم كانت شديدة الرغبة في الحصول على مزيدٍ من النقود.

كانت تحس أنّ ما تتمناه في الحقيقة هو الذوبان بغير نصب ولا سبب في ضوء القمر المنساح أمامها على الرصيف. كان ثمة نثار من الزجاج يلتمع على حافة الطريق. وفي ضوء القمر ذاته كان نثار من زجاج يلتمع ـ فتتساءل عمّا إذا كانت ما ترغب بامتلاكه دائماً لا يشبه نثار زجاجٍ.

كانت « ماساكو » و « كاناكو » تسيران فوق الظل الذي تلقيه « كويومي » خلفها، وقد أمسكت إحداهما بخنصر الأخرى. كان هواء الليل رطباً، وتشعر كلتاهما بنسمةٍ رخوةٍ تندسّ في أردانهما، فتجمّد وتوترّ نهودهما التي بلّلها تهيّج الانطلاق بالعرق. وبأصبعيهما المتشابكين كانت صلواتهما تتمازج ببلاغةٍ ما بعدها بلاغة، رغم إمساك اللسان عن الكلام.

كانت « ماساكو » تتمثّل في مخيلتها صوت « ر. » الرقيق، عينيه المديدتين اللّتين أحسن تصويرهما، والخصل على صدغيه، وإذا كانت ابنة

مالك مطعم من الدرجة الأولى في جادة « شيمباشي »، فيجب ألاّ تقرن بالمدلّهات الأخريات به ـ فلا تستبين، لم لا يستجاب دعاؤهـا. كـانـت تستذكركم كان نَفَس « ر. » رقيقاً حين كان يحدّثها، لا يحمل أيّ أثرٍ للكحول. كانت تستذكر ذاك النفس الفتيّ الفحل، المعفّر بفوح الكلأ المقصوص. وحين كانت تلك الذكريات تعاودها وحيدةً، كان ما يماثل الموجة يسري في جلدها، من ركبتيها حتى الفخذين. كانت على يقين ـ ومع ذلك على أقل ما يكون من اليقين ـ من وجود جسد « ر. » في موضعٍ ما من الدنيا، بمثل ما هي متيقنة من ذكرياتها المتكررة. وكان نصيب من الشك يعذّبها على الدوام.

كانت « كاناكو » تحلم برجلٍ غنيّ في متوسط العمر، وسمينٍ. يتوجّب أن يكون سميناً ليظهر في مظهر الغنيّ. لكم تكون سعيدة ـ هكذا كانت تحلم ـ لو انها إذ تغمض العينين، تحس بحمايته العريضة الكريمة تطوقها! كانت « كاناكو » قد اعتادت إغماض عينيها، إلاّ أنّ التجربة علّمتها حتى الآن أنهـا ما إن تفتحهما حتى يكون الرجل قد اختفى.

التفتت الفتاتان برأسيهما، كما لو أنهما اتفقتا على ذلك. كانت « مينا » تتقدّم صامتةً خلفهما، ويداها على خدّيها، كانت تتقدّم متعثّرةً، وتدوس في كلّ خطوةٍ على حاشية ثوبها. كانت عيناها مثبتتين في الفراغ بلا أي تعبيرٍ. وكانت « ماساكو » و « كاناكو » تريان في هيئة « مينا » قذفاً في حقّ صلاتيهما.

استدارتا يميناً في جادة « شووا »، تماماً في الموضع الذي تتلاقى فيه منطقتان من « جينزا » الشرقية. كان نور المصابيح الثابتة يرسم مـا يشبـه برك الماء على مسافاتٍ منتظمةٍ بمحاذاة المباني. وكان الظل يحرم الشوارع

الضيقة من ضوء القمر.

فما انقضت وهلة حتى شاهدن جسر «ميوشي» ينتصب أمامهن، وهو أول الجسور السبعة التي كان عليهنّ قطعها. كان مبنياً بنحوٍ غريبٍ على شكل حرف «إي» (I) اليوناني بسبب تشعّب النهر في هذا الموضع. كانت الأبنية الحزينة للإدارة المركزية للمنطقة تمتدّ على الضفّة المقابلة، والميناء الأبيض لساعة البرج يشير إلى الوقت إشارةً غير صحيحةٍ، عبثية في سواد السماء. يحفّ جسر «ميوشي» بحاجزٍ واطىءٍ قدراً ما، وفي كل ركنٍ من الجزء المركزي، حيث تلتقي الأجزاء الثلاثة من الجسر، ينتصب مصباح مثبت على النّسق القديم تسقط منه حزمة من المصابيح الكهربائية. ويحمل كلّ فرعٍ من الحزمة أربع كرات إضاءةٍ، إلا أنها لم تكن مضاءةً كلّها، وكانت المطفأة من بينها تلمع بلونٍ أبيض مطفأ تحت ضوء القمر. ومجموعات من الحشرات تتطاير من حول المصابيح.

كان ماء النهر مغسولاً بضوء القمر.

عند نهاية الجسر، قبيل تمام اجتيازه، ضمّت النسوة الشابات تحت قيادة «كويومي»، أيديهن لأداء الدعاء. انطفأ نور ضعيف في مبنى صغير قريبٍ خرج منه رجل أنهى لتوّه بغير شكٍّ ساعاته الإضافية، وغادر عمله آخر من غادر. كان يوشك على إغلاقِ الباب حين أبصر المشهد الغريب فتوقف.

أخذت النسوة الشابات، الواحدة بعد الأخرى، باجتياز الجسر. لم يكن ذاك سوى امتداد الطريق التي سلَكْنها بمرحٍ، غير أنهن في مواجهة جسرهنّ الأول تحيّرت خطاهنّ وثقلت، كما لو انهنّ وضعن القدم على

منصّة مسرحٍ. لم يكن قد تبقّى سوى بضعة أمتارٍ لبلوغ الذراع الأخرى للجسر، إلاّ أن تلك الأمتار القليلة بعثت فيهن شعوراً بالانتصار والعزاء.

توقّفت «كويومي» تحت مصباحٍ، وإذ استدارت جهة الأخريات، ضمّت يديها مجدّداً. قلّدتها النسوة الثلاث. حسب تقديرات «كويومي»، كان اجتياز جزأين من الأجزاء الثلاثة للجسر يحسب كاجتياز جسرين منفصلين. لذا يتطلب ذلك منهنّ أداء الصلاة أربع مراتٍ على جسر «ميوشي»، مرةً قبل، ومرةً بعد قطع كلٍّ من الذراعين.

كلما مرت سيارة تكسي كانت «ماساكو» تلاحظ وجوه الزبائن المشدوهة خلف زجاج النّوافذ، إلاّ ان «كويومي» لم تكن تعير ذلك أدنى انتباه.

لدى وصول النسوة الشابات أمام الإدارة المركزية، أدرن لها ظهورهن، وأدّين صلاتهن الرابعة. شعرت «كاناكو» و«ماساكو» بالارتياح لاجتياز الجسرين دونما حادثٍ، وعلى أنها لم تكونا قد أخذتا صلواتها مأخذ جدٍّ كبيرٍ، فقد بدأتا تعلّقان عليها أهميةً أساسيةً.

كانت «ماساكو» على ثقةٍ متناميةٍ أنها تفضّل الموت على ألاّ تكون مع «ر.» وقد ضاعف مجرد اجتياز الجسر رغباتها عشر مراتٍ. وكانت «كاناكو» الآن على ثقة أن الحياة لا تستحّق أن تعاش إذا لم يكن في وسعها الوقوع على حامٍ طيّبٍ. وخلال أدعيتها، كان قلباهما يفعمان اهتياجاً، وباتت عينا «ماساكو» على حين غرةٍ ملتهبتين.

ألقت نظرةً جانبيةً. كانت «مينا» مغلقة العينين، وتضمّ يديها بورع.

كانت «ماساكو» مقتنعةً أن صلاة «مينا» مهما كانت، لا يسعها أن تبلغ في الأهمية مبلغ صلاتها هي. كان يخالجها شعور بالفراغ ويتجمّد قلب مينا بشعور الاحتقار وكذلك الحسد.

كنّ يتجهن جنوباً، محاذيات النهر حتى خط الترام. كان آخر ترامٍ قد عاد بالطبع منذ أمدٍ بعيدٍ، والخطوط التي كانت نهاراً تلتهب تحت شمس الخريف المبتدىء، لم تكن ترسم الآن سوى خطين أبيضين وباردين.

قبل بلوغ «كاناكو» خطوط السكة، أخذتها آلام غريبة في البطن. عساها طعمت شيئاً لم يناسبها. فما خطت خطوتين أو ثلاثاً حتى اختفت الأعراض الخفيفة الأولى لألمٍ حادٍ، مع الارتياح ونسيان الألم، غير أن هذا الارتياح سريعاً ما عاد موضع بحثٍ، إذ ما إن أقنعت نفسها بنسيان الألم، حتى كان يتأكد مجدّداً.

كان جسر «تسوكيجي» الثالث: عند مدخل هذا الجسر الكئيب في قلب المدينة، شاهدن شجرة صفصافٍ مزروعة بأمانةٍ حسب العرف. صفصافة متوّحدة، ما كان لهنّ قط أن يلاحظنها لو أنهنّ مررن بالسيارة، كانت تنمو في رقعةٍ صغيرةٍ مستديرةٍ من التراب الرخو وسط الخرسانة الإسمنتّية. وحسب التقاليد، كانت الأوراق ترتعش في هواء النهر. في وقتٍ متأخرٍ من الليل، كانت المباني الضاجّة ميتةً، والصفصافة وحدها تعيش.

ضمّت « كويومي »، الواقفة في ظلال الصفصافة، يديها قبل اجتياز جسر « تسوكيجي ». ولعلّ إحساس « كويومي » بمسؤوليتها بصفتها رئيسة الحملة، هو ما كان يجعل قامتها الممتلئة أشد انتصاباً من المعتاد. فالواقع أنّ « كويومي » نسيت الغرض من صلاتها منذ أمدٍ طويلٍ. فما هو ذو بالٍ الآن، هو عبور الجسور السبعة بغير ما حادث كبير. كان ذاك القرار باجتياز الجسور مهما حدث، يبدو لها علامة على أنّ اجتياز الجسور بات في حدّ ذاته غرض صلاتها. ذاك كان مشهداً فريداً للغاية، إلاّ أن « كويومي » جعلت تعي أنّ ذاك كان - شأن رغباتها الملحّة المفاجئة - جزءاً لا يتجزأ من طريقتها في العيش، وخلصت إلى الإقتناع بذلك مع تقدمّها شيئاً فشيئاً تحت ضوء القمر. فانتصبت أكثر مما كانت منتصبةً، وقد ثبتت نظرها باستقامةٍ أمامها.

إنّ جسر « تسوكيجي » خلوّ من أيّ فتنةٍ. والأعمدة الأربعة التي تحدّد أطرافه لا تتمتّع هي الأخرى بأيّ جمالٍ. إلاّ أن الصبايا شممن للمرة الأولى أثناء اجتياز الجسر شيئاً ما يشبه رائحة البحر واستشعرن نفحة هواءٍ محمّلٍ بالملح. حتى أنّ إعلاناً أحمر من النيون لإحدى شركات التأمين، كان يرى جنوباً في نحو سافلة النهر، تبدّى لهنّ كعلامةٍ من نارٍ تنبىء باقتراب البحر باطرّادٍ

اجتزن الجسر وأدّين صلاةً جديدةً. كان الألم الحادّ الذي تحسّه « كاناكو » الآن، يبعث الغثيان في نفسها. عبرن خطوط الترام متقدّمات ما بين الأبنية العتيقة الصفراء لمعامل « س. » والجسر. جعلت « كاناكو » تقصر في مشيتها شيئاً فشيئاً. فأبطأت « ماساكو » أيضاً، قلقة، إلاّ أنه لم يكن في وسعها أن تفتح فمها لتسأل « كاناكو » ما إذا كانت الأمور على

ما يرام. وانتهت « كاناكو » أن أوضحت ما بها ، بالإشارات ، ويداها على بطنها ، مرافقةً ذلك بتكشيرة ألمٍ.

كانت « كويومي »، وهي في حال يمكن وصفها بالانتشاء ، تتابع مسيرتها الظافرة بالسرعة ذاتها فلا ترى ما الذي يحدث. فازداد البون ما بينها وبين الأخريات.

وها هي مع قرينٍ حامٍ تحت النظر ، على قاب قوسين أو أدنى ، بحيث يكفي أن تمدّ اليد لتمسك به ، هي ذي « كاناكو » تدرك بأن يديها لن تطالاه أبداً. كان وجهها قد اصطبغ بشحوبٍ مميتٍ ، والعرق يتصبّب من جبهتها. إنّ من المدهش ، مع ذلك ، كم ذا يتكيّف القلب البشري: مع استفحال الوجع في بطن « كاناكو »، كانت أدعيتها التي ترجو لها بحرارةٍ فائقةٍ حتى ما قبل فترةٍ وجيزةٍ ، أن تستجاب ، تلك الأدعية التي بدت على وشك أن تقبل ، فقدت بنحوٍ ما واقعيتها كلها ، وبلغت أن توسوس لنفسها بأن رغباتها ما كانت منذ المنطلق سوى خيالٍ لا يستند إلى واقعٍ ، سوى أحلامٍ طفوليةٍ. كانت تتقدّم بصعوبةٍ ، وهي تقاوم موجاتٍ متعاقبةً من الألم ، ويتمثّل لها أنه يوشك أن يكفّ ما إنْ تتخلّى عن أوهامها الخيالية. فلما بدا الجسر الرابع للعيان آخر الأمر ، وضعت « كاناكو » يدها برفقٍ على كتف « ماساكو »، وبإيماءاتٍ راقصةٍ ، أرتها بطنها وهزّت رأسها. كان شعرها المحلول ، الملتصق على خدّيها بالعرق ، يبدو كأنما يقول بأنها لن تتمكن من المسير إلى أبعد مما فعلت. استدارت فجأةً على عقبيها وعادت راكضةً نحو خطوط السكة.

كانت حركة « ماساكو » الأولى أن تركض خلف « كاناكو »، إلاّ أنها تذكرت أن فاعلية ابتهالاتها سوف تتقوّض إذا هي عادت على

أعقابها ، فتسمّرت واكتفت بالنظر إلى « كاناكو » وهي تركض. ولم تلحظ « كويومي » أنّ شيئاً ما قد اختلّ إلاّ حين بلغت الجسر. كانت « كاناكو » حينذاك تركض كالمجنونة تحت ضوء القمر ، دون أن تقيم وزناً لمظهرها. كان كيمونوها الأزرق والأبيض يتطاير ، وقرقعة قبقابها تردّدها الأصداء على جدران الأبنية المجاورة. وقد كان يرى ، من حسن الطالع ، تكسي وحيد متوقف في الزاوية.

كان الجسر الرابع جسر « ايريفونا ». وكان عليهن أن يعبرنه في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي سلكته لعبور جسر « تسوكيجي ».

توقفت الصبايا الثلاث عند مدخل الجسر ، وصلّين مؤديات الحركات ذاتها.

كانت « ماساكو » متكدّرة بسبب « كاناكو » ، غير أن إشفاقها لم يكن أصيلاً مثلما هو عادة. وما عبر ذهنها بشيء من البرود إلاّ الفكرة القائلة إنّ من يتخلّى عن الصفوف ، عليه منذ الآن أن يتخذ مساراً آخر غير مسارها. فكلّ صلاةٍ تؤدّيها امرأة ما هي سوى قضيةٍ شخصيةٍ ، حتى ولو تمثّل لها خطر ما ، فلا يمكن أن يطلب من « ماساكو » حمل عبء امرأةٍ أخرى. لأنّ ذاك لن يكون من قبيل مدّ يد العون إلى أي شخص كي يرفع حمولته إلى قمّة الجبل - بل سيكون من قبيل عمل شيء لن يخدم قضيةً ، ولا شخصاً.

كان اسم « جسر تريفونا » منقوشاً بحروفٍ بيضاء فوق صفيحةٍ أفقيةٍ من المعدن مثبتةً على عمودٍ في مدخل الجسر. والجسر ذاته يرتفع في الظل ، وأرضه الإسمنتية مغمورة بالوهج العاتي الذي تعكسه من الضفة المقابلة

محطة بنزينٍ كالتكس. كان يشاهد في النهر نورٌ خافت في الموضع الذي يسقط فيه ظل الجسر. والرجل الذي يقيم في آخر الرصيف في كوخٍ مهدّمٍ لم يكن قد أوى إلى فراشه بعد بغير شكٍّ، والنور نوره. كان كوخه مُزيّناً بزهورٍ في أصصٍ وتعلن كتابةٌ: «سفن نزهةٍ، قوارب صيدٍ، شباك، جرّ سفنٍ».

انخفض خط سطوح المباني التي لا عدّ لها بالتدريج على الجانب الآخر من النهر، ويكاد المرء يقول إنّ السماء الليلية كانت آخذةً بالانقشاع بمقدار ماكنّ يتقدّمن. لاحظن أن القمر الذي كان شديد التألّق قبل قليلٍ، لم يعد يرى إلاّ عبر سحبٍ خفيفةٍ. وكانت السحب قد تجمّعت وغطّت السماء كلها.

قطعت الصبايا جسر «تريفونا» بدون أيّ عارضٍ.

بعد جسر «تريفونا» يرسم النهر زاويةً قائمةً تقريباً. كان الجسر الخامس بعيداً نوعاً ما. وعليهن اتباع النهر حذاء الرصيف العريض الخاوي حتى جسر «آكاتسوكي».

كانت المباني عن يمينهن في معظمها مطاعم. وعن يسارٍ على ضفّة النهر ذاتها، كانت هنالك أكداس من حجارةٍ وحصى ورملٍ لبعض مشروعات البناء، ويتناثر نصف الأكوام الداكنة على قارعة الطريق. وبعد برهةٍ شوهدت مباني مستشفى القديس «لوقا» (Saint - Luc) الهائلة عن يسارهن على الجانب الآخر من النهر. كان المصح يكوّن كتلةً جهمةً في ضباب ضوء القمر. وكان الصليب المذهّب الضخم الذي يعلوه منوّراً، وكانت أضواء الشارات الحمراء للطائرات ـ كما لو أنها تغازل الصليب ـ تغمز هنا وهناك فوق السطوح المجاورة، محددةً تخوم السطوح والسماء.

كانت أضواء المصلّى خلف المصحّ مطفأةً، غير أنّ عُصيبات الوردة الغوطية الكبيرة على الواجهة الزجاجية كانت مرئيةً بنحوٍ جليٍّ. كانت بعض الأنوار الشاحبة ما تزال مضاءةً في نوافذ المصحّ.

كانت النسوة الثلاث يمشين ملتزمات السكوت. «فماساكو» المستغرقة في المهمة التي تنتظرها، ما كانت قط بقادرةٍ على التفكير بشيءٍ آخر. وكنّ قد عجّلن الخطى بحيث كانت الآن مندّاةً بالعرق. ومن ثم - وقد تبادر لها بادىء ذي بدء أنها كانت تتصوّر تصوّراً - صارت السماء متوعّدةً، وفيها يرى القمر، وشعرت ببضع قطراتٍ من المطر فوق جبينها. ومن حسن الطالع أنه لم يكن يبدو أنّ المطر سيصبح غزيراً.

لاح الآن جسر «آكاتسوكي»، خامسهن. لا يدري أحد لماذا كانت أعمدةِ الإسمنت المبيّضة بالجير على هيئة الأشباح في الظل. ولما كانت «ماساكو» تضمّ يديها لدى مدخل الجسر، تعثّرت بأنبوبٍ من الحديد المصبوب وأوشكت على السقوط. ومن الجانب الآخر للجسر كان الترام يستدير أمام مصحّ القديس «لوقا».

لم يكن الجسر طويلاً. كانت النسوة يسرن بسرعةٍ فائقةٍ بحيث أنهن كن سيجتزنه للحال، لولا أنّ «كويومي» صادفها سوء الطالع ما إن بلغت الضفّة الأخرى. كانت امرأة فرغت لتوّها من غسيل شعرها آتية لملاقاتهن، وهي تحمل بيدها سطلاً معدنياً. كانت تسير بسرعةٍ وكيمونها المحلول، الفاغر على كتفها، يمنحها مظهراً وسخاً. لمحتها «ماساكو» لمحاً، غير أن الشحوب المميت للوجه تحت الشعر المبلول بعث بجسدها الرعشة.

توقّفت المرأة على الجسر واستدارت: «لكن تلك هي «كويومي»، أليس كذلك؟ انقضت قرون ها؟ وتتصنّعين عدم التعرف عليّ؟».

« كويومي »، إنك تتذكرينني تماماً! » كانت تتطاول برقبتها متفرّسة في وجه « كويومي »، مقفلة عليها الطريق. خفضت « كويومي » عينيها ولم تجب.

كان صوت المرأة رفيعاً ومتهدّجاً، حتى ليقول المرء إنه ريح تصفر في وهدةٍ. كانت تكمل مونولوجها، كما لو لم تكن قد توجّهت إلى « كويومي »، بل إلى شخصٍ لم يكن موجوداً. « أنا عائدة لتوّي من الحمّام. ها قد انقضت قرون! ونلتقي ههنا »!.

أحست « كويومي » بيد المرأة فوق كتفها، فآل بها الأمر إلى فتح عينيها. كانت تعي أن لا فائدة ترجى من الامتناع عن إجابة المرأة - فمجرّد أن يتوجه إليها أحد من معارفها بالكلام، كان كافياً لإهدار صلاتها.

نظرت « ماساكو » في وجه المرأة. فكرت وهلةً، ثم عاودت المسير، مخلّفة « كويومي » وراءها. كانت « ماساكو » تتذكّر وجه المرأة، كانت جيشاً قديمةً مثّلت زمناً في الـ « شيمباشي » بعد الحرب مباشرة.

كان اسمها « كوان » (Koen). أصبحت غريبة الأطوار بعض الشيء، وتسلك رغم سنها مسلك فتاة مراهقةٍ، وانتهى الأمر إلى شطب من قوائم الجيشا. لم يكن من المستغرب أن تتعرف « كوان » إلى « كويومي »، التي كانت لها صديقةً قديمةً غير أنها كانت ضربة حظ، إنها نسيت « ماساكو ».

كان الجسر السادس أمامها تماماً، جسر « ساكاي »، بناء صغير لا يشير إليه سوى سهم معدني صبغ بلونٍ أخضر. عجلت « ماساكو » بالفراغ من صلاتها عند أقدام الجسر، وعبرته شبه راكضةٍ. وحين التفتت

برأسها ، لاحظت بارتياح أن « كويومي » غابت عن الأنظار . وخلفها تماماً كانت تتبعها « مينا » ، بسحنتها المقطبّة دوماً .

صفعت وجه « ماساكو » مجدداً بضع قطراتٍ من المطر . كان الطريق أمامها محاطاً بالمستودعات. وثمّة مبانٍ تخفي عنها النهر . كانت الظلمة شديدة ، ومصابيح مضاءة بعيداً تزيد المسافة التي تفصلها عنها ظلمةً . لم تكن « ماساكو » تخشى بنحوٍ خاصٍ المسير في الشوارع بمثل تلك الساعة المتأخرة من الليل . كانت تشغف بالمغامـرة ، والغـايـة التي تهدف إليهـا ، غرضُ صلاتها ، كانت تمنحها الشجاعة . إلاّ أنّ ضجيج قبقاب « مينا » ، الذي كان يردّد صداها خلفها ، بدأ يثقل عليها بنحوٍ مبهظٍ . والحقيقة هي أنّ لطَرْق القباقيب جانباً بهيجاً وغير نظامي ، إلا أنّ مسير « مينا » الهادىء ، الذي يتناقض وخطى « ماساكو » القصيرة المتكلّفة ، كان يبدو كأنما يلاحق « ماساكو » كيما يسخر منها .

قبل انسحاب « كاناكو » ، كان وجود « مينا » قد أوحى ببساطةٍ لماساكو بشيء من الاحتقار ، إلاّ أنها تثقل عليها منذ ذلك ، والآن وقـد صارتا اثنتين فحسب ، لم تعد « ماساكو » قادرة على مغالبة نفسها من أن تستشيط غيظاً رغماً عنها : فما كان يسع هـذه الفتـاة الخارجـة مـن قلـب الريف ، أن تطلبه في صلواتها كان لغزاً . لقد كان من المزعج أن تحفّ بالمرء هذه المرأة السمينة المسكينة التي لا يعرف نواياها ، لتخبّ وراءه . كلا ، فالأمر أدنى في الإزعاج مما هو في الإقلاق ، وكانت « ماساكو » تحسّ بمزاجها يزداد تعكّراً حتى يبلغ مبلغ الذعر .

لم تكن « ماساكو » قد أدركت قط فيما مضى ، كم ذا يعكّر مزاج المرء جهله بنيّة الآخر . كان ينتابها شعور أن ضـربا من كتلةٍ مظلمةٍ يتبعها ،

ليس إطلاقاً مثل « كاناكو » ، أو « كويومي » ، اللتين كانت صلواتها جد شفافةٍ بحيث تمكّنت من بلوغ مكنونها . جرّبت « ماساكو » بغير طائلٍ أن تحيي شوقها إلى « ر . » . كانت تريده أشدّ تلظّياً من أي وقت مضى . استحضرت وجهه . تخيّلت صوته . استذكرت تَنَفّسه الفتيّ . غير أن الصورة ما لبثت أن تبدّدت في الحال فلم تجرّب من جديدٍ تكوينها .

كان عليها أن تعبر الجسر السابع في أسرع وقتٍ . وحتى ذاك الحين لن تفكر في أي شيءٍ .

صارت مصابيح الشارع التي رأتها في البعد تشبه الأضواء التي تنير مداخل الجسور . كانت ترى أنها تقترب من طريقٍ كبرى من طرق المرور ، فلا بدّ أن يكون الجسر قريباً .

منتزةٌ صغير شوهد باديء الأمر ، كانت الأضواء التي رأتها فيه تلتمع فوق بركٍ صغيرةٍ سوداء كان المطر يخطّ بكومة رملٍ ، ثم جاء الجسر نفسه الذي كان اسمه « جسر بيزن » منقوشاً على عمود إسمنتي في المدخل . كان هنالك مصباح واحد في أعلى العمود يرسل نوراً خافتاً . رأت « ماساكو » عن يمينها ، على الجانب الآخر من النهر ، معبد تسوكيجي « هونغانجي » (Honganji) كانت القبّة الخضراء على سطحه تتسامق في السماء المعتمة . تعرفت إلى المكان . يتوجب عليها أن تتنبّه بعد عبورها الجسر ، ألاّ تعود أدراجها سالكةً الطريق ذاته .

تنفست « ماساكو » الصعداء . ضمّت اليدين عند مدخل الجسر ، وتعويضاً عما ارتكبته من استخفاف في صلواتها الأولى ، صلّت هذه المرة بعناية وورع .

كانت ترى بطرف عينها « مينا » التي تقلّدها على جري عادتها ، ضامةً يديها الضخمتين. أثار المشهد حفيظة « ماساكو » إلى درجةٍ نسيت معها الغرض من صلواتها ، وكانت الكلمات التي احتشدت في فمها : « كنت أودّ لو لم أصحبها. فهي حقاً مثيرة للسخط. ما كان عليّ قطّ أن أصحبها ».

في تلك اللحظة صدر صوت رجلٍ مستجوباً « ماساكو ». أحسّت بنفسها تتصلّب. كان رجل شرطةٍ ينتصب أمامها. كان وجهه فتياً ومتوتراً ، وصوته حاداً. « ماذا تفعلان هنا في قلب الليل ، وفي مثل هذا المكان »؟.

لم يكن بمقدور « ماساكو » أن تجيب. ففي كلمة واحدة دمار كل ما كان. فهمت لتوّها من أسئلة رجل الشرطة اللاّهثة بأنه أخطأ هدفه : كان يظن أنّ الصبية التي تؤدّي صلواتها في قلب الليل فوق جسرٍ ، إنما تنوي إلقاء نفسها في الماء. لم يكن في مستطاع « ماساكو » أن تنطق ، فتودّ لو تُفهم « مينا » أن عليها أن تجيب بدلاً عنها. شدّت ثوب « مينا » محاولةً إيقاظ فطنتها. ومهما كانت « مينا » غبيةً ، فما كان يخطر في بالٍ أنها لم تفهم ، غير أنها أبقت فمها مغلقاً بعنادٍ. ذهلت « ماساكو » وهي تنظر إلى مينا ـ إما عن طاعةٍ للتعليمات الأولى التي تلقتها ، أو حمايةٍ لصلاتها هي ـ وقد صمّمت على عدم الكلام.

باتت لهجة رجل الشرطة أشد صرامةً : « أجيبي ، أريد جواباً ». خلصت « ماساكو » إلى أنّ أفضل ما يسعها فعله كان أن تركض حتى الطرف الآخر من الجسر ، ثم تبرّر سلوكها بعد أن تكون قد عبرت. قفزت هاربةً من يديّ الشرطي ، ورأت « مينا » تركض وراءها.

عند منتصف الطريق ، وسط الجسر ، لحق الشرطي « بماساكو ». أمسك

بذراعها . « تحاولين الهرب ، ها » ؟ .

ـ « أنا أهرب ! فكرة غريبة ! إنك تؤلمني ، وأنت تشدّ على ساعدي بهذا النحو ! » كانت « ماساكو » قد صاحت قبل أن تعي فعلتها . وإذ فهمت من بعد أنّ صلواتها ذهبت هدراً ، تأمّلت متحرّقة غيظاً ، الجانب الآخر من الجسر حيث كانت « مينا » ، التي مرت بلا عائق ، تنهي صلاتها الرابعة عشرة والأخيرة .

تشكّت « ماساكو » ، مغيظةً ، إلى أمها حين عادت ، وأمّها التي لم تكن على علمٍ بفحوى الأمر ، وبّخت « مينا » . كنتِ في كل حالٍ تصلين من أجل ماذا ؟ سألت « مينا » لم تجب « مينا » بغير بسمةٍ مكشّرةٍ .

بعد انقضاء أيامٍ ، وقد شدّت « ماساكو » من عزيمتها ، كانت تخاصم « مينا » ، فتسألها للمرة المئة : « ما كانت فحوى صلاتك ؟ من أجل ماذا ؟ قولي لي . يسعك الآن حتماً أن تخبريني » .

تهربت « مينا » ببسمةٍ صغيرةٍ .

« إنك رهيبة ، يا « مينا » ، رهيبة حقاً » .

وبأصابعها المدّببة ذات الأظافر المشذّبة باعتناء ، دفعت « ماساكو » « مينا » في الكتف . كان اللحم المطاطيّ الصلب يقاوم الأظافر . وغشّى خدر غريب رؤوس أصابع « ماساكو » ، التي لم تعد تدري ماذا تفعل بيدها .

الحفش

يوري كازاكوف (الاتحاد السوفياتي)

Youri Kazakov (URSS)

★ يوري كازاكوف: ولد في موسكو عام ١٩٢٨. نشر عدة قصص طويلة شبهت من حيث قيمتها الشاعرية بأعمال تورغنيف. فرض نفسه كأحد أهم الكتّاب السوفيات في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

يحس المرء بالدفء مع أن الطقس بارد. وأشعة الشمس التي تعكسها كتل الجليد والمياه الفيروزية تعبر الأهداب المسبلة وتبلغ العين فتبهرها. وخطّ السّهْب الجليدي يبدو قريباً ومنخفضاً إذا ما نظر إليه المرء من ناحيتنا، إلا أننا نسير، نسير ويظهر كما لو أن الساحل يبتعد. نظرة إلى الهضاب المزرقّة أو إلى كتلة الجليد التي تعبر، ثم ما إن تعاود النظر إلى الشط حتى يبدو أشد بعداً مما كان. مياه هادئة: غير أننا نشعر بأن كل شيء يرتعش من حولنا، وأن الرؤى وتهاويل السراب تطوقنا. ونسقط فيما نتصور أنه شلال ماء ثم يدهشنا أننا لم تبتلعنا موجةٌ نهضت كما جدار، ثم ها نحن صرنا فوق رأس قمة، ويبدو آنذاك لا أن الأفق وحده قد انفتح بل الغيب كله كذلك: فبعيداً تتلامع البحيرات، وتتفكك عرى الأنهار بتكاسل. ويتراءى مقدم السفينة معلقاً أو مركّزاً فوق حاملٍ هوائيٍ شاف.

ثمة رجال عن يسار يتحركون فوق قطع الجليد، يتجمعون ويتفرقون وما من أمرٍ غريب فيهم سوى ألبستهم الشاذة. وعن يمين، عند حافة الجليد الساحلي، هنالك دب يستقي من مغيض: بطنه مصغرّ، ولشفتيه

السوداوين حواف كهرمانية، وعيناه سوداوان... أنظر إلى صحبي. كلا، ما من أحد يُشرع بندقيته. كلهم جلوس، قد استولى النعاس على عيونهم. بل إن ثلاثة منهم ناموا ملتفين على أنفسهم في أسفل السفينة وقد غطوا عيونهم بطاقياتهم... منهكين!

يتملكني إحساس منذر بالخطر، يسري فيّ سريان تيار دقيق. ثمة أمر غريب موشك على الوقوع... كل شيء مهيأ: فقد اجتزنا مئات الكيلومترات عبر كتل الجليد، والشباك قد نصبت، والمنطقة المسوّرة جاهزة، والمحركات ضبطت. وهي ذي السفينة تغفو، تهدهدها ريح السهب الدافئة، ورجل المناوبة وحده ساهر في عش المحرس. أنه يرصد سمك الحفَشَ الروسي.

إن الدروب التي يسلكها غامضة وما من صياد يعرف في أية مياه خفية يظهر السمك، ولا لماذا يتجه بدأب وعناد في اتجاه الشرق عبر المحيط القطبي، ولا أين يختفي فيما بعد.

نمضي نحو الشاطىء لنصطاد أنواعاً من سمك السلْمون: تدعى أومول. نجر خلف سفينتنا قارباً قابلاً للانثناء، يشق الماء البارد حتى بالنسبة للنظر، ويسبب زبداً خفيفاً كأنه ندف أبيض. وفي القارب حفظت الشباك المثلثة وقدْر معدنية سوداء.

قال لي الميكانيكي الرئيسي: «هيا يا يورا، لسوف نملأ جوفنا بحساء السمك»، ليأخذه الشيطان! الريح، كالماء، ساكنة. والطقس جد حار حتى أن الثياب المكسوة فرواً تبدو فجأة غير محتملة، فيتذكر المرء أن الزمن صيف. غير أن هناك شريطاً أسود يتشكل قربنا فيجعّد صفحة الماء ويتوسع فتحمل إلينا الريح الخفيفة برداً يجعل واحدنا يتدثر أفضل ما

يسعه ذلك. أهبط إلى أسفل السفينة، فأتكيء بظهري على مقعد، وأرفع ناظري: ما في السماء كلها سوى ثلاث غيمات ثابتة. وإنها لتبدو رخيّة وبراقة وقد أضاءتها من أسفل انعكاسات الأشعة فوق الجليد.

أرنو بنظري إلى الغيمات، فأتذكر الأيام التي انقضت: سفينة الصيد السريعة، والأمان الوقور الذي كنت أستشعره فيها، فلا أكاد أنام، وأقضي النهارات والليالي فوق السطح. بل إن أياً من الصحب أيضاً لم يكن ينام لأن سفينة الصيد مع طاقمها لا تخرج سوى مرة واحدة في العام لصيد الحفش، وكل يتساءل عن امكان نجاح الصيد، وإمكان تفادي محاصرة الجليد للسفينة، أو عدم تسبب عاصفة في غرقها وهي في طريق العودة، وقد حل فصل الخريف.

كم ذا كانت تلك الأيام على السطح جميلة! فالرجال كلهم كانوا نشيطين، يعملون بسرعة واتقان، بعض منهم بالقميص وآخرون بالسترة القصيرة أو بنصف كم، وبعض عراة حتى الزنار. كان ثمة من يصلحون الشباك الخارجة من العنابر، أو من يعقدون حبال الطوافات المطاطية، أو يتفقدون محركات القوارب، أو يملّطون الزوارق ويهيئونها. وكان الصيادون بالخطاطيف يجرّبون بنادقهم فينكسر الصدى الحاد ثم يعود فيتردد فوق قطع الجليد.

والجليد ملء الدنيا، حتى آخر مدى الأفق:

كانت كتلة منه تقترب فتنطح هيكل السفينة بضربة صماء، فتّصرّ ثم تتخلص وهي تصدر ضرباً من الصفير. أو أنها إذا ما انجرفت تحت جسم السفينة، زحفت تحت جزئها المستدير، ثم بشهقة وضجيج جنح تراها

انبجست عن يمين أو يسار حتى علو السطح ثم عادت فسقطت ضاجّة صاخبة.

ملء الدنيا: طيور البط. كانت تضرب بأجنحتها صفحة الماء فيما هي تبتعد بمقدار ما يسعها من سرعة، وتغطس، غير أن الماء جد شفاف حتى لكانت تظهر من سطح السفينة وهي تسبح، متطاولة حيناً، وحيناً متقبضة. وفوقنا، الطيور القطبية، وهنا وهناك عجول البحر تنسحب رؤوسها السوداء على شفا الماء، تُرى من هذه المسافة مشكلة رسماً جميلاً. وكانت النوارس تسبح في الجو منسابة بتكاسل حتى تبلغنا، فتتوقف لحظةً ما كما لو كانت معلقة بأسلاك غير مرئية فوق مؤخرة السفينة ـ ثم تبتعد.

يتشكل ضباب يزحف نحونا.. ضباب خفيف في بداية الأمر لا يلبث أن يتكاثف وكان المراقب من أعلى المرصد يأمر النوتي: «يساراً، يساراً. حافظ على الاتجاه»، تفادياً لكتل الجليد. وفوقنا كانت الشمس تلتمع دوماً غير أننا لا نراها، وثمة قوس قزح يتشكل،ويعلو بصورة حذوة حصان حتى منتصف السارية. وهو حيناً ثنائي وحيناً ثلاثي، حتى ليمكن لمسه باليد، وفيما السفينة تغير مسارها دواماً، كان قوس القزح ينتقل من جانب إلى جانب... وكانت السفينة تتقدم، بيضاء، مطهرة من الدم، ما تنفك بريئة غارقة في لجج الضباب في قوس قزح.

حددت أجهزة القياس موقعنا على بعد عشرين ميلاً من الشواطىء. ومن بعد لم نعد نسمعها فتوجب علينا أن نمخر على غير هدى. محاولة أخرى، وفشل آخر. لزمنا عند ذاك أن نرجع إلى الرادار الذي جعل شعاعه الأخضر يدور على الشاشة. كنا دونما ريب، بناء على حساباتنا، على بعد عشرة أميال من الشاطىء، غير أن الشاشة ظلت فارغة. وكان

المسبار اللاسلكي يشير إلى عمق مئتي متر، إلا أن الأعماق في هذه المياه جد متباينة الارتفاعات بحيث كنا نخشى في كل حين أن نصدم الصخور. فتوجب علينا أن نزيد من تمهلنا، وأن نضاعف المناوبات... كانت الساعة العاشرة ليلاً. وقد انبثقت غيوم وزادت عتمة السماء.

على حين غرة، لم يشر المسبار اللاسلكي إلى أكثر من خمسة عشر ثم عشرة أمتار. فأمر الربان من فوره بالسير عكسياً إلى وراء، وتجمدت السفينة في مكانها. وصرخ الربان خارجاً من قمرته: «يا رئيس الطاقم، الق المرساة».

فصرّت سلسلة المرساة مدة تقارب الدقيقة خلال امتدادها، ثم انها ثبتت دون بلوغ القاع.

«يا رئيس الطاقم، أمر الربان، قم بقياس العمق بالمسابير».

فمُدّ المسبار كله، خمسة وأربعون متراً، دون أن يبلغ القاع. كنا قد تجمّدنا في الصمت المطبق وفي الضباب. وكان في وسع المرء إذا ما دقق النظر فقط من جهة اليمين أن يبصر في صدر السماء صفاً من الغيوم الليلكية، كانت تقنّع الشمس.

توجب التحقق من سلامة المسبار اللاسلكي. فتبيّن أن شريطة الذي يفترض بقاؤه رطباً، كان جافاً. فلما رُطّب عاد المسبار اللاسلكي يشير بانتظام إلى عمق مئتي متر.

فغمغم الربان وهو يجفف جبينه: «قبحّ الله التقنية. اسحبوا المراسي»! عدنا نتقدم ببطء على هدي الرادار، فما هي إلا فترة وجيزة حتى جعل الشعاع الأخضر على صفحة شاشته يخـط خطاً عصبياً: أرض!

كيف كان يدعى النهر الذي كنا نندفع نحو مصبه؟ لم أحفظه... ومن كان الرجل الذي اكتشفه فمنحه اسمه ومتى؟... كنت أتصوره والتيارات السريعة تجتازه، حاملة مياهاً طينية ممزوجة بدوامات مزوبعة تسبب على طول مجراها تشكّل الضباب والصقيع. لقد عرفت أنهاراً من هذا النوع في شبه جزيرة كولْسك. وأصيغت إلى هديرها وتابعت بنظري مياهها التي لا تقل تقلباً وتموجاً عن لهب مخزن حطب. تسكنها أسماك نادرة ويحدث أحياناً للمرء أن تصدر عنه حركة تراجع وخوف بهيج حينما تنط فجأة، تحت قدميك، على ظهر السفينة، سمكة سلمون. وثمة حجارة باهرة الحسن ومجلوّة بالثلوج والمياه، تؤزّر أنهار السهب تلك. وتغطيها طحالب جد طرية على صفحتها الشمالية، فتلتمع وتسخن في أيام الصيف الجميلة. وإنها لمتعة أن يتمدد المرء عليها بعد أن ينزع عن ظهره حقيبته المبللة بالعرق إثر مسير طويل.

هنالك في الزورق حركة. يقول أحدهم، رافعاً صوته لتغطية ضجيج المحركات، إن عند مصب النهر كوخاً يعيش فيه، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، صياد وزوجته البالغة الجمال... يتباطأ المحرك. فأنهض منتصباً: إننا نلج مصب نهر بطيء وداكن.

إن الانهار التي تصب في البحر الأبيض وحشية وقاحلة، ولكن المرء يكتشف أثر الانسان حتى على ضفاف أكثر الأنهار بعداً عن الحاضرة: رحى علف، قوارب جانحة، مخالب تثبيت للجليد ملقاة على الشط، أو أوتاد تحدد موضع موقف قارب، بقايا نار، صليب عتيق أو حتى «ايسبا» (منزل خشبي) خال ومهدم. أما هنا، فما من شيء يحد النظر. فالنهر مسطح فارغ يسري ما بين هضاب جرداء... أرسينا الزورق وعدنا

بالقارب المحمل شباكاً، وقفزنا إلى اليابسة. بدا كل شيء بالغ الهدوء وبالغ الوحشة، حتى أننا سارعنا إلى اشعال غلايينا ولفافاتنا. بعيداً عنا كان هناك مستنقع يلمع، وآخر أبعد بقليل عن يمين. وتمتد من فوق، سلاسل سوداء تشبه بعض حين غيوماً صغيرة داكنة: أسراب بط تطير فوق مستوى المياه الهادئة.

«انظر يا يورا، يقول لي ايليا وهو يشرع بندقيته... هل ترى ما أنا أرى؟... فيقاطعه الربان:

ـ انتظروا الصيادين. ماركو فيتش، شيلكوف، امضيا فاحملا القدر إلى الإيسبا وأبلغا صاحبها إننا قادمون بعد قليل ومعنا سمك للحساء. أما المضيفة فقولا لها أن تتزين لأن معنا شعراء مشهورين من موسكو! وهم يكتبون عن الحب وسيتغنون بها بأشعار غنائية!»...

كان الربان يضحك بقلب خلي ويدفعني بمرفقه. كنت قد لاحظت للتو وجود حزمة حطب قرب الشط، وركام داكن لا أدري ما هو في السهب، كما لاحظت أخيراً في قلب فرجة رملية ـ وجود منزل رمادي مزرق. كنت أبحث دون جدوى عن آثار أخرى فيما البحاران يلجان الماء لأخذ القدر التي بقيت في القارب ولتجهيز الشباك، وقد أثار حميتهما الربان الذي كان يستعجلهما.

سألني ايليا:

«هل سبق لك يا يورا أن ذقت سمك الأرمول؟ ما من تشابه اطلاقاً مع طعم السلمون. سترى ذلك في الحساء.

ـ أو مجففاً مع الجعة، تدخل الربان قائلاً، ثم صرخ: من الذي يرتب

خيوط الصنانير على هذا النحو »؟ وخاض متعجلاً في الماء.

كانت قطع جليدية تسبح في مصب النهر. وعند خط الأفق كانت سفينة الصيد تظهر معلقة فوق مساحات الجليد. تمنيت لو كنت وحيداً، فتناولت بندقيتي، واتجهت نحو المستنقع، إلا أنني ما كدت أقطع مئة خطوة حتى اضطررت للعودة: فالبعوض الذي كانت الريح الصقيعية تبعده عن الشاطىء، ألقى بنفسه عليّ في دفء السهب.

جُهزت شباك الصيد المثلثة آخر الأمر ووُضعت في القارب الذي ابتعد عن الساحل. جعل بحار متين البنية يجدّف فيما رفيقه يلقي الشبكة بسرعة. بلغ القارب وسط النهر وألقيت شبكة أخرى. وعاد القارب بعد أن شكل في مساره نصف دائرة واسعة. فأخذنا في مجموعتين نسحب الشبكتين ونحن نرسل صيحات قوية، ونؤشر ونصول، وحين ظهر قعر الشبكتين ألقى بعض البحارة بأنفسهم لتخليصه متر شّشين بالماء من القدمين إلى الرأس. وقد قطعت الخيبة نَفَسنا: فوسط الطحالب التي استخلصناها لم يكن هنالك سوى بضعة أسماك «أبو لحية» تتخبّط. ألقينا بها على الطُحلُب. وعدنا نلقي الشبكتين في القارب ومضينا إلى موضع أبعد بقليل نجرب حظنا. وغمغم ايليا وهو يجفف العرق عن جبينه:

«يا للشيطان! ما الذي يحدث؟ لا نجد شيئاً هذه السنة. مرّ وقت... يساراً أكثر» صرخ، وجعل يعدو فوق الرمل ليشرف على إلقاء الشباك. توجهت بنظري من جديد نحو الإيسبا بتشوق متزايد بسبب ما جعلت أميّز فيه الآن من علامات حياة. وقد استأثرتْ لعبة الصيد باهتمامي فجعلت أسحب الشباك، إلا أننا لم نجد مرةً أخرى سوى أسماك أبو لحية صفراء ورمادية.

وكما يحدث في الحكايات، اعتزم الرجال إلقاء الشبكة مرة ثالثة. أما أنا فرحت أصطاد نفوساً ولذا توجهت نحو الإيسبا مردداً بيني وبين نفسي: «خمس عشرة سنة من الوحدة، ليس هـذا بـالأمـر الطفيـف»! كانت هنالك الزوجة والولدان. ولعله كان يحضر صيادٌ ما صيفاً. بعثة تقضي الليل في هذا الملجأ. بعض اللابونيين يرعون الأيائـل في الجوار... ولكن ماذا عن الخريف! الشتاء!...

وإذ اقتربت، أذهلني حجم الإيسبا ولونها: فقد ابتنيت بـالخشـب المتموج المشرّب بالملح البحري وبالذرة القاسية، وفي زوايا البيت كانت بروزات العوارض قد تهرأت بفعل الثلوج والأمطار. والنوافذ صغيرة، وفسحة المصطبة جد كبيرة، أما الباب فقد ركّب تحت السقف مباشرة.

«هيا، صاح بي البحارة من بعيد. وماذا عن هذا الصيد»؟

كانت القدر قد وضعت على النار. ودخان خفيف ينتشر في السهب. وكانت الأشراك والأفخاخ القلاّبة مكدسة قرب الفسحة، وفراء مسمرة على الحائط وكلبا اسكيمو يلاحق كـل منهما الآخـر. وفي كـل مكـان، بنحو متفرق أو مجتمع باعتناء، عصيّ صيد وأدوات صيد مائي وبري منوعة... ورائحة طحلب يابس طيبة، وماء مملح وأسماك مجففة...

لدى سماع أصواتنا، خرج صاحب البيت إلى المصطبة. كان رجلاً جافاً، يتأرجح ما بين عمرين، حليقاً فيما عد شاربين كثّين. مدّ لنا يده وأمال رأسه ببعض الشيء داعياً ايانا للدخول.

«ههنا، ما يشبه المستودع»، قال باسماً حين دخلنا الزريبة وأشار إلى الباب الذي ظل موارباً. لم أتمالك نفسي عن دفع الباب: غرفة فسيحة،

تضيؤها كوة وحيدة كدّست فيها جلود الأيـائـل، الفـراء، المطـرات، الشباك، أخشاب الأيائل، المدافىء المحمولة، أدوات المطبـخ، أكيـاس الطحين، الأسماك المجففة، علب المحفوظات والمربيات.

كنا نسمع في الإيسبا السماور وهو يغلي: قطعة زبد في صحن، سمك مملح، زجاجات فودكا ذات انعكاس أخضر. من حول المدفأة، كانت المضيفة الشابة تتحرك وقد تزينت بالأحمر ورجّلت شعـرهـا، وصبيّـان خفران ظلا جالسين باحتشام في زاويتها. اتخذنـا أمـاكننـا إلى جـانـب المضيفة قرب النافذة المحمية بنبتات غرنوقية مزهرة. وكـانـت الشمس تضفر أشعتها على الأرض الخشبية.

« الجو هنا طيب، قال المضيف وهو يزيح أصص النبتات، غير أننا لا نتمكن من فتح النوافذ بسبب البعوض. إنه لا يدعنا نستريح ». كنا ندخن صامتين، ونتملى من مشهد المرأة داخلة خارجة، مهيئة المائدة فيما الصبيان يتفحصان البندقية التي علقتها عند المدخل ويتبـادلان الحديـث بصوت خفيض.

« إنهما في مدرسة « أمبيريه » الداخلية. صيادان في الأعماق. لكنني لا أعيرهما بندقيتي الوينشستر. لهما معاً بارودة واحدة. كبيرهما، ذو الشعر الأشعث، علم أخاه كيف يطلق طيور القنص. إنـه يخيـف البـط في حين ينتظر الثاني وقد أقعى مع بارودته... وأنتم؟ هذا الصيد؟

ـ رديء، أجبته، بضعة أسماك أبو لحية فحسب.

ـ هذا ما أقوله، سمك الأومول اختفى... نصبتُ شبكة في مسيل ماء ولا شيء يسقط فيها »...

أبصرت بقعة بيضاء فوق رابية يجلوهـاالنظر من النافذة...

« إنها طيور البوم القطبية. وهي كثيرة هذه السنة. جاءت اللاموس الفأرية إلى هنا فلحقت بها البوم ».

فرقعات أصوات، انفتح الباب ودخل الربان:

« تحية، يا بتروف. كيف تعاملك الحياة؟ ما من فودكا، قال وقد أبصر الزجاجة. احتفظ بها لنفسك. لم نأت من أرخنجلسك لننهبك. ماركو فسكي، امض فاجلب هدايانا. بليلوف، اسرع إلى البركة، نظّف السمك لعمل الحساء. قل يا بتروف، هل ازدردت السلمون كله »؟

أعادت المضيفة الفودكا، ووضعت السماور. رحنا نغسل أيدينا ووقفت المضيفة قرب المغسلة لتقدم لنا المنشفة. كانت عيناها تبرقان...

كان البحارة يؤججون النار في الباحة، والقدر تدخن. وكانت الطلاب تغمغم فوق المصطبة، راغبة في الدخول.

« وسمك الحفش؟ سأل الربان بعد قدحه الأول.
ـ جدّ قليل، حوالي العشر. عدها الولدان.
ـ ستأتي أخرى! سننفذ الخطة. والثعالب الزرقاء؟
ـ لا أتشكى، قال المضيف، وهو يرمي زوجته بنظرة.
ـ فهمت.
ـ ليأخذك الشيطان. سوف تصبح مليونيراً عما قريب »، هتف ايليا الذي كان قد شرب بعض الشيء...

أخذ البحارة ينقلون الحساء.

قالوا إن سفينة الصيد الأخرى آتية إلى هذه الناحية.

ـ لم يتحملوا، قال الربان ضاحكاً، هفت نفوسهم إلى حسائنا»...

تبين على غير انتظار بأن الحساء لذيذ... إلا أنه لم يكن هو الذي يستأثر باهتمامي. غادرت البيت في انتظار أن يفرغ المضيف من طعامه.

لم يكن داعي الربح هو الذي يستبقيه هنا، طوال تلك السنين. الحرية، المدى، الصمت... معرفة الانسان بأنه، هنا، السيّد الوحيد، ملك الخليقة على مدى عشرات الكيلومترات من حوله... ثمة أسراب من البط تجتاز آلاف الأميال لتأتي إلى هنا، لتضع هنا وليس في أي مكان آخر، آلافاً أخرى من البط... في السهب كله، تربي الثعالب الزرقاء صغارها الآن، الأسماك تشق الماء في البرك وفي الأنهار، ويبدو كما لو أن ذلك كله إنما يحدث من أجلك، من أجلك وحدك...

ولكن حين يحل الخريف! والشتاء! أي فؤاد يجب أن يكون للشر حتى تتمالك نفسك وسط ليل بلا نهاية، عواصف، أمطار. إن قضاء سنوات في ايسبا صغيرة، تنار بالنفط، ونصب مئات الشراك للثعالب ثم التجوال عبر مئات الكيلومترات في كل طقس، الانغراز في الثلج والعاصفة وتخيل انك صنعت، حرمان النفس من كل المتع وإلى الأبد على وجه التقريب ـ لا من الموسيقا، المكتبات، المتاحف، ومن كل الخيرات التي تدعي ذهنية فحسب، بل حتى من متعة الاستلقاء فوق الرمل على ضفة نهر من أنهار رنا الروسية الرائعة، التجول في الغابة بحثاً عن الفطر، التحدث مع قريب لك... لمِ هذه التضحيات كلها؟ من أجل أن تتمكن سيدة، في مكان ما

في لندن أو نيويورك، من الهبوط من السيارة متدثرة بثعالب زرقاء ثم لتتوجه إلى المطعم...

★ ★ ★

تناول البحارة بنادقهم وخرجوا إلى صيد البوم القطبي الذي كان بياضه مميّزاً فوق اللون الرمادي اللؤلؤي للهضاب. فرقعت طلقات نار جافة ومخنوقة في الوادي. وما كانت طيور البوم لتعيرها انتباهها حتماً لولا أن الرصاصات كانت تنتزع جزازات من الطحلب على بعد قريب منها. كانت آنذاك تطير، ثم تحط للتو تقريباً، وتطير من جديد.

« لن يتمكنوا منها، قال المضيف باشاً. إنها على مبعدة كيلومترين. تلزمها بندقية خاصة.

ـ لا بد أنك رام ماهر، قلت له من أجل تحريك المحادثة.

ـ لدي بندقية جيدة: وينشستر مما قبل الحرب، الأولى، الامبريالية. لكن الطرائد قليلة... وفي الشتاء أحتفظ بها لتحميني. الدببة البيضاء. إنها تأتي أحياناً في جماعات من ثلاثة، أو أربعة، غير أن صيدها محظور. وفي مكاتب الشراء يرفضون جلودها.

ـ هل ولدت في الجوار؟

ـ في أرخنجلسك. كنت في البداية بحاراً... غير أنني لا أحب البحر... بعد رحلة... اتخذت لنفسي زوجة بطريقة غريبة أيضاً. لم أتزوج كالآخرين... لا أدري كيف فعلت...

★ ★ ★

أمسك عن الكلام، وبدا مصغياً، مال على النافذة. فعلت مثلما فعل فرأيت سفينتنا الثالثة تدخل مصب النهر.

نادي مضيفُنا الربان:

ـ الكسندر ماتفيتش، يبدو أن جماعتك لم يأتوا لأجل الحساء! يلوحون، ينادون... لا أفهم ما الذي يريدونه». ؟

هرع الحضور إلى النوافذ، وخرجوا إلى المصطبة. كانت السفينة تدخل النهر وحجبتها رابية عن الأنظار. سمعنا طلقات المحرك الحذرة الذي ما لبث أن صمت. وعند الأفق رأينا فرقاطتنا ما انفكت معلقة فوق الجليد على حامل شاف وهوائي. كان الخليج الهائل مزروعاً بقطع الجليد، والريح الخفيفة الباردة تهب من المحيط، فيما السهب يتوجع تحت الشمس. الصمت، الهدوء...

استبد بنا القلق اثر ذلك: ففيما كنا نأكل ونتمازح حصل أمر غريب في السهب والمحيط. ظهرت قامات على رأس الرابية جعلت تؤشّر لنا.

« ما الذي يحدث هنالك»؟ غمغم الربان بعصبية قافزاً من فوق المصطبة.

انفصلت قامتان ـ عن الأخريات وتقدمتا في اتجاهنا بسرعة فائقة. كانتا تصرخان لكننا كنا نسمع فقط:

« آ ـ آ ـ آ!

ـ ماذا؟ لا نسمع»! صاح الربان، ويده إلى أذنه.

سمعنا آخر الأمر بوضوح:

« حفش، حفش »!

يا للبلبلة التي حدثت! خلال الصيد، والطعام، خلع أكثرنا ستراته، قمصانه، أحذيته، ألقى الجميع بأنفسهم على الملابس، الشباك، القدر. لبست حذائي، تناولت بندقيتي، نظرت إلى مضيفي مستأذناً. ابتسم لي على المصطبة ابتسامة حزينة. كنت أقاسمه حزنه: فإن أراه ثانية، أتحدث إليه مرة أخرى: لن يحدث ذلك قط! لن يحدث قط لن أعرف أبداً كيف يعيش هنا، إذا كانت تنتابه أفكار سوداوية، إذا كان سعيداً... بعد دقائق عشر كانت السفينتان تغادران النهر، تخرجان إلى المحيط. كنا جميعاً متوترين، متهيجين.

★ ★ ★

كانت العودة إلى سفينة الصيد مثيلة الرجوع إلى البيت. لحس الكلب كلاً منا وركض فوق سطح المركب، وبّخ الربان الرجال الذين بينوا بأن الحفش عبر نحو عرض البحر وهزأوا منا لأننا لم نحصل على سلمون. مكث الربان فترة طويلة معكر المزاج مؤاخذاً كل فرد، غير أننا ظللنا مبتهجين وواثقين من أننا وصلنا في الوقت المناسب. فأسراب الحفش بدأت تأتي نحونا. وآرخنجلسك، التجهيزات، العبور، صارت كلها خلفنا. أمامنا: ما كان هنالك سوى الحفش.

لم يعد الراصد يغادر قط مرقبه، وبنظارته المكبرة يرصد الأفق. لا شيء، فجعلتُ مذ ذاك أتأسى لتعجّلنا بمغادرة الإيسبا. نلجأ إلى أسرّتنا عند الفجر: الشمس، النسمة الهادئة النقية، أسراب البط التي تتسلسل. أصابني

الغم فطلبت وحصلت على إذن بالصيد وحدي فوق طوف. أنزلتني السفينة، ومضت. تملّك جناني شعوري بالوحدة واستولت على ذهني أفكار غريبة: فالسفينة لن تعود قط، وسيحدث شيء ما للزورق فيختفي من الوجود. غير أن البط كان يطير من كل مكان. فجعلت أطلق النار وجعل قلبي يخفق كما لو كان لم يفعل منذ زمن طويل. نسيت كل شيء، وقد أخذتني رجفة الحماسة: كنت وحيداً في الدنيا وأسراب البط كلها تطير نحوي...



بعد العودة، فيما كنت أدخن مستلقياً فوق السطح، وقد سُلّمتْ بطاتي للمطبخ، ارتفع فجأة صراخ:

« الحفش! الحفش! يقترب »!

زلزلنا الصراخ الساقط من صاري السفينة. كان يطاردنا فنقفز كيفما اتفق إلى الزوارق. كم من مرة كشفنا على المحركات! بأية محبة اعتنينا بها، أصغينا اليها، لكن بالتأكيد، في اللحظة الحرجة، حين آن أوان كل ما جئنا من أجله وما حلمنا به عبر شهور الشتاء والربيع كلها، امتنع اثنان من المحركات عن الدوران! استولت على الرجال عصبية كهربائية: فالأيدي والأرجل، الرؤوس المنكسة والمرفوعة تتحرك كأنها البرق. دارت المحركات آخر الأمر. استعنا بعصي معقوفة طويلة وتوجهنا نحو عرض البحر حيث كانت أسماك الحفش تتقدم على طول الشاطىء بصمت وسرّية.

بهرت الشمس المنعكسة على الأمواج نظري، وفجأة في اعقاب دقائق

طويلة، برز ظهرٌ ذو لون أبيض مبهر كانت حسكته الفقرية مدببة ومنحنية، وذيل متكامل في شكله، أفقي، جبار... ها هو ذا!

«ها هو! ها هو»! كررت عدة أصوات مجتمعة.

في تلك اللحظة، وكأنما الحفش كله حرم من الهواء أو رغب في رؤية أولئك الذين يطاردونه، انبجست كتل بيضاء ثم عادت فاختفت مثيرة رشات صقيعية.

في تلك اللحظة الوجيزة، أمكنني أن ألتقط تفصيلات من تعابير، ومن حركات أذهلتني غرابتها وجمالها الوحشي.

رائع ومقزز، برؤوس تشبه الخوذ الألمانية، ذات القُبة الهابطة باستواء نحو مقدّم هو الأنف. كان يبدو أعمى بالولادة، مثل دود أرضي أبيض هائل الحجم لأن عيونه متوضعة في موقع خلفي بعيد وجانبياً في حين أنها لا يبين منها من أمام سوى الجبهة الميتة، بلا تعبير وبعناد. شيء ما من إلّه الموج: وحين كان واحد، بمفرده أو بمجموعات تخرج، تنتصب كما يقول البحارة، لكي تتنفس ثم تعود فتسقط بتمام كتلتها في الهاوية الخضراء، كان يخيل إليّ أنني أرى وحشاً كالسمندل أو كحيوانات العصور البدائية التي كانت تحتل الكوكب زمن كان غارقاً تحت المياه.

وكان سمك الحفش رائعاً: فجلدو مشدود مثل الحرير ومطاطي، ويقارب أن يكون كسولاً في جبروته وسرعته. كانت عنفاتنا تدور بأقصى قدرتها، فيما الحفشات تحرك بالكاد أجسامها وأذيالها، ورغم ذلك تحافظ على تقدمها.

كان هوس القتل الرهيب قد تملكني فطلبت بندقية ثقلت على يدي،

معبأة بالرصاص بالطلقات المتفجرة التي تحدث ثقوباً بحجم قبضة اليد في اللحم الذي تستقر فيه. إلا أنني حين رأيت تلك الأسماك، ألقيت سلاحي وجعلت أصلي: «يا رب، اجعلها تبلغ عرض البحر، ولتتعطل محركاتنا!...» وما الذي يحول دون قيام هذه المخلوقات الرائعة حتى إذا أخذت في أشراكنا، من تمزيق شباكنا، والقفز عبر عواماتها والمضي بعيداً لمتابعة حياة لا يتمكن الانسان لا من فهمها ولا من اخضاعها؟...

وفي خلال ذلك، كان الصمت يسود الزوارق. وكان الرماة قد تمركزوا في المقدمة، والموجهون يرقبون الرماة والأسماك. كان الشغف ذاته يعمر نفوس أولئك الرجال جميعاً: فالرقاب ممدودة، والعيون مجعدة، والأفواه مفتوحة. ثمة سمة فنتازية على وجوه الرماة حين كانوا ـ مثل قادة أوركسترات ـ يمدون أذرعتهم لتوجيه الزوارق وجعلها تتبع أسماك الحفش أو تدور من حولها.

«إن أجسام تلك الأسماك، فكرت بيني وبين نفسي، سوف تذهب غذاء للثعالب التي ستقتل فيما بعد، وشحمها سوف يستخدم في صنع زيوت صناعية. فما الذي يهمها؟ وروحها، من يحتاج إليها»؟

لم تطلق النار. كانت زوارقنا تمضي مثل رعاة يتبعون قطيعاً وبدأت العوامات منذئذ بالظهور: أخذت أسماك الحفش تعبر سياج شباكنا. أمامها، صفان من الشباك، عن يمين الجانب، عن يسار صفان من الشباك. ثمة مخرج وحيد: أن تعود أدراجها.

منذ أن عبر آخر حفش المقطع العرضاني من السياج، دوت أولى الطلقات النارية. كان الرجال يرمون في الماء لإخافة السمك، من أجل أن يغوص في عمق الشبكة فيضيع فيها. ألقى أحد الزوارق قارباً وجره نحو

الشاطىء فيما كان ركابه يلقون بالشباك بسرعة جنونية وبذا يحكمون اغلاق الفخ. وانقضّ الزورقان الآخران نحو عمق السياج الذي كانت الحفشات قد أخذت تعود منه. كان الرجال يطلقون العيارات النارية من بندقياتهم والصدى يرجعها، فتثير أعمدة من الماء وتعلقها فوق أقواس قزح عابرة.

كانت بعض الأسماك قد سقطت في أحبولات الشباك: فتظهر أجسامها الضخمة البيضاء وهي تتخبط في الأعماق حتى ليبدو كما لو أن البحر يوشك أن يرتعش إلا أنها ليست أكثر من حركة تغرق العوّامات مدة لحظة. وقد عادت الحفشات الأخرى أدراجها: غير أن اللعبة كانت قد انتهت وانغلق الفخ. في لحظةٍ ما اختفت الأسماك في الأعماق. بلا جدوى، فقد تقضي عليها كلها: منذ كم من السنين، وعبر أية محيطات، طافت بحياتها. لسوف تموت كلها: كان قلبي يتفطر. كانت مع ذلك قوية وكان في وسع كل منها بضربة من ذيله أن يجعلنا نتأرجح. لم تكن تعرف شيئاً غير الاختباء إلى أن تحين لحظة... هو ذا ظل منوّر يمر تحتنا. ننطلق إلى مطاردته. يصرخ الرامي «يساراً» ويرمي في الماء عن يسار السمكة التي تغير مسارها بشيء من التكاسل، كما لو كانت تأسف لما فعلت، وتنثني يميناً... تطلق النار على يمين السمكة. وهكذا بالرمي حيناً عن يمين، وحيناً عن يسار، كنا ندفع الدابة أمامنا ولحول دونها وتغيير مسارها أو الغطس تحت الزورق - إلى أن ينقصها الهواء. فلا يطيق الحفش ذلك، فتخور قواه تحت الماء، ويتوجب عليه بأيما ثمن أن يصعد إلى السطح. يستبين شكله، ويظهر لونه الصحيح. يبدو عظيماً. ينفتح البحر بضجيج حريري، وتبرز الجبهة والخطمان الأسودان، وفي تلك الجبهة يغرز رامينا رصاصاته.

كنت قد تصورت نزعاً ضاجاً: الماء الراغي، ضربات الذيل، صرخات مخنوقة. كلا، اختفت الجبهة، تجمد الذيل، انبسط الجسم، غُمي، انفتحت الغلاصم كما من استمتاع، وجعلت السمكة تغوص فيما أشعة الشمس تتلاعب فوق جثمان الحفش. كان قد قضى نحبه. خارت قواه، ونضب قلبه وهو يُفرز غيمات من دم وردي كانت تتسرب من حول الرأس الكابية وتطفو.

« إلى الوراء سر »! ضجت المرساة وأحاطتنا بآلاف الفقاعات المتألقة.

« الدافعات »!

استخرجت الدافعات. بدأت حركة السير على طريق العودة فأخذت الفقاعات تحيط بالحفش فيما الدافعات تستدرج جسمه الطري، الأنثوي، وتسحبه بنعومة نحو مقدم السفينة... فوق سطح الماء ظهر الذيل الرائع، فعقد البحارة من حوله أنشوطة متحركة ثم رفعوا السمكة، وفيما هم يجففون جباههم استدار كل منهم ليرى ويصغي إلى الضربات التي كانت توجهها الزوارق الأخرى. في غضون ساعة كانت أسماك الحفش كلها قد قتلت. وتم رفع تلك التي حوصرت واختنقت في الشباك ومن باب دفع الشك باليقين غُرزت في رأسها رصاصة. عُلقت الأذيال بانشوطات متحركة حتى صارت الزوارق بحيث جعلت المراسي تبرز من الماء فاضطررنا للتجمع في خلفية السفينة. هكذا، ببطء، سلكنا طريق العودة مخلفين وراءنا خطاً من الدم. علق السمك فوق سطح السفن. فقُطّع وفسخ. والدم يسيل. وكانت الأحشاء تلقى في البحر كتلاً. فجعلت غمامة من النوارس تدوّم فوق سفينة الصيد. صيحات واضطراب لا يتصوره العقل: الأحذية والصدارات، الأيدي، السطح، جوانب المركب، المياه من حوله، كان كل شيء محمراً من أثر الدم... كانت الشمس مع ذلك

ساطعة وقطع الجليد تنزلق بنحو خفي من حولنا. فيما بعد ألقيت جثث الحفش في العنابر وملحت، والجلود السميكة بمقدار نصف بوصة علقت على سلك غليظ وألقي بها في الماء الجليدي حيث صارت تشبه وريقات زهرة هائلة الحجم. ثم غسل السطح. عاد الماء صافياً وانصرفت النوارس. اغتسل البحارة، غيروا ملابسهم، طعموا، ثم إن بعضهم استسلم للنوم، وآخرين جعلوا يتبادلون الحديث عن النساء أو يحركون أزرار جهاز راديو. وثمة آخرون كانوا يدخنون، ينظفون بندقياتهم. ولكن في عش المراقبة، فوق السارية، كان الراصد ساهراً، يدقق النظر في المياه من حولنا من أجل أن يهز من جديد، بصرخة واحدة، أركان سفينتنا الهاجعة:

«الحفش يقترب»!

الفهرس